الإسلام دعوة عالمية

تأليف

منصور الرفاعي عبيد

مدير عام المساجد بوزارة الأوقاف

الجزء الأول

الطبعة الأولى

١٩٩١

بين يدى البحث

عالمية الدعوة الإسلامية

إن الإسلام هو دين الله سبحانه الذى ارتضاه للناس كلهم، وبعث به الأنبياء أجمعين. ثم ختم على يد النبى العالمى الخاتم سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) وكمل بنزول القرآن. وأصبح كاملاً وافياً لصلاح الدنيا والآخرة. ونبوات الأنبياء جميعاً ورسالتهم من عند الله الذى أخبرنا بذلك وهو أصدق القائلين " وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا اله إلا أنا فاعبدون " سورة الأنبياء آية ٢٥، وقوله سبحانه "ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين " سورة الزمر آية ٦٥ ثم إن الأنبياء السابقين على محمد "صلى الله عليه وسلم " كانت دعوتهم محدودة الزمان والمكان . وقد يتواجد أكثر من نبى فى وقت واحد وفى مكان واحد وهذا تدرج طبيعى فى الوصول إلى الكمال حتى إذا بلغت الإنسانية رشدها وكمل نضجها ختمت النبوات والرسالات على يد سيدنا محمد " صلى الله عليه وسلم " ومن لحظة نزولها قررت أصولاً عامة تدل على شمول الرسالة وعمومها وخلودها . فالدعوة الإسلامية لا تكره أحدا على الدخول فى الإسلام. كما أنها تنبه على معتنقيها أن يتعاملوا بالإحسان مع الصديق والعدو . وتبين أن يلتقى المسلم مع أهل الكتاب فى مصاهرة ونسب . وللزوجة أن تبقى على دينها . والدعوة على يد محمد "صلى الله عليه وسلم" وهى تقرر ذلك تقرر الحرية للجميع والعدل معهم والحق والسلام ووحدة الجنس والنسب . وعلاوة على ذلك فإن الدعوة الإسلامية تهتم بحاضر الإنسان ومستقبله . إنها دعوة تعرف فى :

١ – العقيدة – بالتوحيد .

٢ – فى الاجتماع باحترام إنسانية الإنسان.

٣ – فى الأخلاق بتقوى الله، والتواضع، وسلامة الصدر، وفعل الخير مع القريب والبعيد .

٤ – وفي الحرب بالرحمة والعاطفة الإنسانية .

٥ – وفى التاريخ بخدمة الإنسانية وإنقاذها من براثن الدعوات المنحرفة، وفى العالم بأسره بآثارها الزاهية وخيراتها الزاهرة لأنها دعوة الله العالمية سبيلها الحكمة والموعظة الحسنة، وخصائص هذه الدعوة تتميز أنها تفى بحاجة الإنسانية فيما يصون وحدتها ويرعى إنسانيتها ثم هى فى التشريعات تضمن قيام الإنسانية كلها فى محيط واحد لا تنزع الى عصبية دم أو اختلاف لون، ولغة، أو فرقة جنس . ثم هذا التوافق مع خصائص الوجود بحيث لا يتعارض مع ما يثبت من حقائق العلم أو يختلف مع منطق الفكر. ثم إن العبادات التى شرعها الله من صلاة ، وصيام ، وزكاة ، وحج ، وبر بالوالدين وإحسان إلى الجار، وعطف على اليتيم كلها نشيد ربانى يتفاعل مع الكون ويهذب السلوك ويقيم المودة ويحقق رقابة الضمير ويجمع الناس على الخير والبر ويؤلف بين قلوبهم بالإيثار والرحمة . ثم يأتى جانب السلوك والأخلاق والحث على طلب العلم ، ألست معى فى أن هذه الدعوة عالمية لأن الأجيال تفد عليها ثم تمضى وترحل والكل ينهل من معجزة هذا الدين على اختلاف الزمان والمكان دون تناقض أو تعارض . وذلك دليل على حيوية هذا الدين وامتداده، فالأصول ثابتة يستضيىء بها الوجود الإنسانى ويرتبط معها كيانه ، حقائق يرحب بها العقل ويشاركه فى الترحيب بها القلب. أفلا تكون تلك هي الرحمة المهداة للإنسانية كلها؟ لأن كل شىء فى تعاليمه يهتم بإبراز خصائص الإنسان الذى يحاول أن يخترق بوسائل العلم الطوق الأرضى وينشد السفر إلى القمر والكواكب ، فإنه يجد فى الإسلام أبعد مما ينشده عندما يقرأ قصة نبى الله محمد (صلى الله عليه وسلم) ورحلة الإسراء والمعراج. أى شىء يريده الإنسان أوفى وأكرم وأبر من هذا الدين الذى يفى له

بالأمن والطمأنينة وحماية العرض والمال بعد أن هدى عقله وحمى نسبه . ماذا بعد أن تلتقى دنيا الناس بدين الله فى كون آياته تحث الشخص أن يحفظ الدنيا بالمنفعة ويسعى للآخرة باستقرار اليقين وصدق الإيمان . وماذا بعد أن تصان الأسرة فى ظل عقيدة تبر بها، وآداب تحفظها، وحقوق ترعاها، وتكافل ينمى خصائصها . ماذا بعد أن تحل مشاكل العيش وشئون الاقتصاد بوحى من التقدير لأمر الإنسان وحريته وكرامته وتقديس حقه بلا ضرر أو ضرار . دين يفى بكل هذا وأكثر منه ويفتح أمام الإنسانية باب التعاون على الرفعة الدائمة فى كل ميدان ولا يقنع أبدا بقدر من العلم مهما بلغ شأنه بل يحث على طلب المزيد ، أفلا يكون هذا الدين هو دعوة الله للعالمين ؟؟؟

إن المطلوب من الإنسانية أن تتعرف على هذا الدين ليعرفوا خصائصه ويدركوا مقاصده . وإذا لم يفعلوا فما لهم يرمونه عن جهل بأنه دين إقليم ويسيئون إليه باسم العلم الذى يسيئون إليه من حيث لا يعلمون وإلى أنفسهم وهم لا يشعرون أن الصدّ عن دين الله العالمى جريمة لا تقل عن جرائم مجرمى الحرب لأن العالم اليوم أنهكته الحيرة بعد أن أغواه الشيطان . فتنكر الأب لولده والولد لأمه وقتل الأخ أخاه وسلبت الأعراض وظهر الفساد هنا وهناك وتتساءل الإنسانية هل إلى خروج من سبيل ؟؟؟

والسبيل هو دين الله الذى يدعو إلى السلام والإخاء والمحبة والتعاون ومن واجبنا وقد عرفنا الطريق أن نرشد الإنسانية إليه وننصح فيهم وندعوهم بما تعلمناه من وحى السماء "وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله" سورة الأنعام آية ١٥٣.

إن الأشخاص ماضون والحقيقة باقية . لذلك لم نر رجلا أنصف الحقيقة ودافع عنها مثل ما فعل نبى الإسلام محمد "صلى الله عليه وسلم" . لقد التقت الرسالات كلها عنده فوجدت نفسها على طبيعتها ووجدت فيه الذائد عن طهارتها،

الحارس لجوهرها .التقى الأول بالآخر، وتآخى السابق باللاحق وأنصفت الحقيقة التى ظلمها الناس . إن محمدا "صلى الله عليه وسلم" كرم الأنبياء جميعا وطلب الإيمان بهم وعده أصلاً فى رسالته والتفريق بينهم إنكار لدعوته " لا نفرق بين أحد من رسله " سورة البقرة آية ٢٨٥ .

إن القرآن الكريم ضم فى ثناياه الاعتراف بهم ويصفهم دائماً فى مواضع التكريم والاحترام كما جرى على لسان النبى محمد "صلى الله عليه وسلم" كل إنصاف وتقدير لهم مما يدل على أن الإسلام ليس دخيلاً على الكون ولا غريبا على فطرة الإنسان . لأن هذا الدين جمع خصائص النبوات السابقة وهى متلاقية مع فكر الإنسان ووجدانه لأنه يجد صيانة نفسه ورعاية جسده وحفظ كيانه . لذلك تستجيب له النفوس دون دافع من إغراء مادى أو تلويح بقوة . إن الإسلام قد جرب وجرب المسلمون معه كلما أخذوا أنفسهم به سعدوا وسعدت البشرية. وكلما انصرفوا عنه ضلوا وتاهوا وتاهت البشرية . إن الله سبحانه هو خالق البشر ثم يناديهم أن يحيوا فى النور ويعيشوا فى الضياء لأن ذلك مصدر سعادتهم ، فيقول لهم " قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم " سورة المائدة آية ١٥ .

— إن الإسلام سلام تردده القلوب وتنطق به الألسن في مجال الذكر لله، وعند التقاء العباد مع بعضهم ، فتحية العباد عند اللقاء السلام والله سبحانه يدعو العباد إلى دار السلام لتكون تحيتهم يوم يلقونه سلام. إذا آمنا بالإسلام وصرنا على نهجه وطبقنا شرعه ونشرناه بين الناس أجمعين " هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله " سورة الفتح آية ٢٨ .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى خلق الإنسان وأنعم عليه بنعمة العقل والبيان واختار من البشر الأنبياء ، وأرسلهم إلى الإنسانية هداة مبشرين هادين إلى الحق وإلى صراط مستقيم .

وأرسل النبى محمدا "صلى الله عليه وسلم" خاتما للأنبياء والمرسلين، فلك الحمد اللهُم أسبغت علينا نعمك ظاهرة وباطنة . وهديتنا إلى الإسلام . وجعلتنا من أمة خاتم النبيين التى جعلتها خير أمة أخرجت للناس أجمعين .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد . النبى العربىّ . الذى كانت حياته خيرا وبركة على الدنيا كلها . لأن دينه خاتم الرسالات السماوية بعد أن تلقى كلمة الله الأخيرة للبشرية .

أما بعد : فإن خير ما يتدارسه المسلمون . ويعنى به الباحثون والكاتبون دراسة السيرة النبوية . لأن فيها ما ينشده المسلم من كمال لدينه ودنياه . حيث يجد فيها الباحث العلم والعمل . وإمامة المجتمع . وقيادة البشرية . بأدب وعدل. مع كياسة وسياسة ، وخلق ورحمة .

إن السيرة النبوية مدرسة تخرج منها الصحابة الكرام الذين كان منهم: العبقرى الملهم ، والفقيه البارع والعاقل الحازم . والعالم العامل . والبطل المغوار. والسياسى المحنك . والتاجر الأمين . والزارع اليقظ . والصانع الدقيق . والغنى الشاكر . والفقير الصابر . وغير ذلك كثير من الصفات التى تحلى بها الصحابة رضوان الله عليهم الذين تعلموا فى هذه المدرسة . وعلى يد رائدها العظيم "صلى الله عليه وسلم " حامل لواء الدعوة العالمية.

من أجل هذا . حرص السلف الصالح من هذه الأمة بعد أن أدركوا ما لسيرة النبى من آثار حسنة فى تربية الأفراد . وتنشئة جيل صالح يحمل رسالة الإسلام ، ويضحى فى سبيلها بالغالى والرخيص لأنها رسالة حق . فكانوا يحفظون سيرة النبى العدنان . ويلقنونها لأبنائهم . فقد جاء فى الأثر عن زين العابدين على بن الحسين "رضى الله عنهما" قوله : " كنَّا نُعَلَّمُ مُغَازى رسول الله "صلى الله عليه وسلم" كما نعلم السورة من القرآن " (١) كما روى عن اسماعيل بن محمد بن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنهم قال : " كان أبى يعلمنا المغازى والسرايا ويقول : يابنى هذه شرف آبائكم فلا تضيعوا ذكرها " (٢) .. وإذا كانت سيرة النبى "صلى الله عليه وسلم" فيها علم الدنيا والآخرة . فإن محمداً "صلى الله عليه وسلم" تحلى بالفضائل كلها ، واتصف بالمكارم جميعها ، ففيه تأصلت الرحمة، وانتهى إليه كل أفعال الخير ، وعلى يديه فاض النور وأشرقت الهداية . ويكفى قول الله فى شأنه . " وإنك لعلى خلق عظيم " (٣) . . فجدير بنا أن نقرأها ونعيها ونعلمها لأبنائنا ومن المعلوم أن التاريخ الإنسانى لم يعرف نبيا ولا رسولاً، ولا عظيماً ، ولا زعيماً ، ولا مصلحاً ، ولا قائداً استوعب فى صفاته ما استوعبه محمد بن عبد الله ، ولم يكن لأحد منهم كمال عقلى كما كان لهذا النبى، ولم يكن هناك لأحد منهم سمو روحى كما هو الحال مع هذا النبى العظيم . . فلقد اختصه الله بالكمالات التى تشرق فى كل جوانب نفسه . وتسرى فى كيانه كله بنبل الصفات، ومحاسن العادات حتى استحق أن يصفه الله بالنور فى قوله : " قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين " (٤) . وأن يجعله الله أسوة للبشرية كلها تأخذ من صفاته وتتحلى بأخلاقه كما جاء فى قول الله تعالى : " لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة " (٥) .. من هنا كان هو القدوة الحسنة والأسوة الصالحة لكل الناس والرحمة المهداة من الله ، أنعم به على الناس فاستغنوا به

---

(١) رواه الخطيب وابن عساكر (٢) المواهب اللدنيه جزء (١)

(٣) الآية – ٥ من سورة القلم (٤) الآية – ١٥ من سورة المائدة

(٥) الآية – ٢١ من سورة الأحزاب

عما سواه ولم يعودوا بعده بحاجة إلى قدوة أو دين جديد . . حيث جاءهم بما فيه صلاح الحياة ، وعمران الكون ، وتزكية النفوس بعد أن أخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد الديان . فإذا تمسكوا بشريعته فهم ليسوا فى حاجة إلى دين سواه ، ولا يبحثون عن مبدأ غريب وفكر مستورد لأن ما نزل على سيدنا محمد "صلى الله عليه وسلم" فيه الخير كل الخير . وقد أكمل الله دينه وأتم رسالته على يد هذا الرسول العظيم لقول الله تعالى : " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا " (١) . ولما كان الأمر بهذه المكانة . فقد تكفل الله بحفظ قرآنه لأنه دستور هذا الإسلام . وضمن بقاءه وسلامته من التحريف والتبديل ، قال تعالى : " إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون " (٢) ، وبهذه الطريقة فقد عصم الله رسوله " صلى الله عليه وسلم " لتكون حياته صورة صادقة لهذا الدين . لأنه القدوة فى الخير . والأسوة بين الناس . فقد كان صلى الله عليه وسلم قرآناً حياً متحركاً ، يلزم نفسه بأحكامه ، ويعمل بتوجيهاته .. لذلك وصفته السيدة عائشة رضى الله عنها حين سئلت عن أخلاق رسول الله " صلى الله عليه وسلم " ، قالت : " كان خلقه القرآن " .

وهو بهذا المثل الأعلى فى الإخلاص لله ، وحبّه للناس وعطفه عليهم لذلك قال الله له : " وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم " (٣) ، ولما كان هو المثل الكامل فى الخلق الفاضل فقد جعل الله طاعته من طاعته فقال سبحانه : " من يطع الرسول فقد أطاع الله " (٤) ، وقال : " ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً " (٥) .

كما أنه جعل مبايعة الرسول مبايعة لله ، فقال سبحانه : " إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله " (٦) كما أن الحق سبحانه وتعالى ربط بين محبته

---

(١) الآية – ٣ من سورة المائدة (٢) الآية – ٩ من سورة الحجر
(٣) الآية – ٥٢ من سورة الشورى (٤) الآية – ٨٠ من سورة النساء
(٥) الآية – ٣١ من سورة الأحزاب (٦) الآية – ١٠ من سورة الفتح

سبحانه وتعالى وبين صحة اتباع النبى " صلى الله عليه وسلم ". فقال سبحانه:
"قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم " [١] .

إن سيرة النبى " صلى الله عليه وسلم " ما هى إلا سجلٌ حافل بجلائل الأعمال، إنها كنز المواعظ والعبر . ترسم الطريق إلى مرضاة الله ، وتجسم القيم العليا والمبادىء الرفيعة فى شخص النبى "صلى الله عليه وسلم" ، فتوقظ الهمم وترشد إلى الخير وتضع المعالم للطريق السليم أمام الدعاة والمصلحين كى يظهروا معالم تلك الدعوة العالمية امام الرأى العام حتى لا يكون لاحد حجة اذا لم يدخل فى الإسلام بعد ان وضحت الحقيقة وعرفت معالم تلك الرسالة الخاتمة العالمية .

من أجل هذا ، أقدمنا على الكتابة فى هذا الموضوع . وقد وقفنا على عتبات النبى " صلى الله عليه وسلم " ، نستأذنه بعد أن سألنا الله أن يوفقنا، وهو أعلم بأن قلوبنا مملوءة بالحب لهذا النبى العظيم . وعندما نقلب فى صفحات تاريخه ، فإننا نجد الخير كل الخير الذى يسعدنا أن نقدمه لأبناء جيلنا الذين نرجو لهم السعادة والأمن والاستقرار.

وإذ أسأل الله سبحانه أن يأخذ بيدى إلى طريق الصواب أضرع إليه سبحانه أن يغفر لى ما قدمت . وأن يكون عوناً فيما بقى لى من حياة .

منصور الرفاعى عبيد

مدير عام المساجد / ج . م . ع .

---

(١) الآية – ٣١ من سورة آل عمران

الجزيرة العربية :

إن أول شيء فى دراسة سيرة سيدنا محمد " صلى الله عليه وسلم " هو أن نتعرف على الجزيرة العربية التى اختارها الله لتتشرف بأن يكون سيدنا محمد من بين أبنائها ، يحمل رسالة الله الخالدة بعد أن نشأ فيها مراحل حياته الأولى منذ ولادته .

فلقد كانت الجزيرة العربية هادئة عن غيرها من البلاد المجاورة . بل كانت منعزلة عن الاضطرابات التى تسود العالم . . كانت طبائعهم أشبه ما تكون بالمادة الخام . تتراءى فيها الفطرة الإنسانية السليمة والنزعة القوية إلى الاتجاهات الإنسانية الحميدة . . . كالوفاء .. والكرم .. والإباء .. وكانوا يتمتعون بحرية لم يكن يتمتع بها أحدٌ من البلاد المجاورة . وقد سرت هذه الحرية والاعتداد بالنفس إلى جميع طبقات الشعب . وعَمت الذكور والاناث .. يدلُّ على ذلك ما جاء فى شرح المعلقات السبع « أن عمرو بن كلثوم » الفارس المشهور، والشاعر الفحل . قتل " عمرو بن هند ". ملك الحيرة لأنه أرسل إلى عمرو بن كلثوم " يستزيره . ويسأله أن يُزيَرأمَّهُ أمَّهُ ، فأقبل " عمرو بن كلثوم " من الجزيرة إلى " الحيرة " فى جماعة من بنى " تغلب " وأقبلت " ليلى بنت مهلهل " فى ظعن من " بنى تغلب " ، وأمر " عمرو بن هند " برواقه فضرب فيما بين " الحيرة " " والفرات " . ودخل عليه " عمرو بن كلثوم " ودخلت – ليلى وهند – فى قبة من الرواق – وقد كان – عمرو بن هند – أمر أمَّهُ أن تُنَّحِيَ الخدم إذا دعى بالطعام وتستخدم " ليلى " أمَّ عمرو بن كلثوم " . فدعا عمرو بن هند بمائدة فمدت. ثم دعى بالطعام . فقالت " هند " ناولينى " ياليلى " هذا الطبق . فقالت " ليلى " لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها فأعادت عليها وألحت . فصاحت " ليلى " واذلاه

يالتغلب " فسمعها عمرو بن كلثوم . فثار الدم فى وجهه . ووثبَ إلى سيف لعمرو بن هند معلق بالرواق . فضرب به رأس " عمرو بن هند " وانتهب بنو تغلب ما فى الرواق . وساروا نحو الجزيرة . وقال فى ذلك " عمرو بن كلثوم " قصيدته المشهورة . التى تعدُّ من عيون الشعر الجاهلى وهى من المعلقات .

(بتصرف من كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة) .

ولا يفوتنا هنا أن نذكر ما جاء فى تاريخ الطبرى – جزء – ٤– " أن المغيرة بن شعبة " رسول المسلمين إلى " رستم " لما دخل عليه وهو فى أبُّهته وسلطانه . جلس معه على سريره ووسادته على عادة العرب . فوثبوا عليه وأنزلوه . فقال : " كانت تبلغنا عنكم الأحلام . ولا أرى قوماً أسفه منكم . إنا معشر العرب سواء . لا يستعبد بعضُناَ بعضاً . إلا أن يكون محاربا لصاحبه فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى وكان أحسن من الذى صنعتم . أن تخبرونى أن بعضكم أربابُ بعض . وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه . ولم آتكم ولكنكم دعوتمونى " .

ثم إن موقع الجزيرة العربية الجغرافى يجعلها جديرة بأن تكون مركزا لدعوة تعمُّ العالم . وتخاطبُ الأمم . فهى تقع فى قارة " آسيا " لكنها تقارب " إفريقيا وأوربا " . وكلاهما له من خصائص الحضارة والثقافة ما يضفى عليه القوة والمهابة . لكن " الحجاز " كانت تمرُّ بها القوافل التجارية التى تأتى من بلاد مختلفة وتصل بين قارات الأرض . تحمل من كل بلد ما يستطرف ..أضف إلى ذلك : أن الجزيرة العربية تقع بين قوتين متنافستين .. الغرب . ويعتنق المسيحية – والشرق – ويعتنق المجوسية . ورغم ذلك ظلت الجزيرة محتفظة بحريتها وشخصيتها . لم تخضع لاحدى الدولتين .. من أجل هذا : اختار الله

الجزيرة العربية لتكون مبعث الرسول الأعظم . ومكان تنزل الوحى ونقطة انطلاق للإسلام فى العالم أجمع .

وليس من باب الصدف أبدا . وإنما هو اختيار الله سبحانه .. فلقد اكتشف فى عصرنا الحديث أن " مكة المكرمة " تقع فى مركز اليابس فى الكرة الأرضية – أى فى منتصف الكرة الأرضية – وقد أعلن ذلك الدكتور حسين كمال الدين – رئيس قسم الهندسة المدنية – بكلية الهندسة بجامعة " الرياض " – حيث اكتشف – أن مكة المكرمة تقع على الخريطة فى وسط العالم . ونشرت " الأهرام " هذا فى العدد ٣٣٩٨ – بتاريخ ١٩٧٧/١/٥م.

أنبياء ظهروا فى الجزيرة العربية

بعض الناس يزعم أن النبوة والأنبياء لم يبعثوا إلا فى " أورشليم " وما حولها . وأن أى نبى يبعث فى غير تلك المنطقة لا يعترف به وفات هؤلاء قول الله تعالى : " الله أعلم حيث يجعل رسالته " [١] والذين ينكرون ذلك فاتهم أن الجزيرة العربية هى موطن الرسالات الأولى .

١ – " فإدريس" عليه السلام نبيُ عربى ،، بعث فى أرض العرب . وقد قال الله فيه "واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً، ورفعناه مكاناً علياً "[٢] ، كما جاء فى كتاب قصص الأنبياء لأبى الفداء مانصه : " إن إدريس عليه السلام قد أثنى الله عليه بالنبوة والصديقية وهو فى عمود نسب النبى " صلى الله عليه وسلم "، وما دام فى عمود نسب النبى " صلى الله عليه وسلم " فهو عربى .

٢ – " نوح " عربىٌ كذلك . وقد أكدً " ابن كثير " أنه دفن فى البلاد العربية.

---

(١) الآية – ١٢٤ من سورة الأنعام (٢) الآية – ٥٦ من سورة مريم

٣ – وهود عليه السلام – كان من قوم عاد – وكانوا عرباً يسكنون " بالأحقاف " ويذكر ابن كثير أنه يقال أن هوداً أول من تكلم بالعربية . يقول الله تعالى كما جاء على لسان هود لقومه " واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون . قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ، فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين "(١) ويتبين من هذا النصّ أن هوداً جاء من بعد نوح . وأن قومه كانوا خلفاء لقوم " نوح " مما يوحى بأن قوم نوح كانوا فى أرض العرب .

٤ – " صالح " عليه السلام كذلك كان عربيا . لأنه نبى " ثمود " وكانوا يسكنون " الحجر " التى بين الحجاز و "تبوك " . وقد مرَّ عليها النبى صلى الله عليه وسلم وهو ذاهب إلى " تبوك " . ونقرأ النص الآتى فى قول الله تعالى فيما جاء على لسان صالح لقومه : " واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد . وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا ، وتنحتون الجبال بيوتا . فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين " (٢) . ويستدل من هذا النص على أن قوم ثمودٍ جاءوا بعد عاد وأن عاداً جاءوا بعد قوم نوح .

٥ – " شعيب " عليه السلام – ويستدل على عروبته بما جاء على لسانه لقومه كما حكى القرآن " وياقوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هودٍ أو قوم صالح، وما قوم لوط منكم ببعيد ." (٣) وقوم " لوطٍ " كانوا فى أطراف أرض العرب من ناحية أرض الشام . إذ قد اختار لوط محلة غير المحلة التى كان بها عمُّه ابراهيم عليهم جميعا السلام ، ونعود إلى " شعيب " فقد بعث إلى أهل "مدين " وكانوا يعبدون شجرة عظيمة هى " الأيكة " ومدينتهم "

---

(١) الآية – ٦٩:٧٠ من سورة الأعراف (٢) الآية – ٧٤ من سورة الأعراف

(٣) الآية –٨٩ من سورة هود

مدين " قريبة من أرض " معان " من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز قريبا من بحيرة قوم "لوط " .

٦ - موسى عليه السلام : ولد بمصر ونشأ بها وتربى فى دار فرعون. وتلقى رسالته فى أرض العرب حيث كان بجانب الطور فى أرض سيناء . وهو عائد من أرض " مدين ".

٧ - ابراهيم عليه السلام : ولد فى أرض " بابل " وهاجر إلى أرض العرب بعد أن طوَّفَ ما طوَّفَ فى أرض الله الواسعة .

٨ - اسماعيل عليه السلام : الذى شب عن الطوق فى أرض العرب وتعلم العربية .

حضارات ظهرت فى الجزيرة العربية

علاوة على ما قدمناه من ظهور أنبياء فى الجزيرة العربية ، فلقد لعبت الحضارة دوراً كبيراً على أرض العرب مما يدل على وجود العمران والخصب والنماء ، ففى بلاد كاليمن استفادوا من مياه الأمطار والسيول وأقاموا لذلك الخزانات والسدود بطرق هندسية بديعة. والقرآن الكريم وهو أوثق المصادر يخبرنا عن أهل اليمن أنهم استفادوا بمياه الأمطار فأقاموا الحدائق ذات الأشجار الكثيرة والزروع المتنوعة يقول الله تعالى : " لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور".[1] .. ويشير القرآن إلى أن القرى كانت متلاصقة وأن قوافل التجارة والمسافرين كانوا يخرجون من بلاد اليمن إلى الشام فيجدون فى كل مكان الظل والماء ، والطعام . يقول تعالى : " وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة ، وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياماً آمنين " [2] . كما ذكر عن

(١) الآية - ١٥ من سورة سبأ (٢) الآية ١٨ من سورة سبأ

قوم "عاد" أنهم بنوا العمارات الفخمة واتخذوا المصانع القوية . وذكر عن قوم "صالح" عليه السلام أنهم عاشوا فى جنات وعيون وزروع ونخل . واتخذوا من الجبال بيوتاً قوية وقصورا واسعة . وقد حدث ذلك فى شمال "حضرموت" بالأحقاف يقول تعالى: "كذبت عادٌ المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هودٌ ألا تتقون إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين . أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون. وإذا بطشتم بطشتم جبّارين . فاتقوا الله وأطيعون . واتقو الذى أمدَّكم بما تعلمون . أمدَّكم بأنعامٍ وبنين . وجنات وعيون "[١]، ويقول سبحانه : "كذبت ثمود المرسلين. إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين . أتتركون فيما هاهنا آمنين فى جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم . وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين . فاتقوا الله وأطيعون ."[٢] ، ويقول سبحانه : "واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا. وتنحتون الجبال بيوتا . فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين."[٣]

إنَّ هذه الحقيقة التى جاء بها القرآن على لسان النبى العظيم أيدها علماء العصر الذين نقبوا عن الآثار فى طبقات الأرض فوصلوا إلى ما أكدَّ هذه الحقائق . وان كنَّا نؤمن بما أخبرنا به القرآن إيمانا لا يخالطه شك . إلاَّ أن سعادتنا عظيمة عندما تؤكد الاكتشافات الحديثة ما جاء به القرآن منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ليؤكد للبشرية انه بحق معجزة باقية مؤيدة للنبى الخاتم .

---

(١) الآية – ١٢٣ : ١٣٤ من سورة الشعراء

(٢) الآية – ١٤١ : ١٥٠ من سورة الشعراء

(٣) الآية – ٧٤ من سورة الأعراف

بلاد سلمت من الاستعمار

الأمة العربية من أرقى الأجناس البشرية ، واللغة العربية لغتها أرقى اللغات الحيَّة وأثراها وأخفها على اللسان والأمة العربية من أقدم الأمم وأشهرها . لها فى التاريخ القديم والحديث آثار يتحدث عنها العالم . والجنس الذى يسكن شبه الجزيرة يسمى "الجنس العربى" وهو أحدُ الأجناس السامية ، ولكنه أكثرها محافظة على خصائص الساميين، ويتكلم اللغة العربية .

والحياة فى شبه الجزيرة العربية تميل إلى " الانعزالية " والمحافظة على الأنساب والأحساب وعدم التزوج من غيرهم ، أو تزويج الأجنبى منهم . مما كان سببا فى المحافظة على الجنس العربى واللغة العربية من الهجمات التى تعرض لها غير العرب . وقد شاء الله تعالى أن لا تطأ الحجاز قدم دخيل أو مغير . ولا كان لأحد من الدول المجاورة القوية سلطان عليها . لذلك بقى أهلها على ما فطروا عليه من الحرية ، وما اتصفوا به من الخلال الكريمة . وسلمت أنسابهم من الهجنة، ولغتهم من العجنة . فإذا ما أضفنا إلى ذلك استقامة نفوس العرب وإن انحرفت عقولهم أحيانا مع قوة الشكيمة التى تمرسوا عليها . وما امتاز به العربى من جُودٍ وسماحة مما جعلهم أهلاً لأن يبعث النبى الخاتم منهم . فإن ذلك لن يوعز لأحد أن يطمع فيهم أو يتحكم عليهم ، لأنهم رفضوا حكم الملوك الذى يجرُّ إلى الذل الذى يفسد النفوس . كما قالت " بلقيس " حاكمة اليمن " إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ."[1]

حكى " أبو سفيان بن حرب " أن " هرقل " قيصر الروم حين بلغه كتاب رسول الله " صلى الله عليه وسلم " يدعوه فيه إلى الإسلام ورأى نفرة قومه وأيس من إيمانهم. قال هرقل : " رُدُّوهم عَلَىَّ فقال لهم إنى قلت مقالتى آنفاً أختبر بها

(١) الآية – ٣٤ من سورة النمل

شدتكم على دينكم فقد رأيت . فسجدوا له ورضوا عنه . . هذا ما كان يحدث فى بلاد غير العرب . أما فى بلاد العرب فكانت الشورى وكان ما قالته " بلقيس " عن حكم الملوك صحيحا يمثل الحقيقة التى نقلها القرآن على لسانها .

إن العربىَّ مخلص لقبيلته . مطبق على نفسه تقاليدها ، كريم يؤدى واجبات الضيافة كما يؤدى واجبات الصداقة . يحبُ الحرية ويعشقها . وإن كانت فى حياته خشونة وصعوبة من أجل ذلك لا يعرف الراحة ولا الاستقرار . حياة جلبت المشقة لأصحابها . والقبيلة هى الحكومة القيّمةُ على أمرهم والمتصرفة فى شئونهم .

أرض العرب تحمى أصحاب الديانات

قلنا بأن الجزيرة العربية عاشت فيها الرسالات الأولى كما كان أهلها على مبادىء عالية من الخلق العظيم . وشاء الحق سبحانه أن يكون أول بيت وضع فى الأرض لعبادته فى هذه البقعة الطيبة . وكان كل من يأتى إلى هذا البيت يجد الأمن والسلامة والاستقرار ، ومع ذلك كان يفد إلى هذه الأرض .. المضطهدون.. ممن اعتنقوا رسالات الأنبياء الأول . عندما كانوا يشعرون بكراهية الناس لهم وصب العذاب عليهم فيفرون إلى تلك البلاد . فيجدون الأمن والرعاية والحماية .

ويذكر التاريخ : أن اليهود عندما شعروا بظلم الرومان لهم حيث ضربوا عليهم الذلة والمسكنة ، ولم يدخلوهم فى الجنسية الرومانية ، ولم يبسطوا عليهم سلطانهم ، وإنما جعلوهم من أدنى الطبقات فى المجتمع . ففرُّوا إلى أرض اليمن وعاشوا تحت إمرة قوم " تُبّع " ووجدوا حريتهم عندما شعروا بالأمن والأمان . كما أن بعض اليمنيين اعتنق اليهودية – واليهود لم يعترفوا بهم ولم يضموهم فى جماعتهم ، لأن اليهودية جنس " فى زعم اليهود " وهم يقولون – نحن أبناء الله وأحباؤه – لذلك لم يعترفوا بجنسية اليهودى إلا لمن ولد من أب وأم يهوديين . ثم

انتشر اليهود فى الجزيرة العربية ، وهاجروا إلى " يثرب " واستوطنوا حولها – كبنى النضير ، وبنى قريظة – وبنى قينقاع . وخيبر – ولم يندمجوا فى العرب ولم يتعاونوا مع أهل البلاد . بل اتخذوا لأنفسهم حصونا تحويهم ، واختاروا الأراضى الخصبة لزراعتهم رغم أن العرب هم الذين آووهم وانزلوهم أرضهم ومع ذلك عاملوهم معاملة سيئة ونظروا إليهم على أنهم أقلُّ منهم مرتبة . وقالوا عنهم بأنهم أميُّون – والأ ميُّ – لا يؤبه له ويؤكل حقه ، ولهذا قال الله سبحانه وهو يعبر عن هذه الحالة : " ومن إهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما . ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون عل الله الكذب وهم يعلمون ."[1] إن اليهود الذين جاس التتار ديارهم ومزقوهم شرَّ ممزق واضطهدهم الرومان وأذلوهم لم يجدوا الحماية والرعاية والأمان إلا فى أرض العرب ، ومع ذلك لم يسلم العرب من شرهم ، لكنهم تعاملوا معهم على حسب معدنهم " وكل إناء بالذى فيه ينضح ".

المسيحية

اضهد الرومان كذلك اتباع المسيح عليه السلام . وتقول بعض الروايات التاريخية : أن اليهود هم الذين أغروا الرمان ليضطهدوا المسيحيين، ويعتدوا عليهم من أجل ذلك هاجر المسيحيون إلى " نجران " ودخل أهل " نجران " فى المسيحية ، وانتشرت فى هذه الأماكن ولقد أخلص أهل هذه البلاد لعقيدة المسيح عليه السلام . وضحوا فى سبيل تلك العقيدة بكل شيىء حتى أن " ذانواس " صار إلى أهل هذه البلاد وأراد أن يحملهم على اليهودية إلاَّ أن أهل " نجران " لم يقبلوا ذلك فما كان منه إلا أن حفر أخدودا في الأرض وأشعل فيه النار وألقى بنحو عشرين ألفا من أتباع المسيحية فى هذا الأخدود المشتعل، ومع ذلك

---

(١) الآية – ٧٥ من سورة آل عمران.

لم يرجع أحد منهم عن دينه ولقد قال عنهم القرآن الكريم بأنهم من المؤمنين الصابرين . يقول الله تعالى : " والسماء ذات البروج ، واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود . قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذى له ملك السموات والأرض ، والله على كل شيىء شهيد . " [1]

إن العربى يقبل ما يتفق مع عقله . لذلك لم يجد فى اليهودية ما يتفق مع فطرته بسبب التعصب الممقوت . كذلك لم يجد فى المسيحية ما ينشده لأن القساوسة زعموا أن فى دينهم أسرارا لا يطلع عليها فى دينهم إلا هم . لذلك حصرت اليهودية فى أماكنها كما حصرت المسيحية " بنجران " شمال اليمن وفى " الحيرة " كما جاء فى " معجم البلدان " لياقوت الحموى . ولكن الذى يهمنا هنا أن نظهره أن البلاد العربية وأهلها الأصليين لم يضيقوا ذرعا بالوافدين إليهم . ولم يضنوا عليهم بخيرهم . من هنا : فهى أرض الحريات ، لأن منها سينتشر النور عما قريب .

الحنيفيون

يطلق هذا الإسم على جماعة من العرب مالُوا عن الدين الباطل إلى الدين الحق . الذى راق لعقولهم من وجهة نظرهم ، وهؤلاء كانوا يدينون بشريعة ابراهيم عليه السلام .. لأنهم سمعوا أن إبراهيم كان يميل إلى الحنيفية السمحة ، كما كانوا يؤمنون بالبعث واليوم الآخر وأن نبيًا يبعث فى آخر الزمان .

من هؤلاء :

١ - " قسٌ بن ساعدة الأيادى " . كان خطيبا حكيما يدعو إلى توحيد الله

(١) الآية - ١ : ٩ من سورة البروج

وترك عبادة الأوثان ، ويؤمن بالبعث بعد الموت ، وقد بشر بالنبى " صلى الله عليه وسلم " . روى " أبو نعيم " فى دلائل النبوة – عن ابن عباس قال : " إن قس بن ساعدة . كان يخطب قومه فى سوق " عكاظ " فقال فى خطبته : " سيَعْلَمُ حقٌّ من هذا الوجه / وأشار بيده إلى مكة / قالوا : وما هذا الحق ؟ . قال : رجل " من ولد " لؤى بن غالب " يدعوكم إلى كلمة الإخلاص . وعيش الأبد ونعيم لا ينفد فإن دعاكم فأجيبوه . ولو علمت أنّى أعيش إلى مبعثه لكنت أوّل من يسعى إليه " ، وقد أدرك النبى " صلى الله عليه وسلم " ، ولكنه مات قبل البعثة " .

٢ – " زيد بن عمرو بن نفيل " . . والد الصحابى الجليل " سعيد بن زيد" أحدُ العشرة المبشرين بالجنة .. روى البخارى أن زيداً خرج إلى الشام يطلب الدين الحق . فلقى عالماً من علماء اليهود ، فلم يعجبه ما قال ، ثم خرج فلقى عالماً من النصارى فلم يقع فى نفسه ما عرض عليه ، ولكنه وجدهما يذكران دين إبراهيم وأنه هو الدين الحنيف . فلمَّا سمع قولهما فى إبراهيم خرج . فلمَّا برز رفع يديه وقال : " اللهم إنى أشهدك أنى على دين ابراهيم .." ، وكان يقول: "يامعشر قريش . والله ما منكم على دين ابراهيم غيرى ، وكان يحيى الموؤدة " يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته : لا تقتلها أنا أكفيك مؤنتها فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها : "إن شئت دفعتها إليك . وإن شئت كفيتك مؤنتها " ..

٣ – " ورقة بن نوفل " ابن عم السيدة خديجة رضى الله عنها .. كان ممن كره عبادة الأوثان وقد أعجبه دين النصرانية فى أول الأمر ولقى ركباً من الرهبان كانوا على دين عيسى الحق . وعاش على توحيد الله حتى كبر وكُفَّ بصره ، ولما أخبره النبى صلى الله عليه وسلم بخبره قال : " هذا الناموس الذى أنزله الله على موسى" . ياليتنى فيها جَذَعاً . ليتنى حياً إذ يخرجك قومك . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : أو مخرجىَّ هم ؟ قال : نعم . لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلاَّ

عودى . وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً " . وقد مات على التصديق بالنبى صلى الله عليه وسلم والإيمان به ...

٤ – " أُمية بن أبى الصلت " .. كان قد نظر فى الكتب . وطلب الدين الحق. وأكثر فى شعره من ذكر التوحيد والبعث . وقد عرف أن نبيا سيبعث من قريش وأن النبوة تنال بالرياضيات فتحنث وتعبد أملاً فى أن يأتيه الوحى . فلما لم يأته ونزل على النبى صلى الله عليه وسلم . حسَدَهُ ، وقال : إن الحنيفية حق . ولكن الشك يُدَاخلُنى فى محمد . ولَّما – قيل له – : أفلا تتبع هذا النبى ؟ قال : أستحى من نساء ثقيف . كنت أقول لَهُنَّ : إنىّ أنا هُوَ ، ثم أصير تابعاً لغلام من بنى عبد مناف !!! ، وقد عاش حتى وقعت " بدرُ الكبرى " ثم مات من غير أن يسلم . بين كمده وحسده وحسرته .

الحياة الإجتماعية عند العرب

إن ما قدمناه من شأن الحنيفيين يدلُّ على أن الحياة الإجتماعية عند العرب كانت تتسم بالحرية . ولقد كان للعرب أوضاع وتقاليد وقوانين عرفية فيما يتعلق بعلاقة الأفراد بعضهم ببعض . وعلاقة القبيلة بالأخرى كما كان هناك أمور تتعلق بالأسرة من نكاح وثبوت نسب ونظام التوارث ووضع المرأه . والطلاق . وغير ذلك . ونجمل القول فيما يأتى :

١ – كان العرب يعتز الواحد منهم اعتزازا لا حدَّ له بالأحساب والأنساب ويتفاخر بذلك . لهذا لم يصاهروا غيرهم من الأجناس اعتزازا بالدَّم العربىّ من أن يختلط بغيره .. ومن ذلك ما روى أن ا"النعمان بن المنذر " أبى أن يزوج إحدى بناته من أبناء " كسرى " أو يزوج أحد أولاده من بنات " كسرى " مع أنه كان تابعاً لَهُ .

٢ – الشعر .. فقد كان سجل مفاخر أحسابهم وأنسابهم . وديوان معارفهم وعواطفهم وكان البيت من الشعر يرفع القبيلة أو يخفضها . لذلك كانوا يفرحون بالشاعر الذى ينبغ فيهم. لأنه يتغنى بأمجادهم. وكانت تستهويهم الكلمة الفصيحة والأسلوب البليغ. لذلك جمعوا قصائد شعرية لها فى حياتهم أثر وعلقوها في جوف الكعبة ..

٣ – الإلتزام بالقبيلة .. فالفرد فى القبيلة تبع للجماعة . ينوب فيها ويفعل ما يشير به رئيس القبيلة . ولذا قال " دُرَيدُ بن الصمة"

وهل أنا إلاَّ من غزية إن غوت -- غويت وإن ترشد غزية أرشد

والقبيلة مجموعة من الناس تربط بينها وحدة الدَّم والنسب . وفى ظل هذه الرابطة نشأ قانون عرفى ينظم العلاقة بين الفرد والجماعة على أساس من التضامن بينهما فى الحقوق والواجبات ، والقبيلة لها رئيس يسمى " السيد أو الشيخ " وهذا الرئيس ترشحه للرئاسه منزلته فى القبيلة . وصفاته وخصائصه من شجاعة ، ومروءة ، وهمة ، وإباء . ولذا لم تكن الرئاسة وراثية فهى تنتقل إلى من يتحلى بهذه الصفات .. ولرئيس القبيلة حقوق أدبية ومادية : أما الأدبية : فهى : احترامه وتبجيله ، والإستجابة لأمره والنزول على حكمه وقضائه ..

وأما المادية : فقد كان له فى كل غنيمة تغنمها القبيلة ما يأتى :–

١ – المِرْبَاعُ : وهو ربع الغنيمة .

٢ – الصفايا : ما يصطفيه لنفسه من الغنيمة قبل القسمة .

٣ – النشيطة : وهى ما أصيب من مال العدو قبل اللقاء .

٤ – الفضول : وهو ما لا يقبل القسمة من مال الغنيمة .

وقد أجمل الشاعر كل هذه الأمور فى قوله :

لك المرباع فينا والصفايا — وحكمك والنشيطة والفضول [1]

إن رئيس القبيلة وقد منح هذه الحقوق فعليه مسئوليات ضخمةٌ . فهو فى السلم جواد كريم . يفتح بيته للضيوف ويقرى الوافدين ويمدُّ يد العون لعابرى السبيل . ويغيث المحتاج من أبناء القبيلة ويجير المستجير – كما أنه فى الحرب يتقدم الصفوف . فهو فى الحقيقة رمز القبيلة . ولسانها الناطق ، وعقلها المعبر بمعونة العقلاء من ذوى التجربة والخبرة من أبناء القبيلة ، وكل فردٍ فى القبيلة ينتصر لها ظالمة أو مظلومة . وينصر أفرادها سواء كانوا على حق أم على باطل . ولذا قال قائلهم :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم — فى النائبات على ما قال برهانا

٤ – وضع المرأة فى المجتمع العربى : من المعلوم أن الرجل العربى كانت عنده نخوة فهم يغارون على أعراضهم ، ويحافظون على نسائهم . والعربى الأصيل قد يَقْتُلُ ، وقد يسطو على الأموال .. ولكن تأبى عليه مروءته أن ينتهز ضعف المرأة . أو وحدتها فينتهك عرضها .. ومن الحق أن نقول : إن بعض القبائل كانت تجلُّ المرأة . وتأخذ رأيها فى الزواج . وهناك قبائل أخرى كانت تعد المرأة من سقط المتاع . تورَثُ ولا ترث . وكان الابن الأكبر من زوجها من حقه أن يتزوجها بعد وفاة أبيه . حتى أبطل الإسلام ذلك كما كان من حقه أن يمنعها من الزواج " يُعْضِلُهاَ " حتى أبطل الإسلام ذلك . ولا يورَثونها لأن الذى يرث فى عرفهم – من يحارب ويجالد – حتى جعل الإسلام لها حقاً مفروضا . وكانوا يجمعون بين الأختين وبين البنت وخالتها وبين البنت وعمتها حتى حرَّم الإسلام كل ذلك .

---

(١) – يراجع كتاب مكة والمدينة من ص ٣١ إلى ص ٣٤ .

كما أن هناك قبائل أخرى كانت تئدُ البنات . والسبب فى ذلك أن قبيلة حاربت أخرى فغلبتها وسبت نساءها وبناتها وتزوجوا بهن . فلما تمت المصالحة بين القبيلتين خيُر النساء والبنات أن يرجعن إلى أزواجهن وأهليهن وبين البقاء عند من تزوجوهن . فاخترن البقاء . فآلى رجال تلك القبيلة على أنفسهم أن يئدوا البنات وهُنَّ صغار ثم فشت هذه العادة عند غير هذه القبيلة مجاراة لها وخوفا من أن يصيبها ما أصابها . وهناك قبائل لا تئد ، بل كانوا يستقبحون هذه الفعلة الشنعاء .. وقد بلغ من سفه بعض القبائل : أنهم جعلوا البنات لله خوف العار والخزى . وكان الرجل يدركه الحسرةُ والكمدُ إذا بشر بأن امرأته ولدت أنثى . وإلى هذا يشير قول الله سبحانه : " ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون . واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بُشرَ به أيمسكه على هون أم يدسُّهُ فى التراب ألا ساء ما يحكمون "[1] . كما كانت المرأة العربية الحرَّةُ الأصيلة . تأنف أن تفترش لغير زوجها وحليلها . وتفضل الموت على ذلك ومن الأمثلة التى ترددت على لسان الحرائر منهن : " تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها " . وتشارك المرأة البدوية زوجها فى رعى الماشية وسقيها وغزل الصوف ، ونسج الثياب ولا تفضل على البادية أى شيىء فى الحضر . حيث الحرية والهدوء ، والصفاء .. وليس أدَلُّ على ذلك من أن " معاوية بن أبى سفيان " وهو خليفة المسلمين . تزوج من " ميسون بنت مجدل " فولدت له " يزيدا " ، ومع أنه نقلها من البادية إلى الحضر وإلى حياة القصور والنعيم والترف ، لكنها تاقت إلى حياة البادية والعيش الجاف . وإلى بدوى مثلها ولقد سمعها " معاوية " فى ليلة وهي تتغنى فتقول :

لبيت تخفق الأرواح فيه – أحبُّ إلىَّ من قصر منيف

---

(١) الآية – ٥٨ : ٥٩ من سورة النحل

ولبس عباءة وتقرُّ عينى – أحبُّ إلىَّ من لبس الشفوف

وأكل كسيرة فى قعر بيتى – أحبُّ إلىَّ من أكل الرغيف

وخرق من بنى عمى ضعيف – أحبُّ إلىَّ من علج عنيف

فلما سمعها معاوية طلقها .. ومن هنا يتبين لنا أن المرأة فى الجاهلية كان لها عند بعض القبائل شأن تشعر فيه بالكرامة والعزة . وعند البعض الآخر كانت تلاقى الإساءة والإذلال والهوان. حتى جاء الإسلام فأعطاها حقها ورفع شأنها.

وأنزل فى القرآن سورة باسمها . وإذا كان امتهان المرأة فى بعض القبائل يعدُ من مثالب العرب ، فإن ذلك راجع إلى ما يعتمل فى نفوسهم من معانى العزة والإباء.

مثالب العرب

كان لبعض العرب فى بعض القبائل أخلاق مرذولة . كالعنجهية والعصبية والأخذ بالثأر واغتصاب الأموال ، وأكل مال اليتامى والتعامل بالربا ، وشرب الخمر ، والزنا ... وينبغى أن نعلم : أن الزنا كان فى الإماء . وأصحاب الرايات من البغايا ، ويندر أن يكون فى الحرائر . وليس أدلُّ على هذا من أن النبى صلى الله عليه وسلم بعد الفتح أخذ البيعة على النساء : " على أن لا يشركن بالله شيئا . ولا يسرقن ، ولا يزنين " . قالت " هند زوجة أبى سفيان " : " أو تزنى الحرَّة يارسول الله ؟ " .

كما كانت الحروب تقوم بينهم لأتفه الأسباب من أجل ناقة أو سباق فرس
– كما حدث فى حرب " البسوس " التى قامت بين " بكر " و "تغلب " اربعين سنة
– وحرب " داحس والغبراء " التى قامت ودامت بسبب فرسين .

وكان يحلو لبعض القبائل من البدو السطو والإغارة بغرض نهب الأموال وسبى الأحرار وبيعهم . كما حدث مع " زيد بن حارثة " و "سلمان الفارسى " .

الفضائل

إذا كنا قد ذكرنا نوعاً من المثالب فلكى نضع الصورة الحقيقية أمام القارىء ليعيش بأحاسيسه ووجدانه فى الحقيقة التى كان المجتمع العربى يعيشها .

فمن فضائل العرب :

١ – حبُّ الحرية : فهو يعشقها ويحيا لها ويموت من أجلها ويردد :

ماء الحياة بذلة كجهنم – وجهنم بالعزِّ أطيب منزل

٢ – الكرم : خلق متأصل فيهم حتى كان الواحد منهم يجود بفرسه أو ناقته . حتى قال قائلهم :

يجود بالنفس إن ضنَّ البخيل بها – والجود بالنفس أقصى غاية الجود

ويقول آخر :

ولو لم يكن فى كفّهِ غير نفسه – لجاد بها فليتق الله سائله

٣ – حماية الجار وإجارة المستجير .. كانوا يرعون حقوق الجار والمحافظة على عائلته حتى قال شاعرهم :

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى – حتى يوارىَ جارتى مأواها

٤ – المروءة والنجدة : فقد كان العربى يأبى أن ينتهز ضعف الضعيف وعجز العاجز لأنه يشعر أن شهامته تمنعه من الإعتداء على الضعيف .

٥ – الوفاء بالعهد : وهى من صفات العرب المشهورة . وأوضح دليل على ذلك : أنه لمّا ظفر " الحارث بن عباد " بقاتل ابنه . وهو "المهلهل بن ربيعه " وهو لا يعرفه . قال له : " إن دللتك على المهلهل تطلقنى ، قال له : نعم ، قال له : أنا مهلهل . فتركه ولم يقبل أن يخلف وعده .

٦ – القناعة والرضا باليسير وقوة الروح وعظمة النفس والصبر على المكاره وقوة الاحتمال . وكلها من أعظم الصفات التى تحلى بها العرب .

مكة شرفها الله

إن الجزيرة العربية وقد حباها الله بهذا الخير العظيم فإنه منحها فوق ذلك فضلاً لم تحظ به أية بقعة فى أرض الله . لأن الحق سبحانه وتعالى وهو خالق الزمان والمكان ، فضل بعض الأزمنة على بعض كما فضل بعض الأمكنة على بعض كما فضل بعض الناس على بعض . والحال كذلك مع ملائكة الله وأنبيائه يقول سبحانه " وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيره "[١]، ويقول: "تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض"[٢] ، ويقول: "الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس"[٣].

لما كان الأمر كذلك فإن الجزيرة العربية قد حباها الله بأن جعل مكة من بين قراها وجعلها مركز اليابسة . وجعل البيت الحرام فيها مثابة للناس وأمنا . وقد أخبرنا الحق سبحانه أن البيت الحرام هو أول بيت وضع فى الأرض لعبادة الله . كما أخبرنا سبحانه أن إبراهيم عليه السلام هاجر مع زوجته " هاجر " وولدهما الرضيع " اسماعيل " فرارا من الوثنية المنتشرة فى العالم ورغبة فى تأسيس

---

(١) الآية – ٦٨ من سورة القصص (٢) الآية – ٢٥٣ من سورة البقرة

(٣) الآية – ٧٥ من سورة الحج.

مركز يُعْبَدُ فيه الله . ويدعو الناس إليه ، ويكون منارا للهداية ونقطة انطلاق لدعوة التوحيد والدين الخالص . وكان ابراهيم عليه السلام لا يزال فى جهاد يدعو الناس إلى الله فكان ينتقل من مكان إلى مكان . ثم يعود إلى مكة ويغادرها والقرآن يقص علينا أن ابراهيم عليه السلام عندما قصد مكة فى أول الأمر وهى وادٍ محصور بين جبال جرداء ليس فيه ما يعيش عليه الناس ، وترك زوجتَه فى هذا المكان ، رفع يديه إلى السماء وقال : " ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون "[1]. وقصٌ علينا القرآن أن ابراهيم كان وهو فى تجولاته داعيا إلى الله يعود إلى ولده " بمكة " وقد أمره الله أن يرفع قواعد البيت الحرام ، وقد أشرك ابراهيم ولده اسماعيل فى هذا العمل العظيم . وكانا وهما يعملان يتضرعان إلى الله أن يتقبل هذا العمل وأن يبارك هذا البيت ، وأن يعيشا على الإسلام ويموتا عليه وأن يبعث الله نبيا من ذريته من هذه البقعة يجدد دعوة التوحيد ويتمم ما بدأه ابراهيم واسماعيل . وتحقق كل ذلك ، فبارك الله فى ذرية اسماعيل وتوسعت الأسرة الإبراهيمية العربية فقد صاهر اسماعيل " جرهم " بعد أن نبع عين زمزم ، ونزلت هذه القبيلة التى نزحت من اليمن فى أسفل المكان الذى بنيت فيه مكة ، وعُرِفُوا بالعين التى نبعت فى هذا المكان واستأذنوا " أم اسماعيل " أن يقيموا بجوارها فأذنت لهم . ووجدت فيهم من يؤنسها ويزيل وحشتها ، وبارك الله فى ذرية اسماعيل حتى كان منه " عدنان " وهم أكثر الأنساب العربية صحة وحفظا وتداولا .

ونعود إلى بناء البيت الحرام : فإن الخليل ابراهيم عندما فرغ من بنائه أمره الله سبحانه أن يؤذن فى الناس ويخبرهم بأن الله فرض عليهم الحج إلى

---

(١) الآية -٣٧ من سورة إبراهيم

هذا البيت . فقال : " يارب وماذا يبلغ صوتى ؟ " . فقال الله : " ياإبراهيمُ عليك الأذان وعلينا البلاغ ." فوقف الخليل على جبل " أبى قبيس " وهو ينادى ويقول: " يأيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا . فأجابه كل من كتب الله لهم الحج إلى يوم القيامة وهم فى أصلاب الآباء أو فى عالم الذر - يقول الله تعالى :"وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات ". [1]. وصار الناس من هذه اللحظة يحجون إلى هذا البيت ويعتمرون ويطوفون ويسعون ، وعرف ما حول الكعبة بالمسجد الحرام ، وهو أول المساجد التى تشدُّ إليها الرحال ففى الحديث الصحيح المتفق عليه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " لا تشدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد . مسجدى هذا ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى " .

الأشهر الحرم

وكان من رحمة الله سبحانه بالبشرية أنه جعل عدة الشهور اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم - ومدار معرفة الشهور العربية على رؤية الهلال - يقول تعالى : " يسئلونك عن الأهلة ، قل هى مواقيت للناس والحج "[2]. وقد جعل الله من هذه الشهور أربعة أشهر حرُماً . وسميت بذلك لتحريم القتال فيها . وقد عظم العرب هذه الشهور حتى كان الواحد منهم يلقى قاتل أبيه فى هذه الأشهر فلا يعرض له بسوء .

والأشهر الحرم هى : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب الفرد ويقال له : " رجب مضر - وقد صار ذلك فى الإسلام كذلك وقد جاءت الأشهر الحرم على هذا الوضع لأجل تأمين حجاج البيت وزواره . فحرم الله قبل شهر

---

(١) الآية - ٢٧ من سورة الحج (٢) الآية -١٨٩ من سورة البقرة.

الحج شهراً ، ليسير الحجاج إلى هذه البقاع المباركة فى أمان وهو شهر ذى القعدة ، وسمّىَ بذلك - لقعود الناس فيه عن القتال - وحرم الله ذا الحجة لأنهم يوقعون فيه مناسك الحج . وحرَّم بعده شهرا وهو المحرم ليرجع فيه الناس إلى أقصى بلادهم وحرَّم رجب فى وسط الحول لأجل زيارة البيت وأداء العمرة .

ووجود البيت الحرام فى هذه المنطقة أكسبها مكانة عالية لوجود الأمن والاستقرار . يقول الله تعالى : " أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون ، وبنعمة الله هم يكفرون " [١].

وفضلا عن المكانة المقدسة التى حظى بها هذا البيت فإن التجارة راجت فى هذا المكان ، وأصبحت مكة ذات اتصال تجارى بالروم والفرس ، وكان العرب يتخذون من موسم الحج سبيلا لترويج العديد من البضائع . يقول الله تعالى: "لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا ربَّ هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف " [٢]. فكان هناك سوق " عكاظ " و " ذى المجنة " و "ذى المجاز " ، وهذه الأسواق علاوة على ما يروج فيها من التجارة كانت تعقد فيها الندوات الأدبية ، ويتخذها الشعراء موسماً لإلقاء قصائدهم . كما أنها كانت وسيلة إعلام بمكانة العرب التجارية ، والأدبية ، والشعرية لأن الحجاج والعمار ينقلون ما يسمعون إلى بلادهم . فيقف الناس على ما يجرى فى مكة من رواج تجارى ورواج بيانى فتتعلق بها قلوبهم وتهفو إليها نفوسهم . وعلاوة على ذلك كان هناك "دار الندوة" فقد كان العرب إذا حز بهم أمرٌ واحتاجوا إلى المشورة وتداول الرأى، اجتمعوا فى دار الندوة فى مكة المكرمة - كبراء القبائل ورؤساؤها - يتشاورون ويتحاورون إلى أن يصل الأمر إلى ما يريدون. وكانت الرياسة فيها لقريش . فمكةُ بذلك لها موطن التقديس لوجود الكعبة بها،

---

(١) الآية -٧٢ من سورة النحل (٢) سورة قريش.

علاوة على ما يحيط بها من الصفا والمروة ، وعرفات ، والمزدلفة ، ومِنَى . الأمر الذى جعل سكان هذه البقاع يتمتعون بشخصية اعتبارية لها مكان التقدير والإعزاز فى نفوس أهل هذا الزمان .

حادث الفيل

قال الله تعالى : " إن أول بيت وضع للناس الذى ببكة مباركا وهدى للعالمين، فيه آيات بينات مقام ابراهيم، ومن دخله كان آمنا "[1] صدق الله العظيم.

هكذا يتحدث القرآن الكريم عن مكة وما يلابسها ويحيط بها من أمن وأمان. ومن المعلوم أن أحداث هذا الوجود تسير طبقا لناموس كونى حدَّدَهُ ربُّ العزة بحكمته ، وتخيره بإرادته ، وأقامه بقدرته وهذا الناموس ثابت عند رب العالمين .. فالوجود لم يقم بمحض مصادفة هكذا . والأحداث لا تسير اعتباطاً ، وإنما كل شيىء يجرى فى الوجود بإرادة الله .

وقد شاء الحق سبحانه وتعالى أن يجعل الخير والبركة فى مكة وما جاورها وأضفى على أهلها القيادة والريادة . لأنهم أهل البيت الحرام وساكنوه . وفتح لهم أبواب الخير فراجت تجارتهم ، وذاع صيتهم ، وصدق الله العظيم " لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف "[2] . فغير سكان الحرم كان يشعر بالجوع ويحس بالخوف . لذلك حسدهم غيرهم .. والحسد داءٌ وبيل ومرض خبيث ، يأكل قلب صاحبه قبل أن يُحطّم غيره.

---

(١) الآية – ٩٦ : ٩٧ من سورة آل عمران (٢) سورة قريش.

من هنا: وقع حادث عظيم وخطير يدل على ما فى قلب الغير لمكة وساكنيها " فَاليَمَنُ " آل أمرها إلى رجل من الحبشة يسمى " أبرهة "، وقد سمع عن مكانة مكة ، وقدسية بيتها ومهابة أهلها والخير الذى آل إليهم من عائد التجارة ورواجها . لذلك أراد أن يصرف العرب عن مكة وأن يحولهم إلى " اليمن " فقام ببناء كنيسة عظيمة ضخمة ، فخمة .. جلب إليها الصناع ، واشترى لها أغلى ما فى الوجود من زخارف ومفارش وسماها " القُلَّيس " وأراد أن يجبر الناس على التوجه إلى اليمن لزيارة تلك الكنيسة واضفاء القدسية عليها ، لتروج التجارة فى تلك المنطقة . وكتب إلى " نجاشى الحبشة " ليوجه النصارى لزيارة هذه الكنيسة، وجاء فى الخطاب الذى أرسل به إليه : " إنىّ بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك من قبلك . ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب ." ومضت الأيام وتسمَّعَ العرب بأمر هذه الكنيسة . فأراد رجل من العرب أن يُحقِّر رأى أبرهة . فذهب إلى الكنيسة وأحدث فيها .. ولما رأى أبرهةُ احتقار العرب لها . واستمرارهم على الذهاب إلى البيت الحرام . لم يجد بُدًّا من تنفيذ خاطر خطر له وهو هدم الكعبة . وخرج بجيش عظيم . وكانت وسائل نقلهم على الإبل والخيل ويتقدمهم " الفيل " . وتحرك أبرهة فى جيش لم تسمع الدنيا بمثله آنذاك . متوجها إلى مكة وكلما هم نفرٌ من العرب بمهاجمة جيش أبرهة هُزِمَ . فافزع ذلك العرب . واستمر فى السير وهو يهزم كل من يقابله إلى أن وصل إلى الطائف. وقد رأى أهلها ما حل بغيرهم فمالئوه . وبلغ الخبر إلى أهل مكة من قريش وكنانة وهزيل ، وعلموا أنهم لا قبل لهم بمقاومته خاصة وأن الانتصارات التى كسبها فى الطريق زادته قوة وزاد أهل مكة خوفا .. وأبرهة رجل نصرانى يدين بها . ويعرف من كتبه مكانة مكة المقدسة . لذلك : كان يريد أن يستمكن من البيت برضا أهل مكة ، ولا يريد أن يهدمه إلا إذا تعرض له أهل مكة . لكنه لما كان عند أهل الطائف ومالئوه زينوا له أمر الهدم . لأنهم كانوا ينفسون على أهل مكة

ماكسبوه من شرف لقيامهم على سلامة البيت وأمره . لذلك غلب الفزع على أبرهة وأراد أن يأخذ البيت بسلام ، وقد أرسل رسولا من قبله إلى أهل مكة . وقال له: سل عن سيدها، وقل له: إن الملك يقول لكم إنى لم آت لحربكم ، إنما جئت لهدم هذا البيت فإن لم تعرضوا له بحرب فلا حاجة لى بدمائكم . فإن هو لم يرض إلا بحربى فائتنى به . وذهب رسول الملك إلى مكة وعلم أن سيدها وشريفها هو " عبد المطلب بن هاشم " ، فلما سمع عبد المطلب من رسول الملك ما قال . أجابه عبد المطلب إجابة سليمة . فقال :" والله ما نريد حربه ، ومالنا بذلك منه طاقة . هذا بيت الله الحرام . وبيت الخليل ابراهيم . فإن يمنعه منه فهو بيته . وإلا فوالله ما عندنا دفع عنه " .

والذى يتأمل فى هذا الكلام يلحظ أنه إنذار شديد اللهجة لرجل يدين بدين سماوى . ويتبين أن عبد المطلب أراد أن يقول له : " إنك لا تحارب أهل مكة ولكنك تحارب الله . وإن هدمت البيت الحرام . فهو البيت الذى بناه ابراهيم أبو الأنبياء بأمر الله" وهذا تهديد يروع نفس كل جبار معتد أثيم.

وأثناء تحرك " أبرهة " من الطائف إلى مكة . استاق جيشه إبلاً لعبد المطلب .. وهنا سعى عبد المطلب لمقابلة الملك فاستأذن عليه . فلما دخل عبد المطلب على أبرهة .. وكان عبد المطلب رجلاً مهيب القامة من أجمل الناس وأوسمهم . من رآه هابه فلما دخل على أبرهة . عَظّمَهُ وأجلّهُ واكرمه ونزل من على سريره وأجلسه معه . وقال للترجمان . قل له : ما حاجتك .. فقال عبد المطلب : "حاجتى أن تردَّ على إبلى" . فقال أبرهة .. أتكلمنى فى الإبل . وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك . لقد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتنى . فقال عبد المطلب . أما الإبل فهى لى ، وأما البيت فله ربٌّ يحميه ...

وهذا الكلام الهادىء يفعل فى النفوس مالا تفعله السيوف . لكن أبرهة ردَّ عليه قائلاً ، وقد غلبه الفزع . ما كان ليمتنع منى . قال عبد المطلب : أنت وذاك .

رد أبرهة إبل عبد المطلب الذى عاد إلى مكة وأخبر أهلها بما كان . وأمرهم أن ينحازوا إلى شعاب الجبال خوفا عليهم من معرة الجيش . وقام عبد المطلب ومعه نفر من قريش ، فأخذوا بحلقة باب الكعبة ، وتضرعوا إلى الله . وكان مما قاله عبد المطلب :

اللهم إن المرء يمنع رحله – فامنع رحالك

لا يغلبن صليبهم ومحالهم – أبداً محالك

فانصر على آل الصليب وعابديه – اليوم آلك

إن كنت تاركهم وقبلتنا – فأمر ما بدا لك

ثم انطلق عبد المطلب ومن معه إلى الجبال ينتظرون ما يفعله " أبرهة" وما كاد " أبرهة " يقترب من البيت إلا ووقف " الفيل " ولم يسرْ وحبسه الله تعالى : فوجهوه إلى اليمين فتحرك وجرى . ثم وجهوه إلى الشام فجرى كذلك . فلما وجهوه إلى البيت فلم يتحرك ولم يسر . وقد كان الأولى بأبرهة أن يتعظ ويعتبر ، وأن يحظى من الغنيمة بالإياب . لكنه اعتزم على تنفيذ نيته . وزاد إصرارا وما هى إلا لحظات حتى أتتهم رياح عاصفة ومعها طير أبابيل فى مناقيرها وبين أرجلها حجارة صغيرة صلبة شديدة قوية . ترمى ذلك الجيش بقوة وما يكاد الحجر يصيب الرجل إلا ويتمزق جسده فخرجوا هاربين يتساقطون بكل طريق . ونكَّلَ الله بأبرهة وجيشه شرَّ تنكيل ..

وقد قال بعض الكتاب عند قراءتهم لهذا الحدث فى كتب التاريخ : إن هذه

الحجارة كانت تحمل جرثومة مرض الجدرى والبعض يقول بأنها جرثومة " الكوليرا " ، وهذا داء وبيل ، وقد قال ابن اسحاق فى سيرته : " حدثنى يعقوب بن عتبة أنه أول ما رؤيت الحصبة والجدرى فى أرض العرب كان فى ذلك العام .. وليس هناك ما يمنع أن الحجارة كانت تحمل تلك الجراثيم لهذه الأمراض الفتاكة القاتلة التى رمت الطير بها لأن ذلك كان رداً على هؤلاء المغيرين عل بيت الله . بإرادة هدمه . ونريد أن نؤكد على أن الطير رآه كل الناس آنذاك . ويؤكد ذلك ما جاء فى القرآن الكريم : " ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول ."[1]

إن ذلك العذاب الأليم الذى أصاب أبرهة وجيشه من الطير الأبابيل التى جاءت جماعة بعد جماعة . ترميهم بالحجارة حتى أن من فرَّ منهم تبعه طيرٌ فرماه . ولم يسلم أبرهة . واقرأ ما كتبه ابن اسحاق حيث يقول فى سيرته : "خرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك على كل منهل . وأصيب أبرهة فى جسده . وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة كلما سقطت أنملة أتبعتها منها نقطة صَديدُ ثم قيحا ودماً حتى قدموا به " صنعاء " وهو مثل فرخ الطائر .فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه " .

إرهاصات

كان هذا الحدث الذى أرِّخ به العرب . وقالوا : وقع هذا فى عام الفيل وولد فلان فى عام الفيل . لأن ذلك الحدث آية من آيات الله . فأبرهة الذى خرج من صنعاء قويا فى بدنه مغرورا فى نفسه يصحبه جيش قوى غلب من قاومه فى الطريق حتى إذا جاء إلى رحاب الله يتحدى الله فى بيته الذى جعله حرماً آمنا

(١) سورة الفيل.

مباركا إذا بهذا المغرور يعود مذموماً مدحورا مقصوص الجناح . ذهب تدبيره وكيده . تقرح جلده وتساقط لحمه . لذلك : اهتمت العرب بهذا الحدث وفرحوا بإنقاذ بيت الله الحرام من ذلك العدوان الغاشم الأثيم .. كما أن سكان الأرض تسمعوا بهذا الحدث فأعظموا أمر قريش . وتعلقت العرب بهم وقالوا هم أهل الله قاتل عنهم وكفاهم أمر هذا العدو .. وكأن هذا الحدث كان إرهاصا بمولد النبى صلى الله عليه وسلم . وإكراماً للعرب بسبب الوليد الذى يفد اليهم فى هذا العام . لأن آمنة الطاهرة البتول قد أودعها الله تعالى : خير الخلق فكان مباركاعلى العرب وعلى الناس أجمعين من يوم أن حملت به .

العالم غير العربى

إن العرب لم يكونوا وحدهم على خريطة الكرة الأرضية آنذاك . ولكن كان هناك سكان غير العرب فى "الدولة الرومانية الشرقية "

وكان يتبع هذه الدولة : مصر ، وسوريا ، وغيرهما من الدول ، كما كان هناك الامبراطورية الإيرانية . كذلك . الهند ، وأوربا المتوغلة فى الشرق والغرب. كل هذه الدول وغيرها قامت فيها حضارات ونزاعات فلسفية . علينا أن نقف أمامها وقفة مدارسة ليتبين لنا بجلاء أن العالم فى القرن الخامس الميلادى وما يليه أصيب باضطراب فكرى . وتفرق بنو الإنسان حتى صار القانون السائد هو القوة . وصار ابن آدم ينقض ما أبرمته الفطرة . وعجز العقل عن أن يحكم بين الناس بل اتخذ العقل مطية لتبرير الباطل وتزييف الحق . وأصبحت الديانات العظمى وصحفها وشرائعها فريسة للعابثين بالميراث الإنسانى ولعبة للمنحرفين . وفقدت شرائع الأنبياء وتعاليمهم روحها وشكلها . ولو بعث ابراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء والمرسلين وشاهدوا حال شرائعهم لأنكروها وتجاهلوها لما لحق بشرائعهم من مفاسد وتزييف .

فالنصارى: قد استسلموا لحكم الامبراطورية الرومانية . واليهود شوهوا تعاليم موسى عليه السلام. ولا وجود لهم إلا في المجتمعات التى ينشرون فيها الفوضى والفساد. ويطاردهم أفراد المجتمع من هنا وهناك .

تلك كانت حالة العقيدة الدينية . أهلها إمّا مستذلون ، وإما فى فوضى فإذا ما انتقلنا إلى بلدٍ كاليونان التى راجت فيها الفلسفة وجاء" سقراط " وأراد أن يدرس نظام التعامل الإنسانى ومقياس الفضيلة المتمثل فى المعرفة لمظاهر السلوك الإنساني .. فبدلا من أن يهيم الإنسان فى البحث فيما وراء الطبيعة من غير هادٍ يهديه. دعا إلى دراسة نظام التعامل الإنسانى . وخلال هذه الأمور ظهرت الفلسفة "السوفسطائية" التى تشكك فى حقائق الوجود . بل تشكك فى كل شيىء . لأنه ليس للأشياء حقيقة . وإنما الأمر فيما يعتقده كل شخص .

إزاء كل هذه الأشياء نحن نقف وقفة أمام ما جاء فى دائرة المعارف اليهودية – ونقرأ فيها " إن سخط الأنبياء وغضبهم على عبادة الأوثان تدل على أن عبادة الأوثان والآلهة كانت قد تسربت إلى نفوس الإسرائيليين . ولم تستأصل شأفتها إلى يوم رجوعهم من الجلاء والنفى فى بابل. وقد قبلوا معتقدات خرافية ومشركة – إن التلمود أيضا يشهد بأن الوثنية كانت فيها جاذبية خاصة لليهود " . ويدل تلمود بابل " الذى يبالغ اليهود فى تقديسه وقد يفضلونه على التوراة . وكان متداولا بين اليهود فى القرن السادس المسيحى ، ومازخر به من نماذج غريبة من خفة العقل، وسخف القول، والاجتراء على الله، والعبث بالحقائق، والتلاعب بالدين والعقل على ما وصل إليه المجتمع اليهودى فى هذا القرن من الانحطاط العقلى وفساد الذوق الدينى .. (الكنز المرصود فى قواعد التلمود) "للدكتور يوسف حنا " – مترجم من الفرنسية .

فإذا ما تركنا اليهودية وهذا شأنها فإن المسيحية أيضا أصابها تحريف

الغالين ، وتأويل الجاهلين . ويتحدث العالم الأروبى (درابر) فى كتابه – الصراع بين الدين والعلم – فيصف المسيحية بأنها أصبحت ركاماً . واختفى نور التوحيد وراء سحب كثيفة من الفساد الأخلاقى "، وقد جاء فى دائرة المعارف "الكاثوليكية " ما خلاصته : " تغلغل الاعتقاد بأن الإله الواحد مركب من ثلاثة أقانيم فى أحشاء حياة العالم المسيحى وفكره منذ ربع القرن الرابع الأخير. ودامت كعقيدة رسمية مسلمة عليها الاعتماد فى جميع أنحاء العالم المسيحى، ولم يرفع الستار عن تطور عقيدة التثليث وسرها إلا فى المنتصف الثانى للقرن التاسع عشر الميلادى " .

ونقرأ كذلك فى فتح العرب لمصر ل " ألفرد بتلر " تعريب "محمد فريد أبو حديد" أنه جاء القرن السادس المسيحى والحرب قائمة على قدم وساق بين نصارى الشام والعراق . وبين نصارى مصر حول حقيقة المسيح وطبيعته. تحولت المدارس والكنائس والبيوت معسكرات متنافسة . يكفِّرُ بعضها بعضا، ويقتل بعضها بعضا كأنها حربٌ بين دينين متنافسين ، أو أمتين متحاربتين . فأصبح العالم المسيحى فى شغل بنفسه عن محاربة الفساد، واصلاح الحال ودعوة الأمم إلى ما فيه صلاح للإنسانية " .

هذا هو حال العالم مع أصحاب الديانات . المفروض فيهم أن يقوموا بالدعوة إلى ما فيه الخير والرشاد للإنسانية الحائرة .. فإذا ما انتقلنا من ذلك إلى غير الأديان فإننا نلحظ ما يأتى :–

١ - المجوسية :

عرف العالم المجوسية من قديم الزمان أنهم يعبدون عناصر الطبيعة وأعظم عناصر الطبيعة " النار " . وقد عكفوا على عبادتها وبنوا لها الهياكل وأقاموا لها

المعابد . وانتشرت بيوت النار في طول البلاد وعرضها . وانقرضت كل عبادة إلاّ عبادَة النار وتقديس الشمس . وكانت تلك العبادة لها طقوس وتقاليد دقيقة تؤدى فى أماكن خاصة داخل المعبد . أمَّا خارجهُ فكُلُ شخص حُرُّ يسير على هواه . ونقرأ فى كتاب " إيران فى عهد الساسانيين " لمؤلفه – البروفيسور " أرتهر كرستن سين " أستاذ الألسنة الشرقية فى جامعة " كوبنهاجن " بالدينمارك – ما يأتى :-

طبقة رؤساء الدين ووظائفهم ... كان واجبا على هؤلاء الموظفين أن يعبدوا الشمس أربع مرات فى اليوم ، ويضاف إلى ذلك عبادة القمر والنار والماء . وكانوا مكلفين بأدعية خاصة عند النوم والانتباه ، والاغتسال ، ولبس الزِّنَّار ، والأكل والعطس ، وحلق الشعر ، وقلم الأظافر ، وقضاء الحاجة ، وإيقاد السرج . وكانوا مأمورين بأن لا يدعوا النار تنطفىء ، وأن لا تمس النار والماء بعضهما بعضا . وأن لا يَدَعُوا المعدن يصدأ لأن المعادن عندهم مقدسة " ... " وكان أهل إيران يستقبلون فى صلاتهم النار . وقد حلف " يزدجرد " آخر ملوك الساسانيين بالشمس مرة وقال :" أحلف بالشمس التى هى الإله الأكبر " وقد كَلَّفَ التائبون عن المسيحية عبادة الشمس إظهارا لصدقهم " . وقد دانوا " بالثنوية " فى كل عصر . وأصبح ذلك شعارا لهم . وآمنوا بإلهين اثنين. أحدهما "النور " أو إله الخير ، ويسمونه " آهور مزدا " ، أو – يزدان – والثانى : "الظلام – أو إله الشر " وهو " أهرمن " ولا يزال الصراع بينهما دائما والحربُ قائمة .

هذا هو حال المجوسية وهو أسوأ من الأحوال السابقة . مما يدلُّ على فساد العقائد ، وفساد الأخلاق .

عقيدة ظهرت في الهند وأطلقوا على مؤسسها " براهما " الذى اعتبروه الخالق الأعظم . ولعل هذه الطائفة من أول الطوائف التى ظهرت فى التاريخ . ونسج الخيال حولها الكثير من القصص التى لا يستسيغها ولا يتقبلها وجدان ، وقد ظهرت هذه الفرقة وقامت على أساس التفرقة الإنسانية حيث جعلتهم طبقات لكل طبقة حقوق وواجبات بل تقرر هذه العقيدة التفرقة بين الناس حتى فى العبادة وتقديم القرابين للآلهة ، وتشبَّع فكر هذه الطائفة بالإله " براهما " وجعلوه روح الحقيقة وأقاموا له المعابد وانتشر بهذا الفكر الكهنة والرهبان ليبشروا بتلك العقيدة ، ومن أجل تجسيد الإله أمام الناس وتقريبه إليهم فى صورة محسوسة ألهوا كل شيىء أمامهم من البشر أو الحيوان أو الزواحف وغير ذلك مما نسجه الخيال ، وأضفوا عليه القدسية والجلال .

٢ ـ البرهمة :

هذه الطائفة قامت على فكرة أساسية رسخت فى أذهان " براهما " على أن البشر جميعا خلقوا من جسم " مانو " الذى عرف نفسه بقوله : " أنا من القمر فضته ، ومن الشمس ذهبها . أنا من الماء طعمه العذب . أنا من النار وهجها الأحمر . وأنا الهواء باعث الحياة . أنا القدسية فيما هو مقدس من الأرواح . أنا حكمة الحكيم وعظمة العظيم . فإن من يرى الأشياء رؤية الحكيم يرى أن " براهما " المقدس ، والبقرة والفيل ، والكلب النجس .

والمنبوذ من الطوائف كلها كائن واحد .. وتعال معى عزيزى القارىء لنعيش فكر هؤلاء حتى يتبين لنا فساد ما وصلوا إليه فى العقائد . وأول شيىء يطالعنا فى ذلك أنهم قسموا الناس إلى طبقات أربع هى : —

الأولى ... رجال الدين الذين يبينون أحكامه ، وهؤلاء خلقوا من رأس الإله، وهم فى زعمهم خلاصة الجنس البشرى . وعقله المفكر ورأسه المدبر وهو "البراهمة " .

الطبقة الثانية : طبقة الملوك والجند . ويسمون " بالأكشتريه " وقد خلقوا من ذراع الإله . وهم لهذا الحماة والغزاة وموطن القوة .

الطبقة الثالثة : أرباب المهن فى العالم من الزراع والتجار . وممن يوفرون مسائل العيش للكهان والملوك والمحاربين . وهؤلاء خلقوا من فخذى الإله ، ويسمون " الفيشيه "

الطبقة الرابعة : طبقة الخدم والرقيق ، وكل من ينتسب إلى الطبقة السفلى وهم ليس لهم عمل إلا خدمة الطوائف الثلاث السابقة وقد خلقوا من قدمى الإله ، ويسمون ب " المنبوذين " ، وهذه الطبقة فى عرف الطبقات الثلاث نجسةٌ لا يصح لأحدهم حتى أن يشرب من كوب ماء يخص الطبقة الأخرى . كما أن فضائل كل طبقة تتوارث . وتتفاضل بتفاضل كل طبقة .

ففضائل البرهمى أن يكون موفور العقل، ساكن القلب، صادق اللهجة، ظاهر الاحتمال . مقيما للعدل ، مصروف الهمة إلى التدين . أمَّا الزراع والتجار فكل واحد يقوم على شئون أمره . يعكف على مهنته بجِّدٍ ونشاط . وأما الملوك والجنود فلهم من صفات الشجاعة وذلاقة اللسان وسماحة اليد ، والحرص على لقاء الخطوب ما يَسْنِدُ أمرهم ويشدُّ أزرهم .

أما الطبقة الرابعة – الخدم والعبيد فهؤلاء يجتهدون فى خدمة غيرهم ما يحبب الناس فيهم . وإن كان هذا لم يحدث أبدا فى مجتمعهم . جاء فى كتاب "ماللهند من مقولة مقبولة – للبيرونى – " : "بعد بيان تلك الطبقات : وكل من

هؤلاء إذا ثبت على رسمه وعادته نال الخير فى إرادته إذا كان غير مقصر فى عبادته غير ناس فى جُلّ أعماله ، وإذا انتقل عما عهد إليه . إلى ما عهد إلى طبقة أخرى كان آثما بالتعدى " . ولكى نقف على تلك العقيدة علينا أن نتعرف على منشئها لنتبين فساد ما ذهبت إليه .

جاء فى بعض الأساطير : أن الكهنة قالوا : إن براهما " جعل الخلائق أربعة أنواع بعضهم أفضل من بعض ، وبعضهم أسوأ من بعض أما البراهمة فهم على رأس كل الطبقات حتى الملوك . عليهم أن يحذروا فرض ضريبة على "برهمى " حتى ولو نضبت كل موارد المال الأخرى لأن البرهمى إذا ما ثار غضبه يستطيع أن يسحق الملك وجيشه جميعا بتلاوة لعنات ونصوص مسحورة . وزعموا أن كل ما فى الوجود هو ملك لهم . مع الترحيب به فى أى مكان يذهب إليه . وله أن يقترف ما شاء من الجرائم . ومن اعتدى على البرهمى بأى شيىء فهو ملعون يصلى عذاب النار .

أما المنبوذون فهم يمتثلون أوامر البراهمة وإن خدمتهم لهم شيىء عظيم من أوجب الواجبات ، ولا يجوز للمنبوذ أن يجمع ثروة وإذا عصى أمر البرهمى قطعت يده . وإذا نادى على من هو أعلى منه طبقة باسمه يعاقب بخنجر محْمِىّ مثلث النصل طوله عشرة قراريط يدخل فى فمه ، ويأمر الملك بصب زيت حارٍ فى فمه وفى أذنيه إذا بلغ من الوقاحة حداً كان يبدى رأياً للبراهمة فى أمور وظائفهم . وإذا اعتدى أحد منهم على عفاف زوجة برهمى نزل به عقاب يجعله لا هو بالذكر ولا هو بالأنثى وليس لإنسان ولد من طبقة دنيا بلغ من الطيبة والصلاح أقصى الحدود ، وأصبح غاية فى الشجاعة والذكاء أن يستمتع بنفس الامتيازات التى تتمتع بها الطبقات الأعلى ... فكل إنسان يعيش فى طائفته مهما كان .

كل ذلك لأن " براهما " كان يعيش وحده بعيداً جداً حيث الفضاء الممتد

الواسع ولا وجود لمخلوق . لا يحدُّه شيىء على الإطلاق . فالقى بنظرته البعيدة ، وفى أعماقه هدير صوت يقول : " أنا من السماء وأعظم من الأرض . وأرفع من كل هذه الأجرام . والكواكب حولى أنا الكل فى الكل . أفعل ما أريد ، وأخلق كل ما يخطر لى . لست بالذكر ولا بالأنثى . إنما أنا روح غير مشخص فى صفاته . أحتوى كل شيى . وأكمن فى كل شيىء ، لا تدركنى الحواس لأنى أنا حقيقة الحقيقة .. أنا .. " براهما " .

ولما كان قد كره تلك الوحدة التى تحتويه . كان لابد أن يكون شيىء . فبأطراف أنامله صنع " براهما " شيئا هائلا عملاقاً ، ونفخ الخلاق فى الجسد العملاق فإذا به ينشق نصفين . نصف لرجل ونصف لامرأه .. واجتمعا فكان أول نسلهما البشر .. لكن المرأة أطلت إلى رجلها كان فيه شيىء لم تفهمه ، وتساءلت . كيف استطاع ذلك العملاق أن يخرجنى من نفسه ثم يخرج منى كل هذه الكائنات. إنه لشيىء رهيب خارق . يجعلنى أبتعد عنه واختفت فى صورة بقرة . لكن الزوج كان فى إمكانه أن يصنع نفس الشيىء فانقلب إلى ثور وزاوجها . وتولدت الماشية وامتلأت الزوجة رعشة ، ومن أجل أن تختفى اتخذت لنفسها هيئة فرس فانقلب الزوج هو الآخر إلى حصان . ثم حولت المرأة نفسها لتكون حمارة: فحول هو الآخر نفسه ليكون حمارا . ثم انقلبت إلى " عنزة " فانقلب "تيساً " فتحولت إلى " نعجة " فتحول إلى " كبش " وفى كل حال يتم بينهما التزاوج ويتوالد منهما ما يكونا على حالته . وعلى وجه الأرض راحت الكائنات تنطلق فى كل مكان . وتنوعت بين الذكورة والأنوثة حتى بلغ وجودها فى التدرج من أعظم الكائنات إلى أصغرها .. ومن اللانهائى أطل " براهما " على هذا الوجود وقد أدرك تلك الحقيقة أنه هو الذى خلق الخلق .. تلك قصة الخلق التى يؤمن بها "الهندوس " . قام بها " براهما " . روح العالم .

وهم يسمون أول البشر " مانو " والحياة عندما أطلت على الوجود وجدت الناس غير متساويين على الإطلاق . علما أنهم ينتسبون إلى أب واحد هو "مانو"، ومن هنا جاء التقسيم الذى حدث فى قصة الخلق كما يراها هؤلاء .

ولما كان " براهما " قد قسم العالم هكذا . فهل ياترى تستمر الحياة هكذا . فلا يستطيع المنبوذ أن يرفع رأسه ، وما هو حاله فى الآخرة ؟ هل سيصير إلى نفس الهوان الذى هو فيه ؟ وهل هذا عدل ؟ لأنه ما ذنب الإنسان المنبوذ ؟ أهو خلق نفسه ؟ .. وكان لا بدَّ للكهنة أن تجاوب على هذه التساؤلات . وقالوا : بل هناك جدوى . فالإنسان الصالح فى هذه الحياة سيجازى على صلاحه فى الآخرة . وطرح سؤال آخر : أية حياة تلك ؟ ، وكان للكهنة أن تجاوب فقالوا : إن لكل كائن حيّ روحا . وهى من " براهما " وهو لا يموت . وأرواح الكائنات التى جاءت منه لا تموت ... وتساءل الناس : وهل للمنبوذ أن يدخل الجنة ؟ إذا كنتم لا تشربون من الكوب الذى يشرب فيه ، ولا تجلسون حتى فى المكان الذى يجلس فيه. وهم يضعون أنفسهم تحت أقدامكم لتنظروا إليهم نظرة عطف ، ولا يحدث فكيف يدخلون الجنة !!

تناسخ الأرواح

وتهربا على الإجابة عن كل ما مر، فكر الكهنة وقالوا:إن الذي يحدث للمنبوذ عندما يموت وتخرج روحه ، فإنها تدخل على الفور في جسد طفل ولد للحظته. فإذا كان الإنسان ممن يحيون حياة طيبة صالحة. فإن روحه تتقمص جسد طفل في طبقة أعلى، فإذا مات تقمصت روحه جسد طفل في طبقة أعلى . فإذا ظل مواظبا على الصلاح والتقوى فإنه يترقى « ويترقى إلى أن يصير «برهميا» ولا يولد بعد ذلك وتنتهي دورة الحياة بالنسبة له. وتعود روحه وتتحد مع «براهما».

وهذا ما يسمى بالنرفانا.. وهذه قمة السعادة التي يتمناها كل صالح في هذا الوجود.

أما الإنسان الشرير. فإنه يولد في طائفة أدنى فإذا استمر على انحطاطه الأخلاقي فإنه ينحدر ويولد في طائفة أدنى وقد يولد عليلا ليظل في شقاء أبدا .فإذا ما استمر فإن روحه تتقمص روح حيوان بداية من الفيل والعجل والكلب فإن استمر على فساده ينحدر حتى يكون برغوثا أو بعوضة أو صرصارا. ولكن. ما السر الذي يجعل أرواح الصالحين تتجسد في طوائف أعلى يبنما أرواح الشريرين تتجسد في طوائف منحطة حتى تكون في أدنى طبقات الحيوانات؟ وأجاب الكهنة: بأن ذلك يحدث طبقا لقانون «الكارما». وهذا القانون وضع للحياة وجاء في مضمونه: جزاء الخير خير مثله. وعقاب الشر مثله. ومن هنا جاءت فكرة «تناسخ الأرواح». وهي في مضمونها: أن الروح في خلال رحلتها في الفضاء الخارجي. تتقمص عديدا من الأجساد. وتنطبق هذه النظرية على كل الكائنات سواء كانت بشرية أو حيوانية أو حشرية أو نباتية.

وهذا القانون يسود العالم كله. ولاتختلف روح عن روح.

وهذه النظرية ليس فيها عدل يتفق مع ما جاء في القرآن الكريم من أن «كل نفس بما كسبت رهينة»[1]. «ولا تزر وازرة وزر أخرى»[2] وأي عاقل لا يقبل هذه النظرية لأنها تهدم قاعدة الثواب والعقاب.

آلهة الهند

إن الذين قالوا بنظرية التناسخ. وأقروا قضية التفاضل بين الخلق بهذا التفاوت الضخم. فإنهم كذلك لم ينصفوا الحقيقة عندما عرفوا آلهتهم التي

(١) الآية – ٣٨ من سورة المدثر (٢) الآية – ١٥ من سورة الإسراء

عددوها وعبدوها .. وأقدم ديانه في الهند كانت تتجه بالعبادة إلى أرواح كثيرة تسكن الصخور والحيوان والأشجار. ومجاري الماء وكانت الثعابين والأفاعي مقدسة. وكانت الطبيعة بكل عناصرها أقوى الآلهة عندهم. فالسماء جعلوها «أبا» وسموه « فارونا » والأرض « أما » وسموها « برينفيي » والمطر « إله » وسموه «يارجاتيا ». والنار « آجني » والريح « فايو » والعاصفة « أندرا ». والفجر «أوشاس ». ومجرى الممرات في الحقل « سيتا » والشمس عند بعض القبائل «سوريا» وعند البعض الآخر «مترا» وعند غيرهم « فشنو ». والنبات الذي يسكر عصيره هو مقدس لأنه إله ويسمى « سوما ». ومع مرور الزمن وكر الأيام. مثل الناس هذه الآلهة في صورة أشخاص. وأصبح للشمس اسم إله جديد يسمى «سافيتار » كما أن ضوءها أصبح إلها آخر بسمى « فيفاسفات ». والشمس هى الإله العظيم وهى رب كل الأحياء. ومع كثرة تلك الآلهة حدثت مشكلة. أي هؤلاء الآلهة خلق الأرض؟ قال البعض: إنه « آجني » إله النار . وقال آخرون : بل «آندرا» إله العاصفة. وارتفعت أصوات تقول « براجاباتي » إله الشمس القوي العظيم.

ومن عظمته أنه صار يرتفع ويعلو حتى أصبح هو رب الأحياء . ويعبد على أنه الإله الواحد. الذي صار« براهما » الذي يفنى فيه كل شيء. ويبتلع في جوفه الكبير كل الالهة..

وأراد الإنسان الهندي أن يعرف « براهما » هذا بأنه سر هذا العالم الذي نقيم فيه. ووضع الهندي أمامه أسئلة. من أين جئنا؟ وإلى أين نحن ذاهبون؟ وأين نقيم؟ ومن الذى أسكننا الأرض؟ وكان سببا في هذا الوجود؟.. الزمن هذا.. أم الطبيعة؟ أم المصادفة؟. ولذلك اتجه الهندي إلى الكتب المقدسة . يقرأ فيها ويتعمق. لعله يصل إلى ما يبتغيه وينشده. وأمام أحد الكتب المقدسة للهندوس.

وقف الهندي يقرأ ويتأمل « إن جوهر النفس ليس هو الجسم، ولا العقل ، ولا الذات الفردية. ولكنه الوجود العميق الصامت الذي لا صورة له. والكامن في دخيلة أنفسنا واسمه « إتمان » وإتمان وبراهما » ما هما إلا حقيقة الحقيقة وروح الأرواح. إن هما إلا إله واحد بعينه. لأن الروح اللافردية ، وهى القوة الكامنة في الإنسان هى بعينها روح العالم. فيكون « إتمان وبراهما » حقيقة واحدة. وهما أساس العقيدة بالوحدة المثالية. وحدة الوجود. ووحدة الإله. وهما معا القوة الروحانية المسيطرة على هذا العالم.

وإذا كان« إتمان » هو الوجود الصامت . فإن براهما هو جوهر العالم الشامل الذي لا هو بالذكر ولا بالأنثى بل هو روح العالم غير المشخص والكامن في كل شيء.

فلما أراد إتمان وبراهما خلق العالم اتحدا مع بعضهما . وبدأت قصة جديدة رائعة هى خلق الأرض. وخلقت من جسد رجل عظيم رضيت عنه الآلهة فحولت جسده إلى ذرات صغيرة عادت لتلتئم من جديد وتتحد جزئياتها . ولم تكن الأرض سوى جزء واحد من هذا الكون الذي قسم إلى واحد وعشرين قسما ينقسم إليها هذا الكون الذي يسمى « بيضة براهما » والأرض ترتفع فوقها ست سموات ومن تحتها سبع أراضي تعيش عليها أرواح الثعابين والحيوانات. وأسفل هذه الطبقات السبع تقع سبع طبقات أخرى تسمى « براكا » كل منها تعتبر جهنم تصطلي بنيرانها كل المخلوقات التي تعيش في الطبقات السبع الوسطى. ولكن إلى متى يظل العالم يعيش؟ تقول اساطيرهم : إن هذا العالم ليس مخلدا . فسوف يجيء اليوم الذي ينهار فيه كل شيء . بسبب النار والفيضان . وعندئذ يتدخل الإله « فشنو » وينتقل العالم إلى عصره الذهبي ..« وفشنو » هو أحد الآلهة الثلاثة الذين يحكمون العالم. (١) براهما الخالق (٢) فشنو الإله الحافظ

(٣) شيفا الإله المدمر.تقول الأسطورة: أنه رغم أنه مهمل في شعائر العبادة فهو سيد الآلهة.. وأما « فشنو » فهو إله الحب . وكثيرا ما ينقلب إلى إنسان ليكون في عون البشر. ويتجسد في شخصية « كريشنا » المولود في السجن ومشهور بقصص البطولة ومغامرات الغرام. يشفي الصم والعمي . ويبعث الموتى من القبور . ويذود عن الفقراء . وقد مات مطعونا بسهم . وصلب على شجرة. ثم هبط إلى جهنم وصعد إلى السماء . ليحاسب الناس أحياءهم وأمواتهم.. وأما «شيفا» فبعد أن قام من النوم . أمر « براهما » أن يخلق الأرض. واتخذ لنفسه مكانا في السماء . وتجلس بجواره زوجته كالي أو شاكتي « وكلمة شيفا » لفظ أريد به التخفيف من بشاعة هذا الإله المعروف بالقسوة والتدمير. لأنه لا يظهر إلا في ميااددين القتال. حيث تحل بركته بكثرة القتلى. وإلى جانب ذلك فإنه يعتبر الدفعة الجارفة نحو التناسل. وعندما تكون « كالي » راضية تبدو سيدة جميلة شابة تمنح الحب والكرم. ويقدم إليها المتعبدون الذبائح التي كانت في أول الأمر بشرية. ثم اكتفت بعد ذلك بذبح الماعز. أما إذا كانت غير راضية فإنها ترقص في وحشية وترتعش فوق شيطان أسود فاغر فمه متدل لسانه ،محاط بالأفاعي. وأحيانا ترقص على جثث أموات وأقراطها من أرجلهم وعقدها من جماجمهم. ووجهها وثدياها تلطخهما الدماء.. ويقال أنها وزوجها : اتخذا أبشع صورة لكي يلقيا الرعب في نفوس المجرمين.

ومع تعدد الالهة فإن الهنود لم يكتفوا بذلك بل جاءوا بعدة آلهة أخرى.. فالإله « شيفا » له ابن يسمى « جانيش » وهو إله كذلك يتجسد في الفيل ومن يحمل طلسما منه يقي نفسه من الحظ السيء كما ألهوا القردة والأفاعي.. ولهذا فهم يقيمون حفلا دينيا كل عام ويقدمون القرابين من اللبن والموز للقردة والأفاعي حيث توضع عند جحورها. وأقاموا مراكز عبادة للقردة والأفاعي يقوم عليها

الكهنة والرهبان. ولم يقف الأمر عند هذا الحد. فهناك من الحيوانات من يتمتع بهذه القدسية مثل التماسيح والنمور وغير ذلك حتى الفيران. لأن الهندوسي لا يرى فرقا بين الإنسان والحيوان لأن لكل منهما روح التي تمضي متنقلة بين الإنسان والحيوان فهذه الروح نسجت خيوطها في شبكة واحدة لا نهاية لها. بل وصل الأمر إلى أن البقر أله . وأقيم له تماثيل عديدة في الميادين والمنازل وأقيمت المعابد العديدة. ولذلك فالبقر يتمتع بحرية تامة. ولا يجوز ذبحه تحت أي ظرف من الظروف. وبالتالي لا يؤكل لحمه. ولايستغل جلده. وإذا ماتت أي بقرة أقيم لها حفل دفن رهيب يتسم بالجلا ل والوقار والاحترام.

من كل هذا يتضح لنا ماكانت تعانيه تلك القارة من تعدد الآلهة والنزول بالمستوى الفكري إلى أدنى مرتبة حتى قدس الإنسان تلك الحيوانات أو الطيور أو الشجر أو السمك أو غير ذلك مما أسلفناه. وبرغم هذا التعدد وهذا الانحطاط الذي وصلوا إليه ، ومع ما كانوا يعانونه من الطبقية التي أوجدت التنافر بينهم بدل التواد والتحابب . فإن سؤالا طرح نفسه على أصحاب الفكر هو « هل للبرهمة أصل سماوي؟؟» وذلك لأن الأنبياء والرسل لم تأت أسماؤهم كاملة في التوراة أو الإنجيل أو القرآن بدليل قول الله سبحانه « منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك »[1]. وقوله « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير »[2].. هذا السؤال أجاب عنه « أبو الريحان البيروني » في كتابه « ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرزولة » قال: اعتقاد الهند في الله سبحانه وتعالى أنه الواحد الأزلي من غير ابتداء ولا انتهاء.. وأخذ بعد ذلك يشرح في صفات الله نقلا عن كتاب من كتبهم. وكل ما جاء في هذه الصفات يتفق مع ما جاء في القرآن الكريم. ويتلخص : أن ما جاء في كتبهم يدل على وحدانية الله وتنزهه سبحانه.

---

(١) الآية – ٨٧ من سورة غافر (٢) الآية – ٢٤ من سورة فاطر

ثم قال. ولا يمنع مجيء الرسل إليهم كما تشير إلى ذلك الآيات من القرآن الكريم «وبراهما» لم يكن إلاها ولاشيء فيه من الألوهية . ولكن. من جاء بعده هم الذين ألهوه. والكتاب المقدس عندهم هو « الفيدا » وهو مجموعة من الأشعار ليس في كلام الناس ما يماثلها في نظرهم بل يعجزون عن الإتيان بمثلها. ثم قالوا: إن العجز هنا جاء احتراما للفيدا. لأن بعض الناس في مقدورهم أن يأتوا بمثلها لكنهم لم يفعلوا ذلك لسببين :

١ - الاحترام التام لتلك الأشعار التي جاءت في ذلك الكتاب واعتبروا أن كل من يتجرأ على الإتيان بمثل ما في الفيدا. فقد ارتكب إثما عظيما. وقد يزيد أحد من الناس فيعصى الأمر ويأتي بمثلها أو يزيد عليها.

٢ - أن المنع هنا جاء بالصرف. وهو أن في مقدور الناس أن يأتوا بمثلها لكن الله صرفهم عن ذلك بقوة أقوى من قوتهم وإرادة لا يستطيعون السيطرة عليها. وهذا الأمر قال به بعض الجهلاء في إعجاز القرآن الكريم. وأيا كان فإن ذلك يدل على أن «الفيدا » كانت من الكتب المقدسة عندهم.

والذي نميل إليه ونرجحه أن البرهمة كانت دعوة للإصلاح ولكن المغالين وأرباب المنافع. وأصحاب الأهواء حرفوا فيها وغيروا معالمها. وبدلوا أفكارها. وصنعوا للناس آلهة من نسج خيالهم ليعود كل ذلك في آخر الأمر إشباعا لرغباتهم وأكلا لأموال الناس بالباطل. والذي يؤيد ما قلناه : أن « بوذا» الذي حمل راية الحق في أثناء هذه المعارك. وتعدد الآلهة واتجه بدعوته لتخفيف ويلات المصائب التي حلت بالإنسانية من جراء التمييز الطبقي كما دعا إلى كف النفس عن الشهوات التي تجعل الإنسان ينحرف بفطرته عن الطريق المستقيم. وقد وضع منهاجا للتربية النفسية أول خطوطه.. اجتناب الأهواء. وسلامة العقيدة.

والعمل الطيب. والسلوك الحسن. وترابط الجماعة على الأخلاق. وسميت طريقته بالبوذية.

٣ـ البوذية :

لاشك أنه لايوجد في أي دين سماوي التفرقة الطبقية التي يعتبرها البراهمة في القديم ضمن دينهم. وأسسا يرتكز عليها المجتمع في حياتهم. فالأديان السماوية جاءت تدعو إلى عبادة الإله الواحد. وتقيم في دنيا الناس علاقة المحبة والتعاون والتواضع والمساواة بين الناس جميعا . وجميع الأديان تؤكد على هذه المعاني. وعندما نتأمل في كلام « أبو الريحان البيروني » في كتابه ما للهند من مقولة مقبولة » يستدل على أن البرهمة لها أصل ديني أي لها أصل من رسالة سماوية حملها إليهم نبي عظيم. لكن الناس غيروا وحرفوا كما هو الشأن في معظم الرسالات التي حرف فيها معتنقوها بعد انتقال نبيهم إلى الرفيق الأعلى. وأيا ما كان الأمر فإن ما قام به بوذا من دعوة إلى تصحيح الفكر بعد أن حرف أتباع « براهما » عقيدتهم وأدخلوا عليها ما لا يتفق مع العقل أو النقل فإن بوذا قام ليوقظ في الناس ما يتفق مع فطرتهم. ولقد عرفت العقيدة التي دعا إليها « بوذا » بالبوذية. وظهرت في الهند وآسيا الوسطى. « وبوذا » وإن كان من المصلحين لم يقبل أن ينسب لنفسه أنه إله خالق بدليل ما سوف نقرأه عند التعرف على حياته. كما أنه رفض حياة القصور وعيشة الملوك. وقبل عيشة الرهبان التي عدل من شأنها حيث لم يقبل عذاب النفس وحرمانها . والقسوة على جسده بالمنع عن الطعام والإسراف فيه. وإنما رسم لنفسه طريقا وسطا لا تفريط ولا إفراط. ومع كل هذا فإنه لم يسلم من الكهنة الذين حولوا فكره مع مرور الزمن إلى وثنية أقاموها لبوذا . ونصبت له في الميادين التماثيل وحملها الأتباع معهم حيث ساروا أو ارتحلوا ونتعرف على « بوذا » لنعرف حقيقة تلك الديانة : فأبوه

كان ملكا يسمى « سودهوادانا » وزوجته الملكة « مايا » رأت حلما في ليلة صيف عام ٥٦٨ ق.م. وقصتها على زوجها خلاصتها: أنها وهى مستلقية على فراشها رأت أربعة من الملائكة في ثياب بيض يتقدمون منها ويحملونها بكل محتويات حجرة نومها. ويطيرون بها إلى أعلى قمة في جبل « الهيمالايا » حيث تقوم شجرة باسقة خضراء. ويضعونها تحت ظلها. ولاتكاد الملكة تطل حولها حتى تقترب منها أربع ملكات يدخلنها الحمام. ويلبسنها ثيابا جميلة ويعطرنها بعطور رائعة الرائحة. ثم يحملنها إلى منزل آخر مصنوع كله من الفضة. وتضعها الملكات على فراش آخر مقدس. وهناك يهبط فيل أبيض من فوق جبل ذهبي ويتقدم منها وفي خرطومه غصن من نبات البشنين. ويدور الفيل حول الفراش دورات ثلاثا. ثم يمس جانب الملكة الأيمن ويدخل في رحمها. واضطرب الملك وهو ينصت إلى زوجته واستدعى الحكماء الذين فسروا هذا الحلم. إما أنه مولود سيصبح ملكا على كل البلاد إن استقر في بيته. وإن لم يستقر وخرج هائما على وجهه فسيصبح « بوذا » الذي يكشف نقاب الجهل عن وجه الحقيقة.

واقتربت أيام وضع حمل الملكة. ووضعت هذا المولود الذي تقول الأسطورة بأنه وقف فجأة. ثم صاح في صوت عذب أنا سيد هذا العالم. وهذه الحياة هى آخر حياة لي.. ثم ظهرت إثنتان وثلاثون علامة في السماء والأرض. وحدث زلزال شديد. وسقط مطر خفيف. وانتشر النور في كل مكان. وتفتحت براعم الزهور. وأكمام الثمار . وانتشرت ريح ذكية. واستعاد الأعمى البصر. واسترد الأصم السمع وعاد الأبكم ينطق ويغني ، وكبر الصبي. وقد سموه « سيد هاتا ».. ومضت الأيام. وبلغ الثانية عشرة من عمره وأقيم احتفال كبير في القصر الملكي. ومن لحظتها وقد عكف الطفل على دراسة عقيدة « الهندوس » وبدأ الكهنة يلقنونه شرح تعاليم البرهمة من أهم الكتب عندهم ويسمى « الفيداس » وهو كتاب يشرح العقيدة. وعاش هذا الشاب في حياة الترف والنعيم وتزوج . إلا أنه أحس بأنه

يبحث عن الحقيقة بعد ثلاثين عاما قضاها في الترف والنعيم وكل ما تشتهيه النفس. وكان يتساءل من أين يأتي الفناء؟؟ ولماذا لايكون كل الناس في مملكته سعداء؟ مثله هو وأسرته. ذلك لأنه كان يرى الفقراء يعيشون عيشة الضنك. لأنهم ينسبون إلى الطائفة المنبوذة في دولته. بل إن أشد الناس فقرا كان في غاية الضعة. ولايسمح لهم حتى بدخول المعبد ولا قراءة الكتب المقدسة. ولايقتربون من الطوائف الأعلى. وكان الأمير يخرج على وجهه هائما يفكر ويتأمل. وقد رأى في السوق مرة راهبا يرتدي ثوبا أصفر خشنا. وكان يبدو عليه كبر السن وهو رث الثياب يسأل الناس الطعام. ولكن وجهه ينطق بالسعادة وتساءل «سيدهاتا». لماذا لا أعيش كما يعيش هذا الراهب وأمثاله؟ أليس من المحتمل أن أصل إلى حقيقة مصدر هذه الآلام التي تصيب البشرية؟ وكيف يحيا الناس حتى تكون حياتهم صالحةسعيدة؟ وفي تلك اللحظة قرر الأمير أن يهجر حياة القصور إلى حياة الغابة. وأن يعيش مع الرهبان الفقراء. وأخذ يضرب من لحظتها في الأرض ينتقل من مكان إلى مكان. وعاشر الرهبان واستمعوا إليه ذات مرة فقال له أحدهم: إن كلماتك مليئة بالحكمة أيها الراهب. فأجاب: لو أن ما أبحث عنه هو المجد والثراء. لأصبحت ملكا على مملكة في حوض « نهر الجنجز » ولكن بحثي هو عن أشياء لا يمكن للمجد والثراء أن يشتريها. لكنني أبحث عن المعرفة الحقيقية للحياة – وظل في حياة الرهبنة يبحث ويتأمل ويفكر ويبحث عن الحقيقة إلى أن تألق وجهه ذات يوم وقال: أخيرا وجدت مفتاح الحكمة. إنه أول قانون للحياة:من الخير يجب أن يأتي الخير . ومن الشر يجب أن يأتي الشر. وكان ذلك هو بداية حكمة الحياة وحقيقتها عنده. وأوشك على نهاية بحثه الطويل عن الحكمة. وأنه الآن أصبح «البوذا المستنير » وقد اتخذ أتباعه تلك الليلة وجعلوها مقدسة. والشجرة التي كان يجلس تحتها تسمى شجرة « بو » أي الحكمة. وقد تجمع حوله الرهبان يسألونه: هل وجدت الحكمة التي كنت تنشدها؟ وأجاب «بوذا »

نعم. فسألوه: ماهي حكمة العالم ؟ أجابهم بوذا: من الخير يجب أن يأتي الخير. ومن الشر لابد أن يأتي الشر.. ونظر الرهبان بعضهم إلى بعض. وقالوا: هذا ليس بجديد. فهو جزء مما تعلمناه في قانون الأعمال. قال بوذا: هذا حق: ولكن أحدا لم يعمل به. سأله الرهبان: كيف؟ قال بوذا: إن الماء يتدفق دائما من فوق التل. والنار ساخنة أبدا. ومهما قدمنا من الصلوات لجميع آلهة الهند. فهي لن تستطيع أن تجعل الماء يصعد التل ولن تملك أن تجعل النار باردة. ذلك لأن في الحياة قوانين تجعل هذه الأشياء كائنة على ما هي عليه. فما يتم حدوثه لا يمكن إلغاء حدوثه. ولوقدمنا القرابين لكل أنواع الآلهة وأطل الرهبان بعضهم إلى بعض وهم يهزون رؤوسهم ويقولون: إنه قول صحيح. قال بوذا: إذن فلا سلطان لكل هذه الأصنام على تغيير شيء في هذا العالم. فلماذا نصلي لها ونعبدها؟ فإن عبادة الأصنام خطأ وحمق.. ولما كانت الكتب المقدسة تأمر الناس بالصلاة وتقديم القرابين وعبادة الأصنام فهي ليست مقدسة. ونظر الرهبان إلى «بوذا» في دهشة لأن هذه هي أول مرة يجرؤ فيها شخص في الهند على أن يقول إن كتب « الفيداس » ليست مقدسة وسأل الرهبان بوذا في عجب إذن أنت لا تصدق أن «براهما» قسم الناس إلى طوائف ؟ فأجاب «بوذا» لا أصدق أن براهما خلق شيئا ولا أنه خلق شيئا من هذا العالم. وصمت الرهبان برهة. وهم يفكرون فيما قال بوذا. فقد كان أمرا يختلف اختلافا بينا عن كل التعاليم التي درسوها. وآمنوا بها من قبل.. وفجأة: قال «بوذا» «أيها الرهبان: هناك طريقان يجب الابتعاد عنهما. أولهما : حياة المتعة. وهي حياة أنانية دنيئة. والثانية: حياة تعذيب النفس. وهي الأخرى غير جديرة بأن يحياها المرء. فلا تسلكوا أحد هذين الطريقين لأنهما لا يؤديان إلى الحياة الصالحة. وسأله الرهبان: وما هو الطريق الأمثل؟. وأجاب «بوذا» إتبعوا الطريق الوسط ذي الثمان شعب التي تعلم القواعد الثماني للحياة. وهي:

١- الإيمان بالحق.. وهو الإيمان بأن الحقيقة هى الهادي للإنسان.

٢- القرار الحق: بأن يكون المرء هادئا دائما لا يفعل أذى بأي مخلوق.

٣- الكلام الحق: بالبعد عن الكذب والنميمة وعدم استعمال اللفظ الخشن.

٤- السلوك الحق: بعدم السرقة والقتل وفعل شيء يأسف له المرء فيما بعد أو يخجل منه.

٥- العمل الحق: بالبعد عن العمل السيء مثل التزييف وتناول السلع المسروقة. وعدم اغتصاب المرء لما ليس له.

٦- الجهد الحق: بالسعي دائما إلى كل ما هو خير والابتعاد عما هو شر.

٧- التأمل الحق: بالهدوء دائما وعدم الاستسلام للفرح والحزن.

٨- التركيز الحق: وهذا لايكون إلا باتباع القواعد السابقة وبلوغ المرء مرحلة السلام الكامل.

وما كاد بوذا ينتهي من هذا الكلام حتى قال الرهبان: لا شك أن هذه هى الحكمة. لأن «سيدهاتا» الذي أصبح «بوذا» حرك عجلة القانون الحق للحياة. الذي يعلم البشرية أن العالم تحكمه العدالة وانحنى الرهبان لبوذا وأقسموا أن يتبعوه. وأن يحافظوا على وصاياه. وأن ينشروها في جميع الأنحاء.. ولم يمض وقت طويل حتى كان لبوذا آلاف من الأتباع. وذاع صيته في الآفاق وتحدث أتباعه بأنه عاش قبل أن يكون المستنير «خمسمائةوثلاثين نوعا من الحياة» فعاش إلها إثنتين وأربعين مرة. وملكا خمسا وثمانين مرة. وأميرا أربعا وعشرين مرة. وعالما اثنتين وعشرين مرة. كما عاش لصا مرتين. وعبدا مرة واحدة. ومقامرا مرة واحدة. تماما كما عاش عدة مرات في أجساد أسد. فغزال. فجواد. فنسر. فثور.فثعبان.فضفدعة.. لقد آمن كل أتباعه بهذه الحقيقة. وتحدثوا عن قصة

بارزة في حياته كان وقتها يعيش في صورة طائر. وكان له سلطان على أسراب الطيور التي تعيش على مقربة من شجرة عالية ذات فروع تمتد إلى كل اتجاه بحيث لا يدركها البصر. وذات صباح فوجئت الطيور لأكوام من التراب والغبار تتساقط من فروع الشجرة التي كانت كلها تتحرك . وأخذ الدخان يتصاعد عاليا. وبدأ الرعب والفزع يظهران على كل الطيور. وبدأ «بوذا» يفكر بعد أن تأمل الموقف.. ويقول: لاشك أن الفروع إذا استمرت في احتكاكها فإنه سيؤدي إلى الشر. الذي إن وجد فسوف تشتعل النيران فتحرق الأوراق الجافة. وإذا حدث فسرعان ما تحترق الشجرة. فإن أردنا الحياة فعلينا أن نبتعد من هنا. وراح بوذا يغني لتسمعه بقية الطيور «إن الشجرة بنت الأرض. وهى التي نعتمد عليها. نحن أبناء الهواء. هذه الشجرة نفسها بدأت تشتعل بالنار فاهربي أيتها الطيور بعيدا في السماوات.» وأنصتت الطيور إلى صوت بوذا . واستمعوا إلى النصيحة وطاروا معه في الهواء أما الذين لم يسمعوا العظة ولم يهتموا بها. فلم تمض لحظات حتى اشتعلت النيران بالفعل واحترقت الشجرة عن آخرها. ومن أثر الدخان عميت عيون الطيور. فعجزت عن الهرب وسقطت في أعماق اللهيب.

إن «بوذا» كان يمثل الحكمة. ويعيش حياة الفقراء رغم أنه ابن ملك يحكم البلاد. ولقد أرسل إليه أبوه الملك يدعوه إلى زيارة قصره ورؤية أفراد اسرته . ومضى «بوذا» ومن ورائه آلاف المعجبين. ودخل القصر الذي هرب منه ذات ليلة ليبحث عن الحكمة. وما أن وصل إلى القصر حتى أخذ يوجه النصائح إلى أفراد أسرته. ويشرح لهم تعاليمه التي آمن بها وقالت أمه الملكة إن «البراهمية» وهى عقيدة بلادنا لا تسمح للنساء بالاشتراك في الأعمال الدينية. ولكنك تقول بأن تعاليمك هى لجميع الطبقات والطوائف. فهل هى للنساء كما للرجال؟ قال «بوذا»: نعم قالت الملكة: إذن يجب أن تكون هناك أخوات راهبات كما أن حولك رهبان

ووافقها «بوذا» وبدأت أمه تنظم قواعد للراهبات. وكانت زوجة بوذا أول امرأة تلتحق بالرهبنة. وهكذا اعتنق أهل المملكة تعاليم «بوذا». غير أن الحقد ظهر على ابن عم له وإن كان قد تظاهر له بالصلاح إلا أنه كان يتآمر ضد بوذا إلى أن وصلت إلى القتل. لكن المؤامرة باءت بالفشل وانكشف أمر «ديفادانا» ابن عم بوذا. وحل عليه العار والخزي والخسران وتجمع الناس حول « بوذا» ينصتون إلى عظاته. وجاءته إمرأة ذات يوم باكية وقالت له «أيها المستنير. لقد مات ابني الوحيد وذهبت أسأله. هل هناك من وسيلة لإعادة ابني إلى الحياة؟ فدلوني عليك. فهل تستطيع أن ترد ابني إلى الحياة ؟.. فنظر إليها بوذا في عطف وقال «إن جئتني ببذر خردل من بيت لم يمت فيه أحد فسأرد إليك ابنك». فذهبت تبحث عن بيت ينطبق عليه وصف بوذا. وقضت شهورا طويلة فلم تعثر على بغيتها. فجاءت إليه. فسألها فقالت: إن الأحياء قليلون والموتى كثيرون. قال بوذا يا ابنتي: هذه هي الحياة آلام وتعب. والطريق الصحيح للحياة الصالحة هي الوصايا الخمس وهي:

١- لاتقتل كائنا حيا.

٢- لاتسرق أو تأخذ ما لم يعط لك.

٣- لاتقل كذبا قط.

٤- لاتقم على دنس.

٥- لاتسكر أو تخدر نفسك في أي وقت.

فآمنت المرأة بتعاليم بوذا وأصبحت من المؤمنات بتعاليمه. وانضمت إلى ركب الراهبات.

ومضت الأيام وبلغ بوذا الثمانين ومرض فجأة. وعرف أن النهاية قد دنت.

وبكى رهبانه وقالوا "إن سيدنا سيتركنا فالتفت إليهم بوذا وقال: عندما أموت ولا أصبح بينكم فلا تظنوا أن بوذا قد ترككم . أو أنه لم يعد موجودا بينكم فلديكم كلماتي وتعاليمي من أجل الحقيقة. ومات عام ٤٧٥ ق.م. .

لقد آمن الناس ببوذا وبحكمته. لأن من وصاياه: على الإنسان أن يتغلب على غضبه بالشفقة .وأن يزيل الشر بالخير.. إن النصر يولد المقت. لأن المهزوم في شقاء إن الكراهية يستحيل عليها في هذه الدنيا أن تزول بكراهية مثلها. إنما تزول الكراهية بالحب.

ولقد عاش أتباعه يحبون بعضهم بعضا. ويتردد على ألسنتهم السلام على جميع الكائنات.. ومرت سنوات وسنوات ونسي الأتباع كل هذه الوصايا. وراحوا يؤلهون بوذا نفسه ويتحدثون عن كيفية تقديم القرابين له. وبمضي الزمن أقاموا له التماثيل. ونسي الأتباع فكر بوذا عن الأصنام. وأصبح للبوذية كهنة لم يستوعبوا فكر بوذا. لأنهم أقبلوا على الحياة ومادياتها. ثم انقسموا إلى قسمين. ومضى كل فريق له أتباع يفسرون تعاليم بوذا على هواهم.. ثم هناك فريق أعلنوا ألوهية بوذا وأحاطوه بالملائكة والقديسين وعاشوا على التقشف «اليوجا». وتمسكوا بالصور السوداء المظلمة. وأصبح لهم شعائر كاستخدام الماء المقدس والشموع والبخور والمسبحة. وقص الشعر. والصيام في أيام معينة والصلاة والدعاء للموتى.. ومضت أعوام ولا تزال تعاليمه حية في قلوب فئة من الرجال والنساء إلى يومنا هذا.

فطوبى للذي يتغلب على ذلته كما يقول بوذا وطوبى لمن ينتظر السلام. وطوبى للذي وجد الحقيقة لأنها تنقذك من الشرور وتجلب الصحة والطمأنينة. وهى بلسم شاف من كل الآلام .ولا خلود إلا فيها لأنها تبقى أبدا.

إن الاضطراب الفكري الذي ساد العالم فخلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ثم عم الفساد وتركوا التعاليم الصحيحة وراء ظهورهم وألهوا الإنسان الذي أنكر ذلك وعاش يبحث عن، الحقيقة ولم يلتزموا بوصاياه ولم يعملوا بها. فما أشقى الإنسان الذي يفقد عقله ويتبع هوى الذين باعوا دينهم بدنياهم.

تلك هي البوذية التي انتشرت في ربوع الهند وآسيا الوسطى بتعاليم تشرق عليها أنوار العقل تحولت إلى وثنية فيما بعد على يد فئة ضالة ألهوا بوذا وهو من ذلك بريء ونصبوا له التماثيل وقدموا له القرابين ليكون من ذلك الدليل على فساد العقل في تلك اللحظات الحاسمة التي تطلعت فيها الأرض إلى السماء تنتظر مولد النبي العظيم الذي يعيد للعقل صوابه ويرشد البشرية إلى الصراط المستقيم.

إن البرهمية والبوذية وثنيتان سواء بسواء كما يقول العالم الهندي «سي. وي. ويد» في كتابه «تاريخ الهند الوسطى». لأن عملية خلق الآلهة لم تنته على هذا. فلم تزل تنضم آلهة صغيرة في فترات تاريخية مختلفة إلى هذا «المجمع الإلهي» حتى أصبح منهم حشد يفوق الحد والإحصاء. حتى لقد بلغ عددهم ٣٣٠ مليون إله. كما يؤكد أن الوثنية كانت منتشرة في العالم المعاصر آن ذاك من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادي.

ولعل هذا مما أثر في العرب لبعد عهدهم من النبوة والأنبياء حتى انتشرت الوثنية. ونصبوا لهم في جوف الكعبة وفي فنائها ثلاثمائة وستين صنما. وتدرجوا من عبادة الأصنام والأوثان إلى عبادة الأحجار. وكانت لهم آلهة من الجن والملائكة والكواكب. وكانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله. وأن الجن شركاء الله فآمنوا بقدرتهم وتأثيرهم وعبدوهم «كتاب الأصنام ص٤٤ – للكلبي بتصرف».

هذا شأن الديانات التي ظهرت في زمانها للدعوة إلى الله.

٤ ـ الزرادشتية :

في «بومباي» عندما يكون الجو صافيا والنهار لطيفا. وتقترب الشمس من الغروب يتوجه بعض الرجال الفارعين الذين يرتدون أثوابا بيضاء ذات أحزمة منسوجة. يتوجهون إلى شاطيء بحر العرب. ويقفون عند حافة الماء ويغمسون أيديهم ثم يرفعونها إلى جباههم. ثم يفكون أحزمتهم. ثم يعيدونها مرة أخرى. ثم يرفعون أيديهم نحو الشمس الغاربة. وهم يرددون «أجهر بالثناء على الفكرة التي أجيد التفكير فيها. والكلمة التى أجيد قولها. والعمل الذي أجيد عمله» ثم يتعبدون حسب طقوسهم للشمس لأنها رمز الإله القوي. الذي له حق التبجيل والتقديس وبعد أن تغرب الشمس. ويستحيل وجهها الأحمر أقحوانيا في السماء الداكنة يستدير هؤلاء الرجال وينحنون نحو الغرب ثلاث مرات ونحو الجنوب ثلاث مرات ونحو الشرق ثلاث مرات ونحو الشمال ثلاث مرات. ثم يغمسون أيديهم في المياه الراكدة من جديد ويرفعونها إلى جباههم. وعندئذ تنتهي طقوس الليلة... والذين يفعلون ذلك ليسوا هندوكيين وإنما هم بقايا أتباع «زرادشت» الذين يقدسون النار والماء والأرض. ولهذا إذا مات أحدهم لا يحرقون جثته كما يفعل الهندوكيين ولا يلمسونها لأن الجسد في عرفهم بعد خروج الروح نجس بغيض. والنار عندهم مقدسة فلا تلوث بهذا النجس. كما أنهم لا يلقون بالجثة في الماء لأنها نجسة والماء مقدس. ولا يدفنون الجثة في الأرض مخافة تدنيسها لأنها مصدر أرزاق الناس. فطقوسهم تحتم عليهم أن يقوموا ببناء أبراج ذات قمم عالية تسمى «أبراج الصمت» وهناك طائفة معينة وظيفتها حمل جثث الموتى نهارا على نعوش من حديد ورميها أعلى تلك الأبراج لتأكلها الطيور. ولا يجوز لأحد أن يحمل جثث الموتى أو يلمسها وإلا عد ملوثا .. وهؤلاء الناس من إيران إلا أنهم عاشوا في الهند. وهؤلاء وإن كانوا يقدسون النار لكنهم لم يعبدوها. وإنما اتخذوها رمزا للإله الطاهر الذي يهلك المفسدين ولايتطرق إليه الفساد.

مؤسس هذه العقيدة زرادشت :

ولد هذا الطفل عام ٦٦٠ – ق.م. وعند خروجه من بطن أمه « كما تقول الأسطورة » قهقه بصوت عال اهتز له أركان البيت الذي غمره نور إلهي .. وتقول الأسطورة « أن بداية أمره كان في إيران – مدينة « أذربيجان » .حيث الناس يتحدثون عن بشائر تنبيء بقدوم نبي عظيم. وبينما رجل من قبيلة «سبيتاما» واسمه «بوروزهازيو» كان يرعى ماشيته في الحقل. إذ تراءى له شبحان نوريان اقتربا منه. وقدما إليه غصنا من أغصان نبات «الهوما» المقدس. وأمراه أن يحمل الغصن ويقدمه إلى زوجته الحسناء «دوغدوما». وقاما بمزج الغصن باللبن وشرباه فحملت وولدت «زازافوشترا» الذي سمى فيما بعد« زرادشت». وقبل أن تضع هذا المولود رأت الأم في الحلم أن سحابة سوداء أحاطت ببيتها . وأن مخلوقات بشعة هبطت من السحابة. وانتزعت الطفل من رحمها . وهمت بالقضاء عليه. وصرخت الأم فهبط من السماء شعاع نور مزق السحابة .واختفت الكائنات البشعة. وانبثق من النور طيف شاب يشع منه النور أعاد الطفل إلى بطن أمه. وعندما ولد هذا الصبي كان كبير سحرة إيران يرتعد خوفا لأن طفلا قد ولد وعندما يكبر سوف يطرد السحرة والكهان ويقضي على السحر وعبادة الأوثان.. لذلك تمكن كبير السحرة من العثور على «زرادشت» حيث ألقى به في وسط النار المقدسة ليموت فيها . فلما جاءت أم الطفل ولم تجده في البيت توجهت إلى المعبد لتصلي وتدعو الآلهة لترد إليها طفلها رأته يلعب بابتهاج في وسط اللهب. ثم عاد كبير السحرة وسرقه. ووضعه في الطريق الذي يمر به قطيع كبير من الماشية ليهلك تحت أقدامها. لكن بقرة أسرعت إليه وغطته بجسمها. ثم دبر كبير السحرة مكيدة أخرى لخطف الطفل وأرسل به حيث وضع في الغابة حيث الذئاب والوحوش لكن الذئاب تسمرت ولم تقترب منه . بل دخلت عنزتان وقامتا بإرضاع الطفل بغير خوف من الذئاب.. وقصص كثير غير ذلك قيل لإيهام العوام حتى يؤمنوا به.

ويسيروا على دعوته ، ومضت الأيام وكبر «زرادشت» وهو يتعلم على يد الحكماء. ويهتم بالزراعة وتربية الماشية.

ولما تقدم به العمر ارتدى القميص المقدس. وتمنطق بالحزام. وكان مثال الاستقامة. وخلال تلك الأيام قامت حرب حيث غزا – التورانيون – إيران. وتطوع «زرادشت» وذهب إلى ميدان القتال وظل يعمل في معالجة المرضى والجرحى حتى وضعت الحرب أوزارها . وخلفت وراءها الخوف والجوع والحرمان. وبدأ «زرادشت» يتساءل من أين تجيء كل هذه الشرور للعالم؟. وكان قد تزوج . وكان يتمنى أن يسعد الناس وخلال كل ذلك. قال لزوجته: سوف أذهب بعيدا أعيش ناسكا . أفكر خلالها في الخير والشر. ويتبين مصدر العناء الذي حل بالعالم. وأرادت زوجته أن تحول بينه وبين فكره فلم تستطع. وخرج وعاش في جبل «سابلات» وظل شهورا يفكر وحده ويحاول أن يفهم سر العالم. وذات يوم فكر في أن يتخلي عن بحثه ويعود إلى بيته لكنه رأى الشمس وهي تغوص وراء الأفق ساعة الغروب واستحالت السماء أمام ناظريه بين ذهبية وقرمزية وحمراء. وبدأت الشمس تغيب في بطء شديد بينما في الجهة المقابلة للغروب كان الظلام ينشر جناحيه على الوادي فقفز وقد ملأه فرح لأنه أحس أنه أمسك بيديه سر الحكمة التي يبحث عنها .. لقد أدرك أن اليوم ينقسم إلى ليل ونهار ونور وظلام ، وهكذا بدا له أن العالم فيه خير وشر .. وإذا كان الأمر كذلك فإن السحرة والكهان الذين يقومون على عبادة الأوثان لابد أن يكونوا جزءا من الخطأ أيضا. لأنهم يوهمون الناس بالصلاة لآلهة الخير لتوقيع الشر بأعدائهم. ويتقربون لآلهة الشر من أجل أن تصنع لهم خيرا .

وبدا لزرادشت أن العالم تحكمه قوتان : خير وشر . وأن « أهورامزدا » هو قوة الخير. وأن « أهرمان » هو قوة الشر. لكن لماذا خلق الخير؟ ولماذا خلق الشر؟

وبينما هو يفكر . إذ أحس بنشوة روحانية تغمره . وتملأ نفسه سعادة .
ورأى كائنا ناريا نورانيا يقترب منه يحمل في يده عصا من اللهب : أمر ذلك الكائن « زرادشت » بخلع ملابسه ثم أنبأه أنه « فاهومانا » كبير الملائكة . وأنه جاء يقوده إلى السماء ليحظى بشرف المثول بين يدي رب السماء – وفجأة وجد نفسه أمام إله النور الأكبر الذي يحيط به ضياء عظيم وهناك تلقى كلمات الحق والحقيقة . وتعلم أسرار الوحي المقدسة واستمع إلى أمر النبوة .

وقيل أنه أفاق من نشوته وعاد إلى إنسانيته بعد أن تكررت التجربة ثلاث مرات . وعندما عاد إلى إنسانيته قال : « الآن سأنزل إلى الناس وأقود شعبي باسم « أهورامزدا » من الظلام إلى النور ومن الشقاء إلى السعادة . ومن الشر إلي الخير .

التبشير

ما كاد يفيق " زرادشت من نشوته. وانتبه إلى نفسه إلا ونزل من فوق جبل "سابلان " وكله حماس وهمه للتبشير بما توصل إليه فى حال نشوته.. لكن شيئا خطيرا صادفه فى طريق دعوته. ذلك لأن ما شعر به وكلف بتبليغه تلقاه فى "إيران". وأهل "إيران" لا يؤمنون إلا بالمحسوس الملموس. وآلهتهم تتمثل فى تلك الأصنام المنصوبة أمام أعينهم. لذلك لم يؤمن به أحد حتى أسرته. واستمر على ذلك قرابة عشر سنوات مرت عليه رهيبة قاتلة. لأن الكل تخلى عنه وطرده أهله. فلم يجد مكاناً ينام فيه إلا حظائر الخيل والبغال.. وكان دائما يعلن أن ربه المدعو "اهورامزاد " لم يتخل عنه. وظهر له. كما ظهر له الملائكة الستة الكبار. ليلقنوه أصول الحكمة. وهم أساطين العرش. ورموز ومثل عليا لمعان إنسانية مقدسة.. والملائكة ثلاثة منهم ذكور وثلاث إناث. وقد لقنه كل واحد منهم حقيقة من الحقائق الكبرى. فتعلم حقيقة النار المقدسة والأسرار التى تنطوى عليها

الأرض، وحياة الحيوانات والنباتات، وخواص المعادن، والصراع الأزلي بين الخير والشرّ.

ومضت الأيام، ودارت تلك السنوات العشر، ولم يؤمن بزرادشت أحدٌ من البشر، فآمن به ابن عمه، في تلك اللحظات التي كاد اليأس يسيطر عليه فيها. ودَلّه ابن عمه بأن يبدأ بتوجيه الدعوة إلى المتعلمين، لأنهم أعرف الناس بأمره، وانتشى زرادشت لهذه الفكرة وذهب إلى قصر الملك ليوجه الدعوة له ولزوجته لأنهما أكثر الناس تعلماً، وذهب إلى "بلخ" ليشرح عقيدته للملك. " كاشتاسب". ووقف على باب القصر والتراب يغطي قدميه، وقال للحارس: اذهب إلى الملك وأخبره أني أنا "زرادشت سبتاما" نبي الإله الواحد، وقد جئت لأعلم الملك طريق الخير والشر، لكن الحارس نظر باستغراب إلى هذا الشخص الذي يوحي منظره بأنه متشول، وانفجر الحارس ضاحكا، لكن زرادشت، قال بلهجة آمره قوية، إذهب وافعل ما أمرتك، وأمسك زرادشت كرة من النار، ورفعها في وجه الحارس وهو يقول : لتكن هذه آيتي ودليلي على أني جئت من قبل الإله الواحد... وانطلق الحارس في قوة إلى قاعة العرش حيث الملك وكهنته وحكماؤه، وهتف قائلا: بالباب رجل عجيب يريد أن يراك أيها الملك وهو يزعم أنه نبي من عند الإله . ويمسك بيده كرة من النار تلتهب لكنها لا تحرقه، وأمر الملك الحارس بإدخال الرجل، ودخل زرادشت، ووقف على باب القاعة وارتفع صوته في حزم رهيب: أنا زرادشت سبتاما نبي الإله الواحد، جئت إليك أيها الملك لأحول قلبك من الأصنام التافهة إلى مجد الإله الحق الحكيم، وحدق الملك طويلا في الرجل الذي يقف شامخاً عالي الرأس، وقال له: أي برهان لديك ؟؟

فأجاب زرادشت . اسألني أنت وحكماؤك، وسأردُّ عليكم بما يثبت لكم أن عبادة الأصنام خطأ، وأن طريق الإله الواحد خير مشرق بالنور كضوء النهار.

وتوجه الملك إلى الحكماء والكهان وقال: اسألوا هذا الغريب عن تعاليمه وسأكون بينكم الحكم.. وبدأت المناقشة.

س : كبير الكهنة – ما هذه العقيدة التي تبشر بها أيها الرجل؟

وما وجه الخلاف بينها وبين عقيدة آبائك وأجدادك ؟

ج : زرادشت – لم أجيء لأبشر بعقيدة جديدة. ولكن لتحسين عقيدة قديمة. وهى التعرف على حقيقة الخالق. وهذا خير. أمَّا عبادة الأصنام فليست خيرا بل هى شرٌ.

س : كبير الكهنة – أتعنى آلهتنا – الشمس ، والنار، والجبال، والنجوم آلهة زائفة؟؟

ج : زرادشت – كلاً فهى ليست آلهة زائفة. لأنها ليست آلهة على الاطلاق.

س : أحد الكهنة – من هو ذلك الخالق الذى تدعو إليه ؟

ج : زرادشت – إنه " أهورامزدا " إله الحكمة والحاكم الإسمى للعالم.

س : أحد الكهنة – تقول إنه خلق كل شيىء فى العالم ؟

ج : زرادشت – خلق كل ما هو خيرٌ فى العالم. لأن الله خير.

س : أحد الكهنة – ومن الذى خلق الشرٌ إذن ؟

ج : زرادشت – " اهرمان روح الشر. هو الذى خلق كل ما هو شر فى العالم.

س : كبير الكهنة – صاح فى انتصار. هناك إذن أكثر من إله واحد فى العالم؟

ج : زرادشت – نعم: إن دورة العالم تستمر إثنى عشر ألف سنة .

وفى أثناء الآلاف الثلاثة الأولى كان هناك عالمان متجاوران. عالم "أهورامزدا " وهو عالم النور.. وعالم " أهرمان " عالم الظلمات، وكان العالمان متناهيين من جوانب ثلاثة. ولكن كل منهما يحدُّ العالم من الجانب الرابع. فعالم النور فى الجانب الأعلى. وعالم الظلمات فى الجانب الأسفل. وبينهما فراغ مملوء بالهواء. وقال " أهورامزدا" لأهرمان " إن طرقك لا تتفق وطرقى. وأفكارك غير أفكارى. وكلماتك ليست كلماتى. وأعمالك غير أعمالى فلنفترق. وكان "أهورامزدا" يعلم المستقبل. فعرض على أهرمان حقبة من الحرب طولها تسعة آلاف سنة. وقبل أهرمان العرض وهو لا يعرف غير الماضى. وعندئذ قال أهورامزدا بأن الجولة تنتهى بهزيمة عالم الظلمات. وفزع "أهرمان" ولم ينتبه إلا وهو يسقط فى الظلمات. ويقضى فيها مشلولا مدة ثلاثة آلاف سنة. خلق خلالها – أهورامزدا – الأرض بكل ما فيها من خير.

س : أحد الكهنة – وكيف جاء الشرُّ إذن إلى الأرض؟

ج : زرادشت – لقد بدأ أهورامزدا إله الخير بخلق أرواح طيبة تنسجم مع طبيعته ليستعين بها فى مقاتلة الشرّ... ولما علم أهرمان بذلك خلق أرواحاً شريرة من جنسه ليقاوم الأرواح الخيّرة. ثم خلق "أهورامزدا" النجوم والكواكب وجعل الأرض حاجزا بينه وبين أهرمان وأعوانه. ولكن أهرمان شق الأرض وأحدث فيها فجوة جمع بداخلها أعوانه الشريرين ثم صارت ميدانا للصراع بين القوتين.

س : أحد الكهنة – ومن الذى خلق الإنسان على الأرض؟

ج : زرادشت – "أهورامزدا" لأنه عندما خلق الأرض خلق الثور الأول ثم خلق الإنسان الأول (كيومرد) الذى هو أول البشر وعندئذ ألقى اهرمان. بقوته

ضد أهورامزدا فنجس العناصر. وخلق طوائف من الزواحف والحشرات. فأقام أهورامزدا خندقا أمام السماء. ولكن أهرمان نجح فى قتل الثور وكيومرد. أول البشر. وكانت بذور كيومرد مخبأة فى الأرض فنتج منها بعد انقضاء أربعين سنة شجرة خرج منها أول زوجين من بنى آدم. وهكذا بدأت فترة اختلاط الخير بالشر. وأخذ البشر يلعبون دورا فى الحرب بين مملكتى النور والظلام.

س : أحد الكهنة – فلم تنصحنا بأن نتبع روح الخير ونترك روح الشر ولكل قوته وعظمته؟

ج : زرادشت – لأن الخير سينتصر فى النهاية. لأن الشر ليست له بصيرة. فإله الخير يذكر الماضى ويعرف المستقبل. أما روح الشرّ فلا تعرف الماضى ولا المستقبل. والشرُّ لا يعيش إلا للحاضر.

س : أحد الكهنة – لقد قلت يازرادشت. إن روح الخير لا يفعل إلا الخير فبم تعلل ما يحدث للإنسان الذى خلقه روح الخير ويتبع روح الشر؟

ج : أجاب زرادشت – الإنسان خلق حراً فى إرادته يختار الخير أو الشر. وكل ما يفعله أو يقوله مكتوب فى كتاب الحياة. الأفعال والكلمات الصالحة فى جانب، وفى الجانب الآخر ما يفكر فيه أو يفعله من شرّ. وعندما يموت الإنسان تذهب روحه إلى الحفيظ على كتاب الحياة. فإن زاد خيره على شره ذهب إلى الجنة، وإن زاد شرُّهُ على خيره ذهب إلى النّار.

س : انبرى الملك وسأل زرادشت. وهل يستمر الأمر طويلا؟

ج : زرادشت – ياصاحب الجلالة : إن يوم الحساب قريب وفى ذلك اليوم ينتصر الإله الواحد على الشرّ. وساعتها يبعث الموتى. ويقع النجم المذنب على االأرض فتشتعل وتذوب جميع المعادن. فتنتشر على الأرض كأنها سيل ملتهب.

وعلى كل الناس الأحياء والأموات المبعوثين أن يعبروا مجرى السيل الذى يبدو للأرواح الخيّرة كأنه لبن دافىء فيطهرهم المرور به ويمضون به إلى الجنة. أما الأرواح الشريرة. فتظل تحترق إلى الأبد خالدة فى المعدن الملتهب. وعندئذ يطرد الإله الخير روح الشر. وكل من يتبعه من الأرواح الخبيثة إلى وسط الأرض. وفى ذلك اليوم يبدأ العالم السعيد الخيّر الذى لا شر فيه ويدوم سرمديا. وهنا صمت كل من فى القاعة لأنهم لم يسمعوا بمثل هذا الكلام من قبل.

وسأل الملك الكهنة : هل لكم من أسئلة أخرى؟ توجهونها إلى هذا الرجل .

س : أحد الكهنة – وما هو الواجب على المرء منّا إن أراد أن يتبع سبيل الإله؟

ج : زرادشت – السبيل هو الأفكار الطيبة. والكلمات الطيبة والأعمال الطيبة فالصدق صالح. والكذب باطل.

س : أحد الكهنة – هل الصدق وحده سبيل للوصول إلى الإله؟

ج : زرادشت – الصدق يأتى أولا لأن الذى يسلك طريق الإله يجب أن يكون طاهرا فى أفكاره وأعماله. محسنا يساعد المحتاجين. يفلح الأرض. ينبت الأشجار. يربى الماشية. يؤدى أعمالا نافعة. ويكون رحيما بكل شيىء. وظل يذكر أعمال الخير وثوابها. والشرّ وعقابه. واستمر الحال على ذلك ثلاثة أيام وهو يردُّ على الملك والكهنة حتى قال الملك: إن هذا الرجل تكلم بهذه الحكمة وهزمكم إن هو إلا نبىٌّ من عند الإله وأعلن الملك اعتناقه لمبادىء زرادشت وملأت السعادة نفسه. وانتشر الخير فى أنحاء إيران. وتدفق الناس على زرادشت. حتى أسرته التى تخلت عنه فى أول الأمر. ولكن حكماء القصر والكهنة راحوا يتآمرون سراً على زرادشت. لأنه لن تقوم لهم قائمة بعد اليوم. لذلك. كانوا يعلمون أن الملك يكره

السحر والشعوذة. واتفقوا فيما بينهم على وضع خطة تظهر زرادشت بأنه ساحر. فجمعوا رؤوس قطط وكلاب ميتة وعظام من كل نوع وأظافر وشعر مما كان يتخذ وسيلة للسحر فى تلك الأيام. ووضعوها فى غرفة زرادشت فى أماكن غير معلومةله. وأسروا إلى الملك بذلك الذى أمر بتفتيش غرفة زرادشت. وفوجىء الملك بهذه الأشياء فى الغرفة. فأمر بالقبض على زرادشت. وايداعه السجن. ثم رجع عن عقيدته وأمر الناس أن يرجعوا إلى عقيدتهم الأولى. ونجح الكهنة فيما أحكموه من مؤامرة.. وحدث فى أثناء ذلك أن أصيب جواد الملك بمرض جمع له الأطباء ولم يفهم أحدٌ سرَّ هذا المرض لأن قوائمه الأربع دخلت فى بطنه ولم يظهر منها غير الأطراف وبلغ الخبر إلى مسامع زرادشت وهو فى السجن الذى أرسل برسالة إلى الملك يخبره أنه يستطيع برء الجواد بشرط أن يؤمن بتعاليمه. ولم يجد الملك ما يمنعه من استدعاء زرادشت الذى حضر وبدأ يدلك ساق الجواد الأمامية وهو يرفع رأسه إلى السماء ويتوجه بالدعاء إلى ربه. ولم يكد ينته من دعائه حتى بدأت ساقى الجواد الأماميتين. وتوقف زرادشت عن التدليك فى الخلفيتين وتوجه بالكلام إلى الملك. فقال له: إذا شفيتهما فهل تعدنى بأن يعتنق ولدك "اسفنديار" تعاليمى. كما تعدنى بمعاقبة أولئك الذين تآمروا ضدى واتهمونى بالسحر.. ووعده الملك بذلك. وبدأ فى التدليك وشفيت الأرجل. وقفز واقفا. وراح الجواد يتمسح فى زرادشت. وصدر أمر الملك بالإفراج عنه. والتحقيق فى أسباب المؤامرة حيث اعترف حارس الغرفة بالذين أدخلوا الأشياء. ومضت الأيام. وفى كل يوم تظهر لزرادشت معجزة. لكن الملك طلب من زرادشت أن يريه مكانه فى الجنة. وأن يحول جسده إلى حديد لا يؤثر فيه أى سلاح. وأن ينبأه بأحداث الماضى والحاضر والمستقبل وأن يبقى متمتعا بصحته إلى يوم القيامة. لكن زرادشت ردَّ عليه بأن هذه الأشياء لا تتحقق لشخص واحد. فعليه أن يكتفى برغبة واحدة. فطلب أن يريه مكانه فى الجنة. وتقول الكتب المقدسة عند

الزرادشتين. بأن زرادشت تضرع إلى ربه. ولم يكد ينته من دعائه حتى انقلبت القاعة إلى قطعة متلألأة من النور وعدد من الملائكة على ظهور جياد. واضطرب الملك وأصابه شبه شلل. وأبقاه جامداً. فلما مرَّ من أمامه نور وهاج إذ بروحه تسمو وتطفو ويقدم له أحد الملائكة كأسا من الجنة. فما كاد يشربها إلا ورأى بعينه مالا يخطر له على بال. الخير والشر وأشياء كثيرة لا تخطر له على بال ولا نظير لها فى الحياة. ثم اقترب من الملكة وسقاها من نفس الكأس فسمت روحها. وطهر قلبها. وقدم قدحاً من اللبن فحلت فيه روح الخلود ثم قدم كوبا من عبير الجنة إلى وزير الملك. فم يكد يشمه حتى أشرقت على نفسه أنوار العرفان. واطلع على أسرار الماضى والحاضر والمستقبل. ثم قدم إلى الإبن الأكبر تفاحة فلم يكد يأكلها حتى صار جسداً قوياً كأنه من الحديد.. عندئذ أمر الملك بذبح اثنى عشر ألف بقرة دبغت جلودها. وربطت بخيوط من الذهب الخالص وكتب عليها بحروف من الذهب كل تعاليم الإله.

عاش زرادشت فى القصر الملكى وكانت له ابنة تدعى " بوروكستا" وكانت على جانب كبير من الجمال. كما أنها كانت أحكم النساء. وجاءت إلى القصر لزيارة أبيها. ونالت الفتاة بحكمتها إعجاب العائلة الملكية. فطلب رئيس الوزراء أن يتزوجها. وتم الزواج وبذلك دُعِّم نبى الإله زرادشت وذاع صيته وأنتشرت تعاليمه. وطلب من الملك أن يبشر بدعوته خارج الحدود، وكان الإيرانيون مدينين لمملكة "توران". وطلب زرادشت من الملك أن يرسل إلى ملك توران رسالة يقول فيها:

" أذا لم تتخَل أنت أيها الملك وشعبك عن عبادة الأوثان وقبلتم تعاليم الإله كما جاء بها النبى زرادشت فسنرفض أن ندفع الديون التى لك عندنا. ووصلت الرسالة إلى ملك توران فغضب وقال لحكمائه: إذا استند الإيرانيون إلى العقيدة فى رفض سداد ديونهم فباسم نفس العقيدة سيلجأون إلى انتزاع أرضنا

واهدار حريتنا. واتفقوا على أن يرسلوا بالرسالة التالية إلى ملك إيران.

" نحذركم أنا ملك توران ومعى شعبى بأنكم إذا لم تكفوا عن تعاليم زرادشت. وتعودوا إلى إيمان آبائكم الأولين. فسنهاجمكم بجيوشنا ورماحنا قبل أن تنتهى ثلاثة شهور قمرية."

وشبت الحرب بين إيران وتوران. فى معارك رهيبة انتصر الإيرانيون فيها انتصارا عظيما. وأصبح زرادشت الذى كان سببا فى الحرب بطلا شعبيا. كلمته قانون وتعاليمه مقدسة. هذا فى إيران. أما فى توران فقد كره الناس زرادشت وبدأوا يدبرون الخطط للإنتقام، وبعد سبعة عشر عاماً شعر التورانيون بالقوة فدخلوا فى حرب ثانية مع إيران. وبدأت إيران فى الإنهيار. فدخل التورانيون يحطمون ويقتلون. وكان زرادشت فى معبد النار يصلى ومعه ثمانون من كبار الكهنة. واندفع التورانيون إليهم. وطعنوهم بالرماح. واعملوا فيهم السيوف. فسقط زرادشت ومن معه صرعى. وسالت دماؤهم إلى النار المقدسة فأخمدتها. وانتهت بذلك حياة زرادشت. لكن عقيدته وتعاليمه لم تمت بموته.

وصار أتباعه ينشرون تعاليمه ويبشرون بها فى العالم وتتلخص فيما يأتى:-

١ – طهارة الفكر والكلمة والعمل .

٢ – النظافة والبعد عن كل ما هو دنس .

٣ – الإحسان بالفعل والقلب .

٤ – الرفق بالحيوانات النافعة .

٥ – القيام بالأعمال النافعة .

٦ – مساعدة الذين لا يتيسر لهم تحصيل العلم .

وهذه التعاليم من يسير عليها بوصف بأنه يسلك سبيل الإله.

ومضت الأيام. وبعد ثلاثمائة سنة من موت زرادشت غزا الإسكندر الأكبر أرض فارس وحطم "الأفستا" الكتاب المقدس وأقام بدل عقيدة الزرادشتيه، عقيدة اليونان. لكن الشعب "فارس" لم يشأ التخلى عن عقيدته. وأخذ يعلمها لأبنائه سرا فلما استقلت فارس عن الحكم الأجنبى بعد خمسمائة سنة أعادوا تعاليم زرادشت ثانية. وجمعوا الأجزاء القديمة من "الأفستا" فى كتاب واحد. لكن جزءا كبيرا منها كان قد ضاع. وبدأت التعاليم تنتشر من جديد فى بلاد فارس. وبنيت المعابد وأشعلت النيران رمزا للإله. واستمر الحال على ذلك أكثر من أربعمائة عام. حيث وصل العرب إلى فارس وبشروا بالدين الذى بعث به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. لكن كثيرا من الإيرانيين فضلوا الموت على اعتناق الدين الإسلامى وهربوا إلى بلاد سمح لهم فيها بممارسة طقوس عبادتهم. واستوطنوا بالهند منذ أكثر من ألف وأربعمائة وعشرة سنوات. ويزعمون أن عقيدتهم أفضل عقيدة فى العالم.

وهم وإن كانوا قليلين فإنهم يتمسكون بعقيدتهم ولهم تأثير قوى على غيرهم لأنهم يحفظون كتابهم المقدس ويخلصون له رغم ماشابه من تغيير. ويقدسون النار والتراب والأرض والماء. وأخلاقهم سامية. ويتحلون بالأدب العالى مما يدل على أنها تعاليم زرادشت. ويحرصون على دفن موتاهم فى الأبراج العالية حتى لا يدنسوا الأرض أو الماء طبقا لتعاليم عقيدتهم.

الكونفوشيوسية

أرض الصين ذات حضارة عريقة. على أرضها نبتت أفكار كما قامت حضارة تناهض الحضارات. وتعلن عن أن سكان الصين قوم لهم أصالة فى الفكر. ورسوخ قدم فى العلوم.

ومن بين الأفكار التى راجت فى وسط الصينيين أنه حوالى عام ٢٢٩٠٠٠ر٢ ق.م. استطاع "بانكو" أن يشكل العالم لأنه كان فى غاية القوة. فجسده جسد أفعى. ورأسه رأس تنين. وظل يكدح فى خلق العالم ثمانية عشر ألف عام ولقد مات مجهدا من هذا العمل الشاق وتجمعت أنفاسه فصارت ريحا وسحبا. واضحت أناته الأخيرة الرعد. واصبح الدم فى عروقه الأنهار. وعرقه الأمطار. وعظامه الصخور. واسنانه المعادن. وشعره الغابات والأشجار ولحمه الأرض. ورأسه الجبال. وعينه اليسرى الشمس. وعينه اليمنى القمر. أما الحشرات التى كانت تعلق بجسمه فأصبحت الآدميين. وتمضى تلك الأسطورة فتقول: كان هناك شخص يسمى " فوشى" وقد عاش حوالى عام ٢٨٣٨ ق ب. وتتحدث عنه أساطير الصين بأنه خالق البشر. لأنه قمل بان كو .. وكان لفوشى هذا أخت تسمى "نوكواشى" لها جسم ثعبان ورأس آدمى. هذه الأخت لها قصه نلخصها فيما يأتى :-

حدث أن رب العقاب المسمى "هونج كنج" كان شديد البطش قوى القسوة. شديد الطمع. دخل فى صراع دموى مع رب الغابات حيث تغلب عليه. ثم زاد فى طغيانه. واستمر فى عدوانه إلى أن اصطدم بشخصية قوية يدعى " شوشنج " الذى أصبح إله النار، وهزم رب العقاب الذى ثار وضرب الجبل برأسه فانشق. وحطم أعمدة السماء. وهدم أركان العالم. وهنا نهضت " نوكواشى" فأذابت أحجارا خمسة من ألوان قوس قزح. وأعادت إصلاح أعمدة السماء. وقضت أقدام السلاحف لتلصق بصمغها أركان الأرض. وجمعت رماد الهدم. وكدسته لتوقف به فيضان الماء، وهكذا تم إنقاذ العالم كما تزعم تلك الأسطورة.

وتستمر فتتحدث عن أهل الصين الذين كانوا يعبدون الطبيعة خوفا من خوارقها. كما كانوا يعبدون الأرواح الكامنة فى جميع الأنحاء كما كانوا يعبدون

السماء ويقدسون ما فيها من شمس منعشة وأمطار مخصبة. وكانوا يعدون الشمس والمطر من عناصر الوئام والارتباط بين ما فوق الأرض من حياة. وما فى السماء من قوى خفية قادرة. ثم الريح والرعد والأشجار والجبال والأفاعى لأنهم آمنوا بأن لكل من هذه المقدسات روحاً يجب أن تعبد وأصبحت أعظم أعيادهم فى الربيع. حيث يحتفل الشبان والفتيات فيرقصون ويتضاجعون فى الحقول. وفى الخلاء. ليضربوا المثل لأمهم الأرض فى الإخصاب والإنتاج. ولقد آمن أهل الصين واعتقدوا أنه قبل خلق العالم لم يكن هناك شيىء. واستمر ذلك وقتا طويلا ثم ظهر شيىء. ومنه خلق "بان كو". ثم اعتقدوا بوجود حاكم أعلى واحد فوق الناس والأرواح اسمه " شانج تى " وهو القوة المسيطرة على العالم. وقالوا إنه عادل جدا. ثم ألهوا إلهاً آخر اسمه " تيان ". وهو سيد كل الآلهة. وهو فى السماء. لذلك هو الذى يرسل المطر فيزرعون الأرز. والمطر ينزل من السحاب. والريح تدفعه. والرعد والبرق يفتحان السحب ليتساقط المطر. وقوس قزح الذى يظهر بعد سقوط المطر. ولما كانت حياتهم تعتمد على الأرز. إذن فهم يعبدون الإله "تيان" لأنه فى السماء. ولا بأس أن يعبدوا الشمس والقمر والمطر والنار. والرعد. والجبال. والأنهار. ومادام الأمر كذلك فهناك من حولهم أرواح طيبة وأخرى خبيثة ترفرف من حولهم فى الهواء. وفوق الأرض. وهم بقوتهم لن يستطيعوا أن يردوا عداوة هذه القوة الخفية. فعليهم أن يستعينوا بالأدعية والرقى السحرية. كما كانوا يستأجرون المتنبئين ليكشفوا لهم عن المستقبل. وتعاملوا مع العرافين ليستنزلوا لهم نور الشمس وماء المطر. ولكن. هل اكتفى الصينيون القدماء بكل هذا؟. لا. لأنهم عبدوا أرواح أسلافهم فكان الرجل منهم إذا مات عبد أبناؤه روحه. ويستمر كذلك إلى حفدة الأحفاد حتى يعبدوا ذكراه.

في وسط هذا الجو المليئ بالألغاز والمشحون بالأفكار تحدث الناس عن قائد عظيم ظهرت قوته النادرة هو "تشوليانج هيه" وكان هذا القائد العظيم على منطقة "شو" يتولى القيادة. وقد حاصر بجيشه قلعة أحد أعدائه. الذين تركوا باب قلعتهم مفتوحاً. ودخل رجاله إلى مداخل القلعة. وقام العدو على الفور بإنزال الأبواب والغرض من ذلك حصر الجنود وقتلهم داخل القلعة. لكن "تشوليانج" اندفع بقوته نحو الأبواب الضخمة ورفعها بيديه حتى خرج جميع رجاله ناجين. وفي العادة يصبح مثل هذا الرجل محلٌ إعجاب عظيم خاصة في بلد كالصين التي كانت مقسمة آنذاك إلى ولايات صغيرة يحكمها أمير أو شريف لا يرعى إلا مصالحه الخاصة. وكانت تلك الأيام سيئة في تاريخ الصين. وكان في الإمكان أن يتولى "تسيوليانج" مكان القرب من أي أمير. لكنه لم يكن كذلك لأنه كان له من البنات تسع. والبنات يتزوجن ويعبدن أرواح آباء أزواجهن كما تقضي التقاليد. وكان يتمنى أن يكون له ولد ليعبد روحه ولكن شاءت الأقدار أن يولد له ولد من زوجته الجديدة وكان قد بلغ السبعين من عمره. فسمّاه " تشيمو". وكان ذلك عام ٥٥١ قبل الميلاد. وقد مات الأب عندما بلغ تشيمو الثالثة من عمره. وترك زوجته مع ولده في فقر مدقع. إلا أن الأرملة استطاعت أن تنهض بتعليم وحيدها الذي ظل يواصل تعليمه. وظهرت ملامح الجدّ والإبتكار عليه. حيث أثنى معلموه على اهتمامه بالدراسة وفهمه للأشياء. وقد ظهرت حكمته وذا ع صيته. فتوافد الناس عليه من كل مكان ليستمعوا إليه. فلما بلغ التاسعة عشر من عمره. منح وظيفة أمين مخازن الحبوب . وعلى إثر ذلك تزوج وأنشأبيتا . وفي خلال عمله بالوظيفة أدخل عليها من التحسينات ما جعل حاكم المقاطعة يرقيه إلى وظيفة "مشرف عام على الحقول" وكان المنصب الجديد بالغ الأهمية بالنسبة لشاب في

عمره. إلا أنه كان يتمنى أن يتخلى عن كل ذلك ليكرس كل وقته للدراسة والتعليم والتعلم. وكان يقضى وقت فراغه فى دراسة التاريخ والموسيقى والشعر. وكان بيته لا يخلو فى أى أمسية من أناس مختلفى الأعمار يستَفْسرون منه ويسألونه. وكان يشعر بسعادة عظيمة. لأنه يعلم أولئك الذين هم فى حاجة إلى علمه.

وقد بدأوا يطلقون عليه "كونج" أى : الفيلسوف فوتشى. ثم حرف الاسم ليكون بعد ذلك "كونفوشيوس".

وقد ماتت أمه. فإستقال من منصبه كمشرف عام على الحقول وبلغ به الحزن كذلك أن أهمل زوجته. لأنه حدد لنفسه أيام الحداد بثلاث سنوات. لذلك انفصلت عنه زوجته.

ولما انتهت أيام الحداد لم يعد إلى وظيفته. وإنما كان يقضى معظم وقته بجوار قبر أمِه يتأمل الحياة كما يتأمل الموت. كما اهتم بدراسة تاريخ شعبه وفلسفته.

وانتشرت شهرة "كونفوشيوس" وجاء إليه الناس من كل فج عميق. حتى أصبح له من الأتباع أكثر من ثلاثة آلاف. وقد مرض رئيس وزراء الإقليم الذى يعيش فيه "كونفوشيوس" فلما أحس بدنو أجله. وجّه القول لأكبر أبنائه: "يابنى لقد كان حظى من التعليم فى أيام شبابى ضئيلا. وظللت طول حياتى آسفا لهذه الحقيقة. وأريد منك أن تجدَّ فى الدرس والتحصيل وتصبح متعلما تعلما كافيا على يد خير المعلمين."

وأجاب الولد :" سمعاً وطاعة ياأبى. قال الأب : لقد سمعت بمعلم اسمه "كونفوشيوس". لا نظير لحكمته فاذهب إليه يابنى وتعلم على يديه. ووعده ولده بذلك.. وعن طريق ابن رئيس الوزراء أصبح حاكم البلاد صديقا "لكونفوشيوس" مما زاد فى انتشار سمعته وشهرته فى جميع الآفاق...

وفى هذه الأيام قامت حرب أهلية فى الإقليم. فهرب الأمير من وطنه لينجو بحياته وهرب كونفوشيوس" إلى إقليم مجاور لكنه لم يطق الحياة خارج بلاده. فعاد إلى وطنه. ووجد كونفوشيوس" أكبر أبنائه "لى" قد خيب أمله لأنه لم يدرس أى شىء لكن عزاءه كان فى تلاميذه الذين أحبهم وأحبوه. وكانت تعاليم "كونفوشيوس" كتعاليم "سقراط" شفهيا. وكان يستوحى آراءه من الحوادث التى تصادفه عرضا فى الطريق.

ويذكر التلاميذ أن " كونفوشيوس" كان يمشى فى طريق فسمع إمرأة تستغيث وتصرخ. فسألها عن سبب ذلك. فقالت: " إن نمراً مفترسا قتل ولد زوجى. ثم قتل زوجى ثم قتل ولدى. " فقال لها: " ولم تجلسين فى هذا المكان القفر؟ "فأجابت المرأة. لأنه لا يوجد هنا حاكم ظالم فاستدار على الفور إلى تلاميذه. وقال لهم : اكتبوا عندكم. إن الحاكم الظالم أخطر على الناس من النمر المفترس. وقال لهم فى يوم آخر : ما أشقى الرجل الذى يملأ بطنه بالطعام طول اليوم دون أن يجهد عقله فى شيىء. لا يتواضع فى شبابه التواضع الخليق بالأحداث. ولا يفعل فى رجولته شيئا خليقا بأن يأخذ عنه غيره. ثم يعيش إلى أرذل العمر. إن هذا الإنسان وباء .. كان كوفوشيوس شديد العطف على الحيوان. وكان يتخذ ملابسه من نسيج الكتان. رغم أن الأقمشة الحريرية كانت منتشرة آنذاك. ولما سئل قال: " أنا لا أستبيح لنفسى أن أقتل دودة القزّ لأستولى على نسيجها وأصنع منه ردائى." ولما سئل عن عدم شربه اللبن قال:" لأن اللبن من حق الرضيع من البهائم والسائمه ". كما كان يفتخر بأنه لم يستعمل قط شبكة لصيد السمك ولم يرم طائرا بسهم. ويقول: " قد أكون فى الأدب مساويا لغيرى من الناس. لكن خلق الرجل الأسمى الذى لا يختلف قوله عن فعله هو ما لم أصل إليه بعد. لقد كان شديد المراعاة للمراسم وقواعد الآداب. والمجاملة. وكان يبذل ما فى وسعه للحدّ من قوة الغرائز. وكبح جماح شهواته..

مع أن الجوَّ الذى كان يعيش فيه غارقا فى الفساد والجريمة. الناس لا يأمن واحد منهم على بيته أو امرأته. الخيانة هى طريق كل إنسان والسرقة هى أساس التعامل بين الناس. وكان لعلاج هذا الأمر لابد وأن يحدث شيىء خارق للعادة. ولكن .. من يمكن أن يأتى بالمعجزة؟ فقال أحدهم : إنه :(كونفوشيوس) فذهبوا إليه. والتقى بهم رجل أصلع فى وجهه رهبة. شفتاه كبيرتان. وفمه واسع وجبهته عريضة. كما أنه طويل عملاق. ومنظره كئيب كالكلب الضال ظهره مقوس. فتقدموا إليه وقالوا : أيها الحكيم إن مدينتنا فى أشد الحاجة إلى وجودك لإنقاذها من فنون الشرّ. فهل ترضى أن تجيىء معنا لتكون قاضياً لنا ؟ ووافق، ودخل المدينة. وبدأ يعلم الناس. فبدل الخيانة والفساد، أصبح الوفاء والإخلاص. كما أصبح العفاف من شيمة النساء. وتحدث الناس عن ذلك. فاستدعاه الوالى. وسأله. أصحيحٌ ما حدث ؟ بوكيف؟ قال "كونفوشيوس " كنت أكافىء الصالحين وأعاقب الأشرار. وعرض عليه الأمير أن يكون وزيرا . فقبل. وعندما تولى أمر الوزاره درس حالة السجون ونوَّع الناس. وبدأ يعالج كلاً منهم على حده. وحاول القضاء على الفقر والجهل لانهما يدفعان الناس إلى ارتكاب الجرائم. ولما سئل. كيف ؟؟ قال نحارب الجهل بالتعليم، والفقر بتعليم الصناعات والحرف حتى يكسب كل واحد قوته بشرف. ولما سأله الأمير كيف نبدأ؟ قال: أنتم حكامهم. ومن واجبكم أن تكونوا قدوة صالحين. فالناس فى حاجة إلى حكام يستطيعون أن يتبعوهم. وأول قاعدة للصلاح هى : أن لا تفعل للآخرين مالا تحب أن يفعلوه لك.

مؤامرة

مضت الأيام وتقدر بعامين على حكم "كونفوشيوس" كوزير. اختفت الجريمة. وخلت السجون. وانفض الجمع من المحاكم. فلم يعد هناك شيىء يسمى

بالمجرمين. واحتل "كونفوشيوس" منزلة القرب من الأمير ودبَّ الحسد عندئذ فى نفوس الوزراء والأمراء. وتآمروا على إبعاده من موقعه. وبدأوا يشغلون الأمير بالسباق. وأحاطوه بالحسان من النساء. وأعرض الأمير عن "كونفوشيوس" وبدأت الجريمة تطل برأسها على هذا الإقليم. كما ملئت المحاكم بالمتخاصمين. وامتلأت السجون هى الأخرى بنزلائها من المجرمين. ورأى "كونفوشيوس" أن عمله فى السنوات الماضية قد انهار فملأه الحزن وقرر أن يبرح هذا المكان. وخرج ومعه بعض الأتباع. ومروا بالأقاليم التى استقبلتهم بالترحاب تارة، وبالهجوم مرة أخرى. وكانوا يموتون فى بعض الأيام من الجوع وبدأ التذمر يظهر عليهم أحيانا ويختفى أخرى إلى أن وصلوا إلى مكان فيه رجل يعمل فى الزراعة. وعرفوه أنه من النُسَّاك الذين عافت نفوسهم مفاسد ذلك العهد. واعتزلوا الشئون العامة وآثروا عليها الحياة الزراعية. الذى وجه كلامه إليهم: ليس بالهرب من الشر يستطيع المرء أن يغيره إلى الأحسن. وإذا كان الناس جميعا خيرين سعداء. لما كانت لهم حاجة إليكم. ،إنه من الجبن أن يرى الإنسان ما هو صواب ولا يحاول أن يفعله ." وطوف الحكيم فى البلاد ثم عاد إلى وطنه الذى وجد أن الأمور السياسية فيه تغيرت. فعمل مستشارا للأمير. واعتزل هو المجتمع ليتفرغ لكتابة الشعر. ونشر روائع الصينية القديمة. وكتابة تاريخ الصين. لأنه كان يعتقد أن المعرفة هى أهم شيء فى العالم. وسأله أحد تلاميذه فى يوم. هل من الصواب أن يكون المرء محبوبا من جميع جيرانه؟ قال الحكيم: كلا .. فسئل. هل من الصواب أن يكون المرء مكروها من كل جيرانه؟ قال: كلا .. ولكن الأفضل أن يحبُّه الخيرون من جيرانه. وأن يكرهه الأشرار ممن هم فى جواره. سأله تلميذ: هل من الصواب الردّ على الإساءة بالأخرى ؟ أجاب بحدَّة : وبأى شيء إذن تجزى الإحسان. لتكن العدالة جزاء الإساءة. سئل. وما هى الفضيلة؟ أجاب : أن لا تفعل بغيرك مالا تحب أن يفعل بك ... سئل. هل هناك حياة أخرى بعد الموت؟

أجاب: إذا كنّا لا نعرف شيئا عن الحياة فكيف نعرف شيئا عن الموت ومابعده .. سئل ما هو الحبُّ ؟ أجاب : حُبُّكَ للبشر. سئل ما هو ؟ أجاب : الاعتزاز بالجهد أكثر من الاعتزاز بالثمرة. إنه مجرد الاستمتاع بعمل شيىء دون نظر إلى ثمرة هذا العمل التي يمكن الحصول عليها . إنه عمل الخير دون نظر إلى مكافأة عنه في هذه الحياة. أو في حياة أخرى. ولكن لمجرد الاستمتاع بعمل الخير . فالحبُّ ثمرة نفسه. لأنه يجعل الأشياء تبدو جميلة. ويخلق السلام. والقلب الذى يعمر بالحب لا يخطىء. سئل. كيف يسير المرء نحو حياة صالحة؟ أجاب. ابغ الصواب واستمسك بالكسب الصالح. واسترح فى الحب. وتحرك فى الفن هذه هى طرق الحياة الصالحة.

نظم إنسانية

إن الكنفوشيوسية يعتبرها البعض أنها منهج أخلاقى. وأسلوب من أساليب الحياة. وقامت بأداء الدور الذى وجدت فيه فى مناخ كان يتطلب وجودها . ولقد تمثلت فى هذه الطريقة جميع العقائد الصينية القديمة. ولم يرد فى تعاليمها شيىء عن ذكر كل ما يتعلق بالسماء. والطقوس والآلهة. وهى وإن كانت قد تجاهلت هذه الأسس فإن ذلك لم يكن عن استخفاف، وإنما كان ذلك بعيدا عن فكر منظم هذه العقيدة.

ونستطيع أن نقول إن تعاليمهم تندرج تحت ما يسمى بالمذهب الإنسانى. لأن تعاليم هذه الطريقة أن يعتمد الإنسان على نفسه ولا يعتمد على أي كائن علوى أو أية قوة غير منظورة. وعلى المرء أن يصل إلى ما يتمناه من تقدم وسعادة ورقي عن طريق ذاته فقط ويكون ذلك بتثقيف النفس وتهذيبها . لأن المعرفة الصحيحة هى وسيلة الحياة السعيدة التى تخلق الرجل السعيد الموفق.

وتفرز العائلة الصالحة، وتكون الحكومة العادلة. وتؤدى فى النهاية إلى إيجاد عالم تسوده العدالة والمحبة والسلام.

تلك أسس العقيدة "الكونفوشيوسية". إنها نظام إنسانى يوجههم إلى التعامل بالحسنى. وفى نفس المعانى كان يقول كونفوشيوس: " إن القدامى" الذين أرادوا أن ينشروا أرقى الفضائل فى أنحاء الإمبراطورية بدأوا بتنظيم ولايتهم أحسن تنظيم. ولما أرادوا أن يحسنوا تنظيم ولايتهم بدأوا بتنظيم نفوسهم. ولما أرادوا أن يهذبوا نفوسهم. بدأوا بتطهير قلوبهم. ولما أرادوا أن يطهروا قلوبهم عملوا أولا على أن يكونوا مخلصين فى تفكيرهم. ولما أرادوا أن يكونو مخلصين فى تفكيرهم بدأوا بتوسيع دائرة معارفهم إلى أبعد حدّ مستطاع وهذا التوسع فى المعارف لا يكون إلا بالبحث عن الحقيقة. ولما أن بحث هؤلاء عن حقائق الأشياء أصبح علمهم كاملا. ولما كمل علمهم خلصت أفكارهم. فلما خلصت أفكارهم تطهرت قلوبهم. ولما تطهرت قلوبهم تهذبت نفوسهم. ولما تهذبت نفوسهم انتظمت شئون أسرهم. ولما انتظمت شئون أسرهم صلح حكم ولاياتهم. ولما صلح حكم ولاياتهم أصبحت الامبراطورية كلها هادئة سعيدة." ثم يقول:" إن العالم فى حرب لأن الدول التى يتألف منها فاسدة الحكم والسبب فى فساد حكمها أن الشرائع الوضعية مهما كثرت لا تستطيع أن تحل محلّ النظام الإجتماعى الطبيعى الذى تهيؤه الأسر. والأسرة مختلة عاجزة عن تهيئة هذا النظام الإجتماعى الطبيعى. لأن الناس ينسون أنهم لا يستطيعون تنظيم أسرهم من غير أن يقوموا أنفسهم وهم يعجزون عن تقويم نفوسهم لأنهم لم يطهروا قلوبهم. أى أنهم لم يطهروا نفوسهم من الشهوات الفاسدة الدنيئة. وقلوبهم غير طاهرة لأنهم غير مخلصين فى تفكيرهم لا يقدرون الحقائق ويخفون طبائعهم بدل أن يكشفوا عنها. وهم لا يخلصون فى تفكيرهم لأن أهوائهم تشوش

الحقائق. وتحدد لهم النتائج بدل أن يعملوا على توسيع معارفهم إلى أقصى حدٍّ مستطاع ببحث طبائع الأشياء بحثا منزها عن الأهواء."

وكان يقول :" إذا عرفت شيئا فتمسك بأنك تعرفه. وإذا لم تعرفه فاقرُ بأنك لا تعرفه لأن ذلك فى حد ذاته معرفة.

إذا كنت عاجزا عن خدمة الناس فكيف تستطيع أن تخدم أرواحهم.

إذا كنت لا تعرف الحياة فكيف يتسنى لك أن تعرف شيئا عن الموت.

إذا حرصت على أداء واجبك وبعدت كل البعد عن الكائنات الروحية مع احترامك إياها . أمكن أن تسمىٌ هذه حكمة.

استمل الصالحين المستقيمين. وانبذ المعوجين. وبهذه الطريقة يستقيم المعوج.

ثم فى خلال عام ٤٧٨ ق.م. مات "كونفوشيوس" وذاع نبأ موته فى جميع أنحاء الصين. عمٌ الحزن الجميع حتى الحكام الذين أهملوه حيًّا احتفلوا بإحياء ذكراه ميتا. وأعلنوا الحداد لمدة ثلاثة أعوام وبنى بعضهم اكواخا على مقربة من قبره ظلوا فيها طوال أيام حزنهم يدرسون تعاليمه. ويحيون ذكراه. ومضت الكنفوشيوسية فى الصين واليابان تخترق الحواجز. وتجمع التلاميذ. وأصبح اسم "كونفوشيوس" أعز على الناس من أى شيىء. على أنه إذا كانت العقيدة البوذية استطاعت أن تجد لها مكانا عندما قدمت بعد ذلك إلى الصين لأنها فسرت لشعبها الأشياء التى كان يريد أن يعرفها عن الموت وعن السماء. إلا أن الناس مع ذلك. ظلوا متمسكين بالكونفوشيوسية" ولأنه فى عام ٦٦٥ م خُلِعَ على كونفوشيوس لقب "أنبل الأساتذة" وفى عام ٧٣٩م خلع عليه لقب "ملك". وفى عام ١٠١٣م لقب " أقدس القديسين". ومالنا نذهب بعيدا ونحن نقرأ. أنه فى عام٧٢م.

قامت الأسرة الحاكمة بتكريم ٧٢ من كبار أتباع " الكونفوشيوسية" وفى عام ٢٧٢م صدر مرسوم بوجوب تقديم القرابين العظيمة أربع مرات فى العام لكونفوشيوس كما قام أهل بلدته بإقامة معبد تمجيدا لذكراه. وفى عام ٥٥٥م صدرمرسوم يقضى بإقامة معبد له فى جميع المدن الكبرى من كل ولاية من الولايات. ووضعوا له التماثيل التى كانوا ينحنون لها إجلالا واحتراما وفى عام ١٦٥٧م أطلقوا عليه "أحكم الأساتذة الأقدمين"، وبهذا أصبحت الكونفوشيوسية عقيدة كاملة وذخرا ضخما يعتز به كل شعب الصين. لأنه علمهم أن كل أسره يجب أن تكون كالحكومة الصغيرة .. فالوالدان يعنيان بأبنائهما. والأبناء يحترمونهما. وواجب الأبناء نحو الآباء تظهر جلية فى تعاليم "كونفوشيوس" فهو يقول:" اكرم أباك وأمك. وافعل كل ما تستطيعه لجعلهما سعيدين. واعبد ذكراهما ما حييت."

إن شعب الصين يقدس ذكرى "كونفوشيوس" وبرغم أنه لايعبد كإله كما يعبد بوذا. إلا أنه يعتبر فى نظر الناس أعظم حكيم وطنى صينى. لذلك. فالموظف الحكومى لا يعين فى وظيفته إلا بعد أن يجتاز امتحانا فى الكتب المقدسة. وهى مؤلفاته وكتبه. ونحن الآن بعد انقضاء حوالى ٢٦٠٠ سنة. نجد فى الصين وحدها أكثر من ٢٥٠ مليون من المعجبين "بكونفوشيوس" يتغنون بحكمته ويثنون عليه قائلين: عظيم أنت أيها الحكيم الكامل. فضيلتك كامله وتعاليمك كامله وبين جميع البشر لم يخلق مثيل لك.

أما العامة الذين لن يقدروا على هذا التعبير فهم يقولون:"كونفوشيوس ياكونفوشيوس. كم أنت عظيم ياكونفوشيوس .

واننا ما أردنا بتوضيح هذه النماذج من صور الفكر البشرى التى تعاقبت فى الحقب السالفة إلا أن نبين للقارىء أن العقل البشرى لم ينضب معينه ومع

عظمة عطائه لم يصل إلى الحقيقة التى تسمو به كإنسان يعرف لخالقه قدره ولأنبياءه منزلتهم. لأنه مهما كان فهو لن يعرف عن العالم غير المرئى إلا ما عرفه به الخالق جل جلاله وسمت صفاته. وتقدست أسماؤه بواسطة رسله الأكرمين. ولأنبيائه المرسلين الذين تلقوا وحى الله وقاموا بتبليغه كما نزل عليهم.

والآن وقد تبين لنا من هذه السياحة التاريخية أن الفكر الإنسانى لم يستطع أن يسعد العالم ولا أن يحقق الأمن المنشود. لأن الفكر الإنسانى مهما بلغ من النضج لا يستطيع أن يؤصل السعادة فى نفوس الأشخاص. والذى يحقق ذلك هو وحى الله الذى يحيى النفوس وينير البصائر ويهدى للتى هى احسن، وسيدنا محمد "صلى الله عليه وسلم" هو خاتم الأنبياء والمرسلين. وقد نزل عليه القرآن ليكون منارة عالية يهتدى على ضوئها الحيارى وصدق الله "هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله"[1]، والنبى محمد "صلى الله عليه وسلم" كان قمة فى الأخلاق، وقمة فى الفضائل الإنسانية. لإنه يجسد تعاليم الإسلام وستبقى سيرته وسنته حية فى قلوب اتباعه إلى أن تقوم الساعة، ونحن هنا نتعرض لعالمية الإسلام، أما السيرة النبوية الشريفة فلها جزء آخر إن شاء الله.

---

(١) الآية – ٢٨ من سورة الفتح

إن الدين الإسلامي الذي حمل لواءه سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) ودعا الناس جميعا إليه ليؤمنوا به، ويتمسكوا بتعاليمه، ويسيروا على هديه، لتكون حياتهم أسعد، ومعيشتهم أرغد، ومستقبلهم أزهر، وآخرتهم فلاح ونجاح هو من عند الله، بعث به النبي محمدا (صلى الله عليه وسلم) ليكون للعالمين نذيرا ... ولقد أقام الإسلام نظامه على أساس أن الإنسانية وحدة واحدة، لا يفرق بينهم جنس ولا لون.

ومن هنا: دعاهم جميعا إلى الإيمان بالله الواحد، وبلغ الناس أنه رسولهم.. ولقد كان العالم الذي واجهه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في القرنين الخامس والسادس الميلادي تضافرت عليه ظروف قاسية، فالناس عبدوا ما شاءت لهم شياطينهم.. فالشمس سجدوا لها.. والنار قدسوها.. والحيوان ألّهوه.. والمجتمع آنذاك ليس به نوازع عطف تؤلف بين سكانه.. فالقوي يأكل الضعيف، والغنيُّ يستبد بالفقير، وقد ترك الناس دعوات الرسل السابقة، وألقوا بما جاءهم به بعيدا عن أذهانهم، وصوروا لأنفسهم نظماً وأوضاعاً تلائم ما يرضي نزواتهم وأهوائهم، وأمام هذا الاضطراب العقائدي والتفسخ الإجتماعي، كان العالم أجمع في حاجة إلى رسالة شاملة، لتصلح أمره، ودين يقود المجتمع إلى ساحات الحق والعدل والمساواة، وليس هناك أعظم من رسالة السماء، فهي التي ترسم علاجا ناجحا لجميع المشكلات الإنسانية.. ولقد حسمت هذه الرسالة كل أمر في أية مشكلة دون مجاملة لطائفة على حساب طائفة، وجاءت الرسالة الإسلامية تعلن أنها عالمية وللناس جميعا، وليس بعدها رسالة سماوية، لأن الدين قد اكتمل بنزول الإسلام، وهنا يقول الحق سبحانه: " اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً "[1].

(١) من الآية رقم ٣ من سورة المائدة.

ومن المعروف أن وحى الله قبل الإسلام كان يتخير بقاعاً من الأرض لينزل فيها. كما ينزل الغيث فى مكان دون آخر.. يقول الله تعالى: "وإن من أمه إلا خلا فيها نذير"[1]... كما أنه لم يقل أحدٌ من النبيين السابقين أنه أرسل إلى الناس كافة. وإنما أعلن كل نبىٍّ أنه جاء لقومه فقط. وأنه سيأتى من بعده نبىٌّ يكون دينه للبشرية جمعاء.. وعندما جاء النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) أعلن عن نفسه بأنه جاء متمما للأنبياء. وأن ما نزل عليه من وحى السماء هو ناسخ لجميع الأديان التى سبقته. لأن تلك الأديان قد استنفدت أغراضها وأدت ما عليها من هداية لونٍ من الناس إلى لونٍ من الحياة.. والبشرية عند بعث النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) كانت قد بلغت رشدها ولابد لها من نظام رشيد يلائم مقتضيات أحوالها.. لأجل هذا جاء محمدٌ (صلى الله عليه وسلم) يدعو إلى الإسلام ويبشرُ بِه..

وهذا الدين الذى حمل لواءه (صلى الله عليه وسلم) له من الأسس والدعائم ما يصح أن ترتكز عليه سعادة البشرية كلها إلى أن تنتهى الدنيا، لأنه الدين الخاتم.. والنبى محمدٌ (صلى الله عليه وسلم) لم يكن رجلاً إقليميا. ولا زعيما وطنيا فى بيئة معينة محدودة – ولم يكن من عامة المصلحين الذين يأتون البيوت من ظهورها. أو يتسللون إليها من نوافذها ويكافحون بعض الأدواء الإجتماعية. والعيوب الخلقية.. لكن النبى (ص) حمل دعوة عالمية وصاح فى الإنسانية بأسرها" فأين تذهبون. إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم."[2]. ويتلو على الدنيا ما نزل عليه من ربه :"وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون."[3]. ويردد على مسامعهم وحى السماء " وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين "[4].. وكذلك قول الله سبحانه : "تبارك الذي نزل الفرقان على

(١) من الآية رقم ٢٤ من سورة فاطر. (٢) الآيات من ٢٦ إلى ٢٨ من سورة التكوير.
(٣) الآية رقم ٢٨ من سورة سبأ. (٤) الآية رقم ١٠٧ من سورة الأنبياء.

عبده ليكون للعالمين نذيرا"[1] وقوله سبحانه: "وأوحيَ إليَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ"[2] وقوله أيضا: "وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين. وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين"[3].... واليقظة الإنسانية التى بدأت فى الجزيرة العربية لم تكن نهضة جنس متفوق. ولا أطماع زعيم متطلع.. وإنما جاء ذلك عن طريق الناموس الذى أنزله الله على موسى. وتحمل محمد (صلى الله عليه وسلم) مسئولية التبليغ به وكل مهمته أن يربط البشر بالله الواحد. وأن يجعل عبادة المخلوق للخالق حسبما جاء فى وحى السماء "كتابٌ أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد. الله الذى له ما فى السموات ومافى الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد."[4] لقد رفض النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يكون للعرْقِ أو اللون.أو الجنس. أو القوة أى رجحان فى موازين الكرامة الإنسانية. لأن الانتماء إلى الإسلام. والولاء لله الواحد. "وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدلُ لكلماته"[5]. ولقد ربىَّ الله النبىَّ محمدا (صلى الله عليه وسلم) على الخلق العالى والأدب الرفيع. وقام هذا النبى العظيم بتربية العرب الذين التفُّوا من حوله. وأخلصوا له. ودافعوا عن دعوته. وكان هؤلاء العرب جسورا موصلَةً لهدايات السماء إلى الناس. وعلموُا الخلق ما تعلموه من الخالق.. فمحمدٌ (صلى الله عليه وسلم) بهذا هو للعالم أجمع. وليس للعرب خاصة. ولكن لأن محمدا (صلى الله عليه وسلم) من العرب. وقد نزل القرآن بلغتهم. فقد كلفوا بنقل رسالته إلى غيرهم. ووجب على بعضهم أن يتقنوا كل اللغات العالمية واللهجات المحلية ليستطيعوا تبليغ الرسالة إلى جميع الآفاق. يقول الله سبحانه:"وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم"[6]. ولن يقدح فى رسالته أنها نزلت بلغة العرب فقط. وإنما ذلك لأنهم عاشوا أحرارا لم يستعبدهم غيرهم. وكانت لغتهم أسهل وأفصح وأبلغ ولها الهيمنة على جميع اللغات العالمية آنذاك.

---

(١) الآية رقم ١ من سورة الفرقان. (٢) من الآية رقم ١٩ من سورة الأنعام.

(٣) الآية رقم ١٠٣ . ١٠٤ من سورة يوسف. (٤) الآيتان رقم ١ . ٢ من سورة ابراهيم

(٥) الآية رقم ١١٥ من سورة الأنعام . (٦) الآية رقم ٤ من سورة ابراهيم .

ولما كان القرآن هو المعجزة الخالدة الخاتمة التى يتحدى بها رسول الله العرب ومن بعدهم حتى تقوم الساعة كان ولا بد أن يكون بلغة العرب الذين هم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان. لتكون المعجزة من نفس ما نبغوا فيه.. ومع ذلك فإن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد دعا العرب إلى تعلم اللغات واللهجات العالمية مؤسسا ذلك على عالمية الإسلام وخلوده وأن التبليغ يجب أن يتفق مع لغة المخاطبين. ثم هو قد دفع " بزيد بن ثابت" ليتعلم اللغات الحيَّة فى عصره حتى يتمكن من الترجمة لما فى كتب القوم. ولعل ذلك أكبر شاهد على ما نقول.. وقد قامت دولة الإسلام بدورها العالمى فى عهد النبوة المشرق. وأيام الخلافة الرشيدة. وتدافع التيار إلى مداه أيام الأمويين والعباسيين والعثمانيين. وكان هناك من أهل الأرض "الرُّوم" غربىّ الجزيرة العربية وشمالها. ومع ثقافتهم ومالهم من حضارة ، لكنهم رحَّبُوا بالإسلام، لأنهم رأوا أن معانيه تتفق مع مقتضيات حياتهم.. وكان الفرس فى الناحية المقابلة. وهم كذلك أقبلوا على الإسلام يؤمنون به، لأنهم وجدوا فيه الخلاص لأنفسهم.. وحاكم "مصر" ونجاشىُّ الحبشة ". والأمراء الذين ينتشرون حول الجزيرة العربية.. كل هؤلاء خاطبهم النبىُّ (صلى الله عليه وسلم) ودعاهم. لإنه يؤمن بعالمية دعوته. وأن الناس جميعا مطالبون أن يؤمنوا بها بعد أن يستمعوا إليها.. ولقد أخبر النبى (صلى الله عليه وسلم) الإنسانيةبأسرها فى القارات الخمس أنه خاتم النبيين. وأن طارقا من السماء لن ينزل برسالة بعد رسالته إلى أن تقوم الساعة. ولن يجيىء نبىٌّ من عند الله بعده. وسيبقى كتاب الله الذى نزل على محمدٍ وحده هو صوت السماء بين الناس إلى أن تقوم القيامة.

يقول الله تبارك وتعالى :"ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين"(١). وخَتْمُ النبوَّةِ تقرير لهذه العالمية.

---

(١) الآية رقم ٤٠ من سورة الأحزاب .

قال الإمام "ابن كثير" عند قوله تعالى:" خاتم النبيين ". إنه لا نبى بعده. ليعلموا أن كل من ادَّعى هذا المقام بعده فهو كذَّابٌ أفَّاكٌ. دجَّالٌ. مضلٌّ" اهـ. وقال الالوسى فى تفسيره:" وكونه (صلى الله عليه وسلم) خاتم النبيين. مما نطق به الكتاب. وصدعت به السنَّةُ. وأجمعت عليه الأمه. فيكفر مُدَّعِى خلافه "اهـ. وقد جاء فى قوله تعالى:"وخاتم النبيين " أى آخرهم ليس بعده نبىٌّ .. وجاء فى كلمة (خاتم) قراءتان – فتح التاء وكسرها – فبالفتح بمعنى الزينة مأخوذ من الخاتم الذى هو زينته للابسه. وبالكسر إسم فاعل بمعنى آخر. وأصح ما قيل فى ذلك سواء كان بفتح التاء أو كسرها – ما قاله صاحبُ "اللسان": المقصود به آخرهم. وهو محمد (صلى الله عليه وسلم) خاتم النبيين. وقال "ابن سيِّده " فى كتاب " المحكم". وختام القوم وخاتمهم. وخاتِمهم آخرهم – وفى التنزيل :" ولكن رسول الله وخاتم النبيين " أى آخرهم. وقال الأزهرى : فى كتابه " التهذيب " "خاتم كل شىء آخره". وقوله تعالى: "رسول الله وخاتم النبيين " معناه: آخر النبيين.. وقد اتفق علماء التفسير وعلماء اللغة على أن "خاتم" فى الآية بمعنى آخر.

ويسوقون من شواهد هذه الآية. ومن أراد صرف "خاتم النبيين" عن معنى "آخر النبيين " إلى معنى " أفضل النبيين ". فعليه بإقامة شاهد أو نقل كلمة عن بعض علماء اللغة تَدُلُّ على أن وصف الرجل بكونه خاتما لقوم يقصد منه أنه أفضلهم أو سيدهم. ويؤيد ذلك ما جاء فى قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذى رواه الإمام أحمد :" أعطيت خمساً لم يعطهن نبىٌّ قبلى، ولا أقول فخرا. بعثت إلى الناس كافة الأحمر والأسود. ونصرت بالرعب مسيرة شهر. وأحلت لى الغنائم ولم تحلَّ لأحد قبلى. وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا. وأعطيت الشفاعة فأخرتها لأمتى يوم القيامة فهى لمن لا يشرك بالله شيئا". وروى الترمذى

(١) الآية – ٤٠ من سورة الأحزاب.

أن النبى (صلى الله عليه وسلم) قال: "مثلى فى النبيين كمثل رجل بنى دارا فأحسنها وأكملها وترك فيها موضع لبنة لم يضعها. فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ويقولون: لو تم موضع هذه اللبنة ؟ فأنا فى النبيين موضع تلك اللبنة". كما روى أيضا أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: "إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدى ولا نبى". وجاء فى الصحيحين قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم): "إن لى أسماء أنا محمدٌ وأنا أحمدٌ وأنا الماحى الذى يمحو الله تعالى به الكفر. وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى. وأنا العاقب الذى ليس بعده نبىٌّ"..

قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن أسحاق حدثنا بن لهيعة عن عبيد الله بن هبيرة عن عبد الرحمن بن جبير قال : سمعت عبيد الله بن عمرو يقول :"خرج علينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كالمودّع فقال :" أنا محمدٌ النبىُ الأمىٌّ ثلاثا ولا نبى بعدى وأوتيت فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه. وعلمت كم خزنة النار وحملة العرش. وتجوز بى. وعرفت أمتى. فاسمعوا وأطيعوا مادمت فيكم. فإذا ذهب بى فعليكم بكتاب الله تعالى . أحلُّوا حلاله وحرموا حرامه"..

وروى سعيد بن أبى عروة عن قتادة عن الحسن عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال فى قوله تعالى :"وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح -الآية ٧ الأحزاب- كنت أول النبيين فى الخلق. وآخرهم فى البعث فبدأ بى قبلهم ".. إن الإسلام ينادى بأن الناس جميعا من كل جنس ومن كل لون ومن كل قطر أمة واحدة " كان الناس أمةً واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه."[١]

وقد كان الله يبعث المبشرين والمنذرين إلى جميع الأمم كما يقول سبحانه: "ولكل قوم هادٍ "[٢]. وقوله :"ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت "[٣]. فالإله واحد. والإنسانية واحدة. وهذا هو صمام الأمن

(١) الآية ٢١٣ من سورة البقرة (٢) من الآية رقم ٧ من سورة الرعد.
(٣) الآية ٣٦ من سورة النحل.

للمشاعر الإنسانية التى يشقيها ويقلقها أن تحسّ بانفصام الرابطة بينها لأسباب عارضة كان من المحتمل أن لا تكون .. إن فى وحدانية الله توحيد لاتجاه الإنسانية كلها نحو خالقها. ومن هنا يحدث الاستقرار النفسى الذى تنشده البشرية السعيده.. والدين هو الكفيل باستقرار نفوس البشرية واطمئنانها وتوحيد أهدافها وغاياتها. ثم إذا كانت الإنسانية فى مسارها الطويل جاءها الأنبياء والمرسلون المحليُّون. فقد حلَّ الرسول العالمىُّ محل الرسول المحلىُّ لأن بعث رسول إلى كل أمة هو الخطوة الأولى. وقد بشر كل نبى بالنبى محمد (صلى الله عليه وسلم) وقد أخبر القرآن عن ذلك وهو الكتاب المهيمن على الكتب السابقة. المصدق لها "وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة. ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم. لتؤمنن به ولتنصرنه. قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى. قالوا أقررنا. قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين".[1]. وهذه الآية تقرر بوضوح: أن الدين عند الله واحد. وهو ماكان عليه ابراهيم وسائر النبيين الذين اختارهم الله واصطفاهم بالرسالة إلى أممهم. كما تقرر كذلك رسالة سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) وتوجب الإيمان به وتصديقه. وقد أخذ الله تعالى الميثاق على جميع النبيين وعلى أتباعهم بأن ما يتنزل عليهم من كتاب وإن عظم أمره. فالواجب عليهم أن يؤمنوا بمن يأتى بعده من رسل مصدقا لما معهم وأن ينصروه.

شريعة ناسخة

إن من أقوى الأدلة على عالمية الدعوة الإسلامية وأن سيدنا محمد ا هو خاتم النبيين – أن أمر الله نبيه أن يوجه خطابه ودعوته إلى الناس أو إلى العالمين – فكان يقول:"ياأيها الناس إنى رسول الله اليكم جميعا".[2]، ويقول الله تعالى: "ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون".[3]

(١) الآية ٨١ من سورة آل عمران.
(٢) من الآية رقم ١٥٨ من سورة الأعراف.
(٣) الآية رقم ٢١ من سورة البقرة .

وقد أكدَّ وحى السماء عموم الرسالة كذلك فى قوله سبحانه : " إن هو إلا ذكر للعالمين ".[1]. ونلحظ أنه فى بيان دعوات الأنبياء السابقين أكدَّ على أنهم محليُّون لقومهم فكان يوجه الخطاب إلى النبى بأن يكون خطابه ودعوته إلى قومه فقط. فيقول سبحانه عن "نوح": "لقد أرسلنا نوحا إلى قومه".[2] ويقول فى آية أخرى:"إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك ".[3] وفى الحديث عن نبى الله شعيب الذى بعثه الله ليعالج الخلل الإجتماعى الذى استشرى فى قومه وبخاصة فى البيع والشراء : " وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره "[4] وسيدنا "هود" الذى بعثه الله ليرشد قومه إلى مكارم الأخلاق ويذكرهم بنعمة الله عليهم. وأنه سبحانه زادهم فى الخلق بسطة فقال عنه : "وإلى عادٍ أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره "[5] وسيدنا "صالح" الذى بعثه الله إلى قومه ليعالج الترف المادى الذى أصابهم بالغرور عندما بنوا العمارات. وملكوا زمام الصناعة. واستغلوا كل ذلك فى الإفساد فى الأرض. واستكبارا على عباد الله. فقال لقومه كما يقول القرآن:" وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ".[6] "وموسى" عليه السلام بعثه الله ليخرج قومه من الظلمات إلى النور ومن ذلَّ العبودية للبشر إلى عز العبودية لله فقال:" ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور".[7] وعيسى عليه السلام أرسل إلى بنى إسرائيل كما جاء عنه فى القرآن الكريم: "ورسولا إلى بنى اسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم ".[8].. والقرآن الكريم أصدق كتاب يتحدث عن الأنبياء السابقين. على أنهم أصحاب رسالة

(١) الآية رقم ٢٧ من سورة التكوير.
(٢) من الآية رقم ٥٩ من سورة الأعراف.
(٣) الآية رقم ١ من سورة نوح.
(٤) الآية رقم ٨٤ من سورة هود
(٥) الآية رقم ٥٠ من سورة هود.
(٦) الآية رقم ٦١ من صورة هود.
(٧) الآية رقم ٥ من سورة ابراهيم.
(٨) من الآية رقم ٤٩ من سورة آل عمران

حملوها بأمانة وبلغوها بصدق.. وكُلِف النبى "محمد" الخاتم لهم. والذى مشى على أعقابهم أن يؤمن بنبوتهم. ويصدق برسالتهم. لأنه متمم لهم .. شريعته ناسخة لشرائعهم. وفى هذا يقول الله سبحانه :" وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهوائهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا"(١). وطبيعى أن تستوعب الرسالة الخاتمة أصول الرسالات السابقة وتتحدث عن رجالاتها. وتعد الإيمان بهم أصلاً فى الإيمان بها " آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله . وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير"(٢). ذلك لأنهم جميعا يأخذون من مشكاة واحدة – ويدعون إلى عبادة إله واحد. "وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون"(٣) ويقول فى آية أخرى:" ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك"(٤)... إن الدعوة التى دعا إليها الأنبياء جميعا هى من قبل ومن بعد الاعتراف بالخالق.. والضوابط الكاملة للسلوك الإنسانى. وتقرير الحقوق والواجبات. والبرُّ بالمخلوق.. إن هذه الدعوة دين الله الذى ارتضاه للعالمين تمكينا لخلافتهم فى الأرض. وتيسيرا لضروراتهم ووفاء بحقوقهم. ورعاية لشئونهم. وحماية لوحدتهم. وتكريما لإنسانيتهم وإشاعة للحق والعدل فيما بينهم. يقول الله سبحانه :"فلذلك فادع واستقم كما أمرت. ولا تتبع أهوائهم. وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم . الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم. لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير "(٥).. إن بنيان الدعوة إلى الحق

---

(١) الآية رقم ٤٨ من سورة المائدة. (٢) الآية رقم ٢٨٥ من سورة البقرة.

(٣) الآية رقم ٢٥ من سورة الأنبياء (٤) الآية رقم ٦٥ من سورة الزمر

(٥) الآية رقم ١٥ من سورة الشورى

والعدل وعبادة الله الواحد. عملت فيه أيدى الأنبياء جميعا " شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك. وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه "[١]. لذلك أنكر الإسلام على الذين يفرقون بين الأنبياء. لأن التفرقة فى الدين من صنع الأهواء والشهوات والأنبياء جميعا يبرأون من هذه التفرقة. يقول الله سبحانه: " إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيىء. إنما أمرهم إلى الله. ثم ينبؤهم بما كانوا يفعلون "[٢]. والإسلام وهو يقرر هذا وينكر الإنحراف بالعقيدة إنما يردُّ الإنسانية إلى وحدة صادقة فى ظل توحيد صادق. والقرآن الكريم والكتب المقدسة يقررون على ألسنة الرسل جميعا أنهم دعاة إلى الله وحده. وأنهم ما طلبوا من أقوامهم إلا أن يعبدوا الله الذى لا إله إلا هو. وهو الذى يستحق العبادة. لأنه الخالق الرازق الذى لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى. وليس كمثله شيىء.. إن السلام بين الناس فى الحياة الدنيا ينحصر فى صحة العقيدة بالله الواحد.. والإسلام يطلب الإيمان بالله. لأن فى الإيمان به صيانة للإنسان. وتقديسا لكرامته واحتراما لملكاته ومواهبه. وابرازا لخصائصه النفسية التى تزود الشخص بمبادىء الخير والرشد... من كل هذا يتبين. أن القرآن الكريم هو الكتاب المهيمن الذى حوى كل ما فى الكتب السابقة. واحترم الأنبياء السابقين وقرر أن شرائعهم أدت دورها فى إرشاد الناس. وأن المؤمنين بتلك الرسالات نصرهم الله ونجاهم من العذاب الأليم. وأن الذين عاندوا الرسل وكذبوهم. وأنكروا رسالتهم حلّ بهم العذاب والخزى فى الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وأشدُّ لو كانوا يعلمون: " ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشرُهُ يوم القيامة أعمى. قال ربِّ لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا.

---

(١) الآية رقم ١٣ من سورة الشورى (٢) الآية رقم ١٥٩ من سورة الأنعام.

قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى. وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشدُّ وأبقى "[1]. إن القرآن الكريم منهاج حياة المسلم. وهذا المنهاج مبرأ من نتائج الهوى الإنسانى. لأن تشريعاته للإنسانية كلها فى كل زمان ومكان. قال الحق سبحانه :" الم الله لا إله إلا هو الحىُّ القيوم. نزّل عليك الكتاب بالحق مصدّقا لما بين يديه. وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان. إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديدٌ والله عزيز ذو انتقام "[2].

وتبين أن شريعة الإسلام ناسخة لكل الشرائع السابقة لما يأتى :-

١- لما حوته من تشريعات تضمن قيام الإنسانية كلها تحت لواء واحد ..لا مكان لعصبية أو اختلاف لون أو فرقة جنس. بل الكل تحت لواء الإسلام ورايته سواء.

٢ - إن الإسلام جاء إلى العالم وفيه ألوان من العصبية القبلية. وعصبية العشيرة وعصبية اللون. وعصبية الجنس. فإذا به يرفع راية ينادى على الإنسانية كلها أن تنطوى تحت لوائها. وشعارها: المساواة بين الناس جميعا "يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم "[3].. إن ميزة الإنسان ليست فى لونه وانتسابه إلى عشيرة معينة. فليس للوراثة أو الجنس أو اللون أى ميزة إذا كان الإنسان تافهاً ناقص العقل. خامل الذكر. ضيَّعَ نفسه وأهدر كرامته ولم يعبد ربه ولذلك صاح الشاعر القديم وهو يقول :

أبى الإسلام لا أب لى سواه ..... إذا افتخروا بقيس أو تميم.

---

(١) الآيات من ١٢٤ إلى ١٢٧ من سورة طه (٢) الآيات من ١ إلى ٤ من سورة آل عمران.

(٣) الآية رقم ١٣ من سورة الحجرات .

والإسلام لم يقم هذا المبدأ على أسس نظرية فقط. وإنما حولها إلى أوضاع عملية فالذين كانوا حول النبى (صلى الله عليه وسلم) : أبو بكر العربى: وبلال الحبشى:وصهيب الرومى وسلمان الفارسى: الفقير والغنى: العبيد والسادة: الرجل والمرأة. ولقد سوًى بينهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى الحب والعطاء. كما سوّت بينهم العبادات والتشريعات. فكل له حق : وعليه واجب .. ولقد انتشر الإسلام فى رقعة من الأرض فسيحة تكاد تضم جميع الأجناس. وجميع الألوان. وذابت كلها فى النظام الإسلامى. وبلغ كل شخص إلى ما يؤهله استعداده الفطرى وقدراته الشخصية. فى المكان الذى يستحقه. ومنذ جاء الإسلام والإنسان قد ولد من جديد فى ظل المنهج الإسلامى العالمى وأصبح بنفسه وعمله على الله كريما وفى مجتمعه محترما . فهذا أسامه بن زيد رغم أن أباه كان عبدا . ومع كونه حديث السن لم يتجاوز العشرين عاما . فقد ولاه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قيادة جيش كبير وفى القوم من هم أكبر سناً وأفضل سبقا إلى الإسلام ..

لذلك قال أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) عندما تولى الخلافة: " أيها الناس إنّى وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى. وإن أسأت فقوموني. أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم ". ثم هذا التيار التحررى الذى أطلقه الإسلام فى ضمائر الناس وحياتهم مما دفع قبطى يشكو " عمروبن العاص " والى "مصر " إلى أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب " الحاكم العام. ذلك لأن ابن عمرو ضرب ابن هذا القبطى – الذى مازال على دينه – فقال عمرُ لعمرو كلمته المشهورة " متى استعبدتم الناس. وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ". ولطالما جلد الرومان ظهور سكان مصر بالسياط. ولعل هذا القبطى كان على ظهره آثار بعض تلك السياط. لكن الإسلام أنسى هذا القبطى سياط الرومان. وأطلق لسانه حراً كريما فى ظل منهج ربانى يحكم بالعدل ويسوى بين الناس فى أى وطن. وعلى أية ملة بالحق والعدل. وصدق الله العظيم

"ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما. فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا "[1]. وقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) :" الناس سواسية كأسنان المشط. لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ". وقوله :" أيها الناس إن ربكم واحد. وإن أباكم واحد لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى. كلكم لآدم وآدم من تراب. إن اكرمكم عند الله أتقاكم ".

إن هذه المساواة فى الإنسانية تستلزم المساواة فى الحقوق. فالناس جميعا أمام قانون الله سواء. لا فرق بين عظيم وحقير. وغنى وفقير. لأن الحق أساس هذا الدين. والعدل سياجه. وما أجمل الإنصاف وأنت تسمع من فم الصادق الأمين:" إنما أهلك من كان قبلكم. أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه. وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ. وأيم الله. لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمدٌ يدها ". وهو يقول كذلك:" أيها الناس من كنت أخذت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه. ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضى فليشتمه. ومن كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فليأخذ حقه ولا يخشى الشحناء فإنها ليست من طبعى ". الله أكبر. ما أعظم هذه المبادىء الإنسانية التى تتفق وفطرة الشخص.. فتكافؤ الفرص وظروف المعيشة. والكسب الحلال. كل ذلك متاح للجميع.. أليس من العدل أن ينجح هذا ويرسب ذاك. بعد تهيئة الفرص لكليهما.. والمساواة فى النتيجة بينهما ظلم يفوت على الإنسانية الاستفادة بالكفاءات. إن المهمل لا بد أن يلقى جزاء إهماله. والمجدّ لا بد وأن يأخذ حقه.. وهذا جهدٌ يبذل. فمن جدَّ وجد. ومن زرع حصد. وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:" من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون"[2]. لأن كل حق يقابله واجب.

(١) الآية رقم ١٣٥ من سورة النساء (٢) الآية رقم ٩٧ من سورة النحل.

إننا نطالب بحرية الإنسان على أوسع مدى. لكن هذه الحرية مقيدة بالحقوق والواجبات. فمن حقك أن تلوح بيدك فى الهواء. لكن لا تمس بها أنف غيرك من الناس. وحرية الإنسان فى الإسلام منشؤها: انتفاء العبودية لغير الله. بعد تحرير النفس من رق الهوى واستذلال الشهوة. وتحرير العقل من الوهم والشك. وتطهير القلب من مرض النفاق. وكل ذلك قرره الإسلام بأول نداء له "لا إله إلا الله". وبهذا النداء ارتفعت رؤوس طالما ذلت لحجر. وخضعت لبشر. وضعفت للشهوة .. بهذا النداء تحرر العقل من الوهم. وتحرر القلب من الشك. حتى فى العقيدة: لا إكراه فالحق يقول:" وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن. ومن شاء فليكفر"[1]. ويقول:" لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى"[2].

وليس هناك دين أفاض فى تقرير هذه الحقوق كما أفاض الإسلام " ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا "[3]. حق الإنسان فى التملك : حقُّهُ فى طلب العلم. وكل ذلك وغيره كفله الإسلام فى حدود الحق والعدل. إذ بهما تصان الحقوق. ويطيب الكسب وفى ظلهما يمكن رعاية المصلحة العامة وتقدير شأنها.. لقد سمع الرسول (صلى الله عليه وسلم) كلمه من رجل أبيض يقول لرجل أسود " يابن السوداء " فغضب وقال:" أتعيِّرهُ بلون أمه إنك أمرؤ فيك جاهلية. دعها فإنها منتنة " ذلك لأنه عيَّره بشيىء ليس من كسب يده وهذا لا يليق.. والإسلام وهو يمنح الإنسان تلك الحرية يقول له : عليك واجبات..

أ- وأول هذه الواجبات :

لنفسك أنت. فهى أمانة لديك. عليك أن تصونها بالرعاية والحفظ. ولا تفرط

---

(١) الآية رقم ٢٩ من سورة الكهف. (٢) من الآية رقم ٢٥٦ من سورة البقرة.

(٣) الآية رقم ٧٠ من سورة الإسراء.

فيها وأن لا تتصرف فيها بسوء لأن نفسك ملك لله سبحانه وتعالى .. ومن هنا: كان النبى (صلى الله عليه وسلم) لا يصلى على من قتل نفسه – أى انتحر – ذلك لأنه إنسان فاشل ليس لديه قوة إرادة. ولا صلابة عزيمة. وكل تلك الصفات يكتسبها الإنسان من أداء العبادات. ولذلك فإن من انتحر بأى شيىء يضرب به أبدا. ففى الحديث الذى رواه البخارى أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: " من تردَّى من جبل فقتل نفسه فهو فى نار جهنم يتردى فيها خالدا مخلدا أبدا. ومن تحسَّى سُمّاً فقتل نفسه. فسُمُّهُ فى يده يتحساه فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا. ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يجؤ بها بطنه فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا ". لذلك طالب الإسلام بإعداد الفرد من كل نواحيه اعدادا يؤهله لرسالة الله. ويحمله أمانة النفس. ويأمره بالسعى على الرزق المادى والروحى كما يسعى إلى الصلاة. لأن كليهما عبادة يتقرب الشخص بها إلى الله ففى الحديث" من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفورا له ". وذلك إذا كان السعى محدودا بحدود الأخلاق ورعاية الحقوق.

ب – **وثانيا** : واجب الشخص نحو ربّه. وذلك بأداء العبادات التى هى فرض يؤديه الإنسان تقربا إلى الله. ثم هى عنوان ولاء للخالق الذى يطلب المخلوق عونه. والواجب لله يرتبط بالواجب عليك لنفسك. لأن عليك أن تحصن نفسك. وتصونها من الشك والحيرة فى مجال العقيدة وأن يسعى الإنسان لتحصيل العلم النافع الذى ترفع به منزلته فى المجتمع. " يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات "[1].

ج -- **وثالثا**: واجب الشخص نحو مجتمعه سواء كان عاماً كالحفاظ على المال العام والقيام بأداء الواجب عليه دون تهرب. أم كان خاصا: ويبدأ ذلك من

---

(١) الآية رقم ١١ من سورة المجادلة.

تكوين الأسرة والقيام برعايتها . والإنفاق عليها . وجلب الكسب الطيب لها . والعشرة الطيبة معها . إذا أحسن المؤمن تربية شخصيته وعرف قيمة نفسه لم يقع فى العالم إلا ما يرضاه الله " لأن المؤمن القوى هو بنفسه قضاء الله الغالب وقدره الذى لا يرد " كما يقول "شاعر الإسلام محمد إقبال": " إن واجب المسلم أن يكون فاهما للصالح العام. وأن يجند نفسه له. ويتفاعل مع شئون أمته. ويذود عن حياض مجتمعه. ويدافع عن كيانه ويصونه ويرعاه بالسلوك الطيب. والعمل الصالح. متجردا فى ذلك كله للحق والعدل. وابتغاء مرضاة الله. ووطن المسلم كل شبر فى الأرض يقال فيه " لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله ".

٢ – وفاء الإسلام بحاجة الإنسانية فيما يصون وحدتها . ويرعى إنسانيتها ويحمى أفرادها فى العاجل والآجل .... والحق أن كل شيىء فى الإسلام يفى بحاجات الإنسان. ويلبى مطالبه. فالعقيدة التى فى قلبه تحقق وحدة الإنسانية فى القصد والسلوك. فالإنسان يرى الله أينما توجه "فأينما تولوا فثم وجه الله"(١). وهو يخشى الله فى السر والعلن " لله ما فى السموات وما فى الأرض. وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيىء قدير "(٢). ولا شيىء يحصن الفرد من غوائل الهوى ودوافع الشهوة مثل العقيدة "الإيمان بالله" فالشخص صاحب العقيدة يرى الله فى سعيه. ويخشاه فى سره وعلانيته ولا شيىء يصون السلوك ويحفظ السعى. ويوقظ الضمير مثل معرفة الله. فالعبادات التى فرضها الإسلام متصلة بالعقيدة. وتنمى العواطف الطيبة. فالصلاة والصيام والزكاة. والحج كلها تنمية للعواطف. وإيقاظ للضمير وتهذيب للسلوك .. ثم هذه العبادات تقيم المودة بين الناس. وتحقق رقابة الضمير على سلوك الشخص الفردى والإجتماعى. والبر بالوالدين والإحسان

---

(١) الآية رقم ١١٥ من سورة البقرة. (٢) الآية رقم ٢٨٤ من سورة البقرة.

إليهما. ورعاية حقوق الجوار وكفالة اليتيم. وإغاثة الملهوف وردّ الحقوق إلى أصحابها. والنهى عن قبول الرشوة. أو شرب المسكرات أو قذف المحصنات. أو ارتكاب الفواحش والبعد عن كل ذلك يقيم المجتمع الفاضل. ويؤسس الحضارة الزاهرة. وكلها من آدب الإسلام. ولو أن المسلمين تمسكوا بآداب الإسلام وفضائله الواجبة والمندوبة وابتعدوا عن ما يقابلها من رذائل ومحرمات ومكروهات. لدانت لهم الدنيا كما دانت لاسلافهم من قبل " ولينصرن الله من ينصره"[1] ." إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور"[2]. ثم هناك القواعد التشريعية التى تلائم كل زمان ومكان وبيئة ومجتمع. فالأصول التى تقوم عليها الشريعة هى :-

١ – الكتاب : وهو القرآن الكريم.

٢ – السنة: وهى أقوال وأفعال وتقارير السيد الرسول محمدً (صلى الله عليه وسلم).

٣ – الإجماع : أى إجماع أهل الحل والعقد. والمقصود بذلك : اتفاق الأئمة على رأى لا يخالف نصاً صريحا.

٤ – القياس : وهو أن يعمد المجتهد إلى حكم أمر معلوم فيثبته لأمر آخر لاشتراك الأمرين فى عِلَّةِ الحكم.

٥ – الاستصحاب : وهو ثبوت أمرٍ فى الزمن الحاضر بناء على ثبوته فيما مضى.

٦– العرف : وهو تجدُدُ النظر فى الواقعة ما تجددت العادات. وعلى المفتى دائما عند تقريره لحكم ليس له سند : مراعاة العرف السائد حتى لا يكون هناك

---

(١) من الآية رقم ٤٠ من سورة الحج. (٢) الآية رقم ٣٨ من سورة الحج.

صدام بين ما ألفه الناس والفتوى.. ولعلنا نلحظ تدرج الإسلام فى الأحكام عند نزول القرآن الكريم على سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم).

٧ - المصالح المرسلة : وهى مما قام الدليل الشرعى على رعايتها.

مثال ذلك : أن الله سبحانه حرم الخمر لأنها تتلف العقل. وإقامة الحدّ على شاربها أمرٌ ضرورى. فإذا ظهر شيىء فى المجتمع يفسد العقل. ويفعل ما تفعله الخمر لا يترددُ المفتى فى تحريمه أخذا بالدليل القائم على حفظ العقل. وكذلك سجْنُ المتهم حتى يصل الحاكم إلى الحق. وهكذا..

٨ - الاستحسان .. واستدلوا له بقول ابن مسعود " مارآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن". والمراد بالمسلمين هنا: ذوو الكفاية والعلم. وكذلك الأخذ بما يليق من محاسن العبادات وتجنب الأحوال المدنسات.

٩ - سدُّ الذرائع : قد يقع من الإنسان أقوال وأفعال قد تؤدى إلى مفسدة كالقذف الذى يلوث عرض الإنسان البرىء - أو مناولة سكين لمن يسفك دماً معصوما - فمناولة السكين لا شيىء فيها. لكنها وسيلة لسفك دم بغير حق.. فالإسلام فى تشريعه وجّه النظر إلى الوسائل التى فيها مفسدة أو توصل إليها فمنعها. لأن الوقاية خير من العلاج. والدليل على ذلك قول الله تعالى:" قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ". [1] فغض البصر حتى لا يثير الغرائز ويحرك الهوى والشهوة. وكل ذلك يدفع إلى ارتكاب الفاحشة. وهكذا نجد أن الشريعة وضعت من الإحتياطات ما يمنع وقوع الخلل فى النظام التشريعى. وجعلت ذلك يوائم التطور الإجتماعى والتقدم العلمى حتى تكون الشريعة صالحة لكل زمان ومكان. وأنها غنية بمبادئها وهذا دليل على أنها الخالدة الموجهة للعالم أجمع.

---

(١) من الآية رقم ٣٠ من سورة النور

وصدق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذ يقول: "بعثت إلى كل أحمر وأسود".
وصدق الله العظيم "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا"[1]. فإذا ما نظرنا إلى الإسلام وسماحته. وأنه لا حرج ولا إرهاق. ولا إعنات ولا مشقة. عرفنا مسايرته لطاقة الأفراد والجماعات حتى لا يكون الضيق من تعاليمه فيتأفف الناس منه وينصرفون عنه لشدته وعسره. ولكن الأمر جاء بالسماحة وفى هذا يقول الله سبحانه: "لا يكلف الله نفسا إلا وسعها"[2]. ويقول سبحانه: "وما جعل عليكم فى الدين من حرج"[3]. ويقول: "يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر"[4]. ويقول: "قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة"[5]. ويقول: "وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك. ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين"[6].. ونلحظ قلة التكاليف الشرعية وبساطتها وسهولتها فهماً وتنفيذا. وكان هذا من أسباب قبول الناس للدعوة واقبالهم على الدين .. والإسلام بهذه التشريعات بهر الغربيين وهم يدخلون فى الإسلام بين الحين والحين. ونذكر فى هذا المقام شهادة الفيلسوف الإنجليزى "برناردشو" وقد سأله قومه بعد انتهاء الحرب العالمية الثانيةعن المخرج من عودتها؟ فيقول لهم: "الإسلام هو خير علاج". وكذلك الفيلسوف الفرنسى "رينيه جينو" الذى بهره الإسلام فأسلم. ولعلنا نذكر كذلك فى العصر الحديث دكتور "جارودى". الذى مرَّ بتجارب عديدة ودراسات وقراءات وبحوث. وكانت غاية الوصول إلى الحق الذى وجده فى الإسلام. وقال قولته:

---

(١) من الآية رقم ٣ من سورة المائدة
(٢) من الآية رقم ٢٨٦ من سورة البقرة
(٣) من الآية رقم ٧٨ من سورة الحج
(٤) من الآية رقم ١٨٥ من سورة البقرة
(٥) الآية رقم ٣٢ من سورة الأعراف
(٦) الآية رقم ٧٧ من سورة القصص.

"أحب أن أقول إن انتمائي إلى الإسلام لم يأت بمحض المصادفة بل جاء بعد رحلة عناء في البحث طويلة تخللتها منعطفات كثيرة حتى وصلت إلى مرحلة اليقين الكامل. والخلود إلى العقيدة والديانة التى تمثل الاستقرار. والإسلام في نظرى هو الاستقرار" جريدة الأخبار في ١٩٨٣/٣/٢٣. ويقول في موقف آخر: "إن الإسلام دين الجمال والعقل والعمل". وهذه شهادة رجل درس وقرأ بعد ١٤٠٦ ألف واربعمائة وست سنوات من هجرة سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) مما يدل على أن الإسلام تتفاعل معه النفوس. وتهتز له القلوب وصدق الله العظيم "الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله"(١). ونذكر كذلك الحاج "اللورد هولى الفاروق" وهو "انجليزى" يقول في مقدمة إسلامه "من المحتمل أن يتصور بعض أصدقائى أنى وقعت تحت تأثير المسلمين. ولكن ذلك ليس هو السبب في تحولى إلى الإسلام. لأن اقتناعى كان حصيلة الدراسة التى دامت سنوات عديدة. ولم تبدأ مناقشاتى مع المسلمين المثقفين إلا منذ أسابيع قليلة وكم كان اغتباطى وانشراح صدرى عندما وجدت أن نظرياتى في مقدمتها ونتائجها كانت تتفق تماماً مع تعاليم الإسلام. واختيار الإنسان لهذا الدين "كما يقرر القرآن" يجب أن يكون نابعاً عن اقتناع شخصى ذاتى. ولا يمكن أن يكون بالإكراه أبدا – ثم يقول – إننى أعتقد أن هناك آلافا عديدة من الرجال والنساء مسلمون في ذات قلوبهم ولكن يمنعهم من إعلان هذه الحقيقة مراعاتهم للعرف. وخوفهم من النقد والاتهام ورغبتهم في تلافى ما يتبع إعلان هذا التحول من مشاكل " واسم هذا الحاج قبل الإسلام هو " رايت أنورابل سير رولاند جورج الانسون " ولد سنة١٨٥٢م وكان من أكبر شخصيات الأشراف البريطانية. وكان سياسيا ومؤلفا.

---

(١) الآية رقم ٢٣ من سورة الزمر.

خدم فى الجيش برتبة "كابتن". وأخيرا برتبة "لفتنانت كولونيل" فى الفرقة الرابعة مشاه فى نورث منستر وكان مهندسا. وكان يتمتع بذوق أدبى. عمل محررا لجريدة " ساليسبورى جورنال " وله مؤلفات عديدة. ص ٤٦ من كتاب " لماذا أسلم هؤلاء". وقد جاء كذلك فى كتاب " الإسلام الصحيح " " لبرناردشو" :" إنى أكن كل تقدير لدين محمد لحيويته العجيبة فهو الدين الوحيد الذى يبدو لى أنَّه له طاقة هائلة لملاءمته أوجه الحياة المتغيرة. وصالحاً لكل العصور.

لقد درست حياة هذا الرجل العجيب. وفى رأيى أنه يجب أن يسمى منقذ البشرية دون أن يكون فى ذلك عداء للمسيح. وإنى لأعتقد أنه لو أتيح لرجل مثله أن يتولى منفردا حكم هذا العالم الحديث لحالفه التوفيق فى حل جميع مشاكله بأسلوب يؤدى إلى السلام والسعادة اللذين يفتقر العالم إليهما كثيرا. وإنى أستطيع أن أتنبأ بأن العقيدة التى جاء بها محمدٌ ستلقى قبولا حسنا فى أوربا فى الغد. وقد بدأت تجد آذانا صاغية فى أوربا اليوم ".

إن الإسلام يتسم بالبساطة والقابلية للتطبيق. لأنه لا يقر الخرافة ولا المعتقدات التى تتنافى مع العقول السليمة. كما أنه ليس فى الإسلام سلطة كهنوتية. ولا أفكار مجردة. ولا طقوس معقدة.

والإسلام قبل ذلك يحترم العقل. ويحث على التفكر والتدبر والبحث عن الحقيقة. والسعى إلى المعرفة. وبهذا يتبين أن الإسلام نظام كامل للحياة. ومع ذلك فهو يقيم التوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة بيسر وسهولة.

ونلحظ أن الإسلام وهو دين عالمى لا يجيز مطلقا قيام الحواجز والمميزات بين الإنسان وأخيه الإنسان. ذلك لأنه رسالة الله إلى الجنس البشرى بأسره. وقواعد الإسلام قائمة على الثبات والتطور حتى تكون كفيلة بإيجاد التلاؤم بين

متطلبات النمو الإجتماعى. يقول الله تعالى: "وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا"[1]. وفى هذا يقول القاضى "كاردوزا": " إن أقصى ما يحتاج إليه وقتنا الحاضر. هو فلسفة وسط بين الدعاوى المتصارعة ما بين الجمود والثبات. والتطور والتقدم. لتمدَّ العالم بمبدأ يؤمِنُ نموه ". وتلك نماذج فقط تنير الطريق لمن كان له قلب به يفهم. وأذن بها يسمع. وعقل يتدبر ويتأمل ليعلم علم اليقين أن الإسلام رسالة خالدة خاتمة ليس بعدها شريعة. وأن النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) هو خاتم الأنبياء لا نبى بعده ولا رسول وصدق الله العظيم: " ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين"[2].

٣ – خصائص هذا الدين تتفق مع حقائق الكون. بحيث لا يتعارض مع ما يثبت من حقائق العلم. أو يختلف مع منطق الفكر.

إن القرآن الكريم قدم نفسه للناس فى أول سورة البقرة . بأنه الكتاب الذى لا ريب فيه . ثم قسَّم أصناف الناس إلى ثلاثة أقسام. وأعطى لكل قسم صفات ليميز الله الخبيث من الطيب. والقرآن هو كتاب رب العالمين. وتلك صفته نزل مهيمنا على جميع الكتب السابقة. وهو يحيط بشئون الحياة كلها كما يحيط بدخائل النفس البشرية. مما يمكن القول معه أن القرآن لا يمكن أبدا أن يكون لأمة دون أمة. ثم إن القرآن الكريم كتاب الكون. وعناية القرآن بالكون هى عنايته بالإنسان. إذ هو المخاطب بأن يتلو القرآن فى صفحة الوحى المسطور أو صفحة الكون المخلوق على نسق بديع فريد " تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا . وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذَّكر أو

---

(١) من الآية رقم ١٤٣ من سورة البقرة.   (٢) الآية رقم ٨٥ من سورة آل عمران.

أراد شكورا "[1]. وقوله:" أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج والأرض مددناها والقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب "[2]. وهذا الكون بما اشتمل عليه. يمدُّ الإنسان بجميع ما يحتاج إليه لحفظ كيانه. وامتداد نسله. بشىء من الملاءمة وعلى أساس من التجربة يزاولها الإنسان فى حقل الحياة التى لم يَخْلُقِ الإنسان منها أى شيىء. وإنما هو يجرب أشياء قائمة. وينتفع بمخلوقات موجودة منبثة فى الكون على نسق عجيب .

والإنسان مازال ابن أرضه. وهو يجهل الكثير من خصائصها.. إذا فكر الإنسان فى السماء جاء الردُّ من القرآن " والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون"[3]. وإذا فكر فى الأرض وما فيها أيقن أنها من صنع الله وجاءه القرآن:" والأرض فرشناها فنعم الماهدون "[4]. وإذا تأمل فيها هتف من أعماقه بأن ذلك دليل على قدرة الله.

وفى كل شيىء له آية تدلُّ على أنه الواحد

السماء تمطر فمن أين يكون الجواب ؟:" أفرأيتم الماء الذى تشربون. أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون. لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون "[5] ومن الذى ساق السحاب من هنا ومن هناك؟ يأتى الردُّ " وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلَّت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون "[6]. وتأمل وصف

---

(١) الآيتان ٦١-٦٢ من سورة الفرقان.
(٢) الآيات من رقم ٦ إلى ٨ من سورة ق.
(٣) الآية رقم ٤٧ من سورة الذاريات
(٤) الآية رقم ٤٨ من سورة الذاريات
(٥) الآيات من رقم ٦٨ إلى ٧٠ من سورة الواقعة
(٦) الآية رقم ٥٧ من سورة الأعراف.

اللقاح فى الآية "وأرسلنا الرياح لواقح"[1]. واعلم بأن كلمة لواقح ليست هى إشارة إلى أعضاء التذكير وبويضات التأنيث. ولكن ذلك إشارة إلى أثرها فى الجمع بين الموجب والسالب فى السحاب ويسمى هذا بالتلقيح الكهربى. وبهذا ندرك سرٌ قدرة الله الإلهية. لأنه : من منا كائنا من كان من الناس يستطيع أن يفعل ذلك ؟.

والقرآن الكريم يقف من الزمن موقف الأستاذية. فلا تحصره جزئية علمية. ولا تحدوه نظرة خاصة. ذلك لأنه يضع الأصول العامة ويترك التفصيلات للزمن المتجدد والفكر المتأمل.. فهو يضع أسباب العلم وخاماته. ثم يترك للأيدى العاملة. والعقول المفكرة أن تجرب وتعمل فى حدود ما رسم من إطار عام. وكفاك أن تعلم أن مادة العلم وأداته هما هبةٌ من الله. وأثر من آثار قدرته فهو يقول:" مالكم لاترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا . الم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا . وجعل الشمس سراجا . والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا "[2]. ويقول فى آية أخرى:" وهو الذى مدَّ الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا . ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون. وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون "[3]

وكل شخص يقرأ تلك الآيات يستشف منها ما يلائم منهجه. فالمزارع له رأيه. وعالم الجيولوجيا له رأيه. والفلكى له رأيه. وهكذا يمضى الحديث فى

(١) الآية – ٢٢ من سورة الحجر. (٢) الآيات من رقم ١٣ إلى ٢٠ من سورة نوح.

(٣) الآيتان رقم ٣ ، ٤ من سورة الرعد

لمحات خاطفة بين السماء والأرض . والأيام تكشف أن الإعجاز فى القرآن دائم لا تنقضى عجائبه. وصدق الله العظيم: "ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين"(١). "ما فرطنا فى الكتاب من شيىء"(٢). ولقد تقدم العلم وتطور. واكتشف الإنسان أشياء. وتوصل إلى أشياء.. طار فى الجوّ. وغاص فى البحر. وطوى البرًّ مصداق قول الحق " سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق"(٣). وقوله : " ويخلق ما لا تعلمون"(٤). والعرب لم تكن تعرف هذه النظريات. ولا تلك المخترعات لكن جاءت الإشارة إليها. فمن أين لمحمد (صلى الله عليه وسلم) علم هذه الأشياء وهو الأمي الذى لم ينل أى لون من التعليم ولم يقرأ فى كتاب مما يدل على أن هذا هو وحىُ الله الذى أوحاه إليه ليبلغه إلى الناس. كما أنه لم يخط بيمينه أى سطر. فمن أين له علم بأصول تلك النظريات التى يتحدث عنها كل عالم فى مجال تخصصه. وصدق الله العظيم :"وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لا ارتاب المبطلون"(٥). ولما كنت يامحمدُ أمياً فقد بعثت لقوم أميين. ومعجزتك الخالدة هى هذا القرآن لأنه لانبى بعدك ولا كتاب ينزل من السماء بعد القرآن الذى هو معجزتك. وإن أى كشف فى ميدان العلم التجريبى. أو التعرف على أسرار الكون. أو استخراج المختزن فى باطن الأرض. كل ذلك يجد نفسه فى ساحة القرآن جليا واضحا وإن أى علم مدين للقرآن بالفضل لأنه هو الذى أخرج العقل من ظلام الوهم وحيرة الشك إلى نور العلم.

ثم إن القرآن يجعل الإيمان بالله قائما على أساس التأمل والنظر فى آيات

---

(١) الآية رقم ٨٩ من سورة النمل — (٢) من الآية رقم ٣٨ من سورة الأنعام.

(٣) من الآية رقم ٥٣ من سورة فصلت . — (٤) من الآية رقم ٨ من سورة النمل

(٥) الآية رقم ٤٨ من سورة العنكبوت.

الكون إنه يجعل ذلك من صمام الأمن للمجتمع الإنسانى حتى يعيش فى جوٍ من السلام والحب والتعاطف والتعاون.. وما أجلٌ إخاء العلم. وما أبرٌ اللقاء عليه!؟ وصدق الله العظيم : " إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون "[1].

من هذا يتبين أن القرآن كتاب الله الذى أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير. وهو الذى أنزله على محمد (صلى الله عليه وسلم) ليهدى الناس أجمعين وينقلهم من الضلال إلى الهدى. ومن الباطل إلى الحق. ومن الشر إلى الخير. ليتعايش الناس جميعا تحت مظلة الأخوة الإنسانية. " يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساءا. واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا "[2]. ولما كان العقل لا يستطيع بما ركب فيه من نسيان أن يحيط بفكرة كلية. ولا نستطيع أن نفهم من كل شيىء تفاصيله الكلية كذلك فنحن لا ندرى ما هو الأزل ؟ ولا اللانهاية ؟ من هنا فإن الإنسانية محتاجة إلى من أشرق عليه نور الله وهو النبى ليشرع ويهدى ويبين. فإذا أبينا عليه بعض عناصر هذا الهدى فإن هذا لا يَعْنِى شيئا أقل من أننا نأبى رحمة الله ولا نريد الخير لمجتمعنا وأنفسنا. إن الإسلام بمنهجه ونبيه لا يَحْمِلاَننا على طلب المحال ولكنهما يدلاّننا على أن نستفيد أحسن الاستفادة بما فينا من استعداد فطرى نشأفينا. ونما معنا وترعرع مع الزمن.

---

(١) الآية رقم ١٦٤ من سورة البقرة.

(٢) الآية رقم ١ من سورة النساء.

الثورة التى أحدثها القرآن الكريم

إن المعجزة الكبرى فى القرآن الكريم تأتى من وجهين وبهما حدثت ثورة فى المجتمع:-

١ - إنه نزل على قلب رجل أمِي. لا علم له بأى لون من ألوان الثقافة التى تموج فى العالم قبل بعثته. ومردُّ ذلك إلى أنه. لم يتعلم القراءة ولا الكتابة. ولم يكن راوية لشاعر. ولم يجالس الكهان ولا العرافين ووسائل الإعلام لم تكن منتشرة كما هى الآن. والقرآن الكريم فى أعلى طبقات البلاغة والفصاحة. والبيان.. حروف من جنس ما يتكلم بها العرب. وركبت تركيبا رائعا ذا نسق فريد تستريح الأذن عند سماعه. ولا يمجه الذوق العربى. وإنما يخشع أمام هذه الروعة العظيمة التى تتسرب إلى مشاعره وأحاسيسه ووجدانه ويكون هناك الانسجام التام بين عواطفه وتلك الآيات التى يحاول الاستزادة منها. ولهذا قال الله سبحانه إن الذى يتلو عليكم هذا هو أمىٌّ. يقول الله جل جلاله: " وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك إذا لا ارتاب المبطلون"[1]. ويقول :"وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين"[2].. والمشركون عندما بهرهم هذا الكلام الفريد الذى تعجز البشرية عن الإتيان بأقل سورة منه. قالوا: هو سحر. وذلك فى قصة" عتبة بن ربيعة ". وهو من هو فى القوم: فلقد ذهب بناءا على إلحاح قومه إلى سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعرض عليه أى شيىء يقبله ينفذوه له. على أن يترك هذا الأمر. فذهب إليه. وعرض عليه المال. والرياسة. والتزوج بأى عدد من خيرة نساء قريش. وذهب "عتبة" وعرض على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقال له:"إن كنت تريد بما جئت به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً. وإن كنت تريد ملكاً. ملكناك علينا فلا نقطع أمرا دونك. وإن كان الذى يأتيك

(١) الآية رقم ٤٨ من سورة العنكبوت. (٢) الآية رقم ٦٩ من سورة يس.

رئيا من الجّن لا تستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى. وهنا قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم). قد فرغت ياأبا الوليد؟ قال نعم: . قال فاسمع منى: ثم قرأ (صلى الله عليه وسلم) عليه أول سورة فصلت: " بسم الله الرحمن الرحيم. حم. تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصلت أياته قرءانا عربيا لقوم يعلمون. بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقرٌ ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون. قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما الهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين. الذين لا يؤتون الزكوة وهم بالآخرة هم كافرون. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون. قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلوا له أندادا ذلك ربُّ العالمين. وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهى دخانٌ فقال لها وللأرض إئتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سموات فى يومين. وأوحى فى كل سماء أمرها. وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم. فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود. إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله. قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون."[1] صدق الله العظيم.

وهنا أمسك عتبة بفم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وناشده الرحم أن يكف عن القراءة. فلما رجع عتبة سألوه فقال: والله لقد سمعت من محمد قولا ما سمعت مثله قط. والله ما هو بالشعر. ولا بالكهانة ولا بالسحر. يامعشر قريش أطيعونى فاجعلوها لى. خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه. فوالله ليكونن

---

(١) من الآية ١ حتى الآية ١٤ من سورة فصلت.

لكلامه الذى سمعت نبأ. فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم. وإن يظهر على العرب فعزه عزكم. فقالوا لقد سحرك محمد. فقال : هذا رأيى. ثم عرضوا عليه بعد ذلك أن يشاركهم فى عبادتهم ويشاركوه فى عبادته. فأنزل الله تعالى :"قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولى دين"[1].

وهذا هو "الوليد بن المغيرة" عمُّ ابى جهل وكان سيداً مطاعا فى قومه وفى سعة من العيش. سمع القرآن من النبى (صلى الله عليه وسلم) مرة فقال لقومه: "والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاما ما هو من كلام الجن ولا من كلام الإنس ووالله إن له لحلاوة. وإن عليه لطلاوة. وإن أعلاه لمثمر. ،إن أسفله لمغدق. وإنه يعلو ولا يعلى عليه. فقالت قريش: صبأ والله الوليد لتصبأن قريش كلها. فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه. فتوجه إليه وقعد حزينا. وكلمه بالذى فى نفسه. فقام فأتاهم فقال: تزعمون أن محمدا مجنون ؟ فهل رأيتموه يُهوِّس ؟ وتقولون إنه كاهن. فهل رأيتموه يتكهن؟ وتزعمون أنه شاعر. فهل رأيتموه يتعاطى شعرا ؟ وتزعمون أنه كذاب . فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ؟ فقالوا : لا أبدا.. ثم سألوه وقالوا: فما هو؟ ففكر قليلا ثم قال: فما هو إلا ساحر. أما رأيتموه يفرق بين المرء وأهله وولده ومواليه. فارتج النادى فرحا. فأنزل الله فى شأن الوليد فى سورة المدثر "ذرنى ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا . وبنين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد . كلاًّ. إنه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا. إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر. ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحرٌ يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر. وما أدراك ما سقر. لا تبقى ولا تذر."[2].. وهكذا كان الرد على هذا الشخص الذى ألغى

(١) الآيات من ١ إلى ٦ من سورة الكافرون. (٢)الآيات من ١١ إلى ٢٨ من سورة المدثر.

عقله. وطمس الحقد معانى الجمال التى حركها القرآن فى نفسه. فتحجرت المشاعر الطيبة نتيجة مجاراة الجهل. ومحاكاة الجهال وأصبح مثله كمثل الرجل الذى ألغى تفكيره وصاح فى الناس يقول:

ولما رأيت الجهل في الناس فاشيا   تجاهلت حتى ظُنَّ أنى جاهل

لذلك ذمَّهُ القرآن. وعاب عليه هذا المسلك. وعلاوة على ما تقدم فقد أنزل الله فيه فى سورة "ن" قوله تعالى : "ولا تطع كل حلاف مهين ".[1] وهو الشخص كثير الحلف. وفيه إشارة إلى أن من كثر حلفه فهو واقع فى الضلال. "مهين" حقير. وهو الكذاب لأنه يشعر بأنه محتقر فى نفسه. فأحاسيسه تنبئه بأن الناس يعرفون كذبه "هماز" عياب يتتبع عورات الناس وينسى عيوبه "مشَّاء بنميم " ينقل الأحاديث بين الناس بقصد إفساد العلاقة بين الأصدقاء. " مناع للخير معتد أثيم"[2]. فهو لكثرة شره وإفساده ليس فيه خيرا أبدا. "عتل بعد ذلك زنيم"[3]. فهو غليظ جاف الطبع لا مروءة عنده لأنه دخيل على الناس ليس بأصيل " أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين سنسمه على الخرطوم"[4]. كناية عن الإذلال والتحقير لأن الوجه أشرف شيىء فى الإنسان. والأنف أكرم شيىء. ولذلك اشتقوا منه ما يدل على العظمة كالأنفة. والوشم على الأنف الذى هو أكرم وأشرف عضو دليل على الذل والمهانة. وأنه محتقر.. من هنا نلحظ أن القرآن هو ثورة جاءت لتحرر العقل البشرى. وتعلن إنطلاق الإرادة الإنسانية من رق المنتحلين لأنفسهم صفة الربوبية أو النيابة عن الرب الخالق .. إن القرآن بهذه الثورة الفكرية حرر الإنسان من السجود لحجر. أو الانغماس

---

(١) الآية رقم ١٠ من سورة ن .   (٢) الآية ١٢ من سورة ن .

(٣) الآية ١٣ من سورة ن.   (٤) الآيات ١٤-١٦ من سورة ن.

فيما يضر ويفسد العلاقات والقرآن يوجه قوى الإنسان العقلية والبدنية إلى تكميل نفسه وتجميل جنسه. لأنه عمل على إصلاح الأخلاق والطباع عن طريق الحجة القيمة. وطرق الإقناع والخضوع لوازع الاعتقاد النفسى دون وازع الحكم القهرى ليغير الناس ما بأنفسهم بالاختيار والرضى. لا بالجبر والغلبة فيغير الله ما بهم بمقتضى سنته فى نظام الاجتماع حسبما جاء فى قول الله تعالى: " إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم "[1]. إن القرآن لو كان بأسلوب الكتب العلمية والقوانين الوضعية لما كان له ذلك التأثير الذى غير ما بأنفس العرب ثم غيَّرواهُمُ به الأمم فكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس . لأن العرب لم يكن عندهم شيىء من العلم والسياسة كما كان عند بعض الأمم. فلما وعوا القرآن واستوعبوه دانت لهم الدنيا. وحكموها بالعدل وساسوها بالحق. وأناروها باشاعة التذوق الجمالى. ولعلنا نلحظ تأثير القرآن فى الناس . ما حدث مع "عمر بن الخطاب" الذى نشأ وترعرع والقوة دأبه. والقسوة فى طبعه حتى قيل إنه وأد بنتاً لهُ فلما قرأ القرآن واستوعبه كان من أرحم الرحماء بالناس. يبكى إذا رأى مريضا. ويتألم جداً.. ولعلنا نلحظ ذلك من أنه قام فى ليلة يطبخ طعاما لأسرة فقيرة ألمَّ المخاض بربة البيت فأحضر زوجته وقاما بإعداد الطعام وأعينهما تذرف الدمع من الدخان وهما راضيان. وكان زوج المرأة حاضرا لا يساعدهما فى شيىء. و"عمر" آنذاك هو أمير المؤمنين..بل هناك ما هو أكبر من ذلك. فلقد تسابق عُمرُ مع أبى بكر فى كنس دار لامرأة عجوز مكفوفة البصر وغسل ملابسها وكل منهما يسابق الآخر. وكان لأبى بكر فضل السبق وهو خليفة رسول الله.

إن القرآن بما له من تأثير فى نفوس المشركين جعلهم يستمعون إليه فلما

---

(١) من الآية ١١ من سورة الرعد.

زادت روعتهم من بلاغته. وأدهشهم نظمه وأسلوبه قالوا لبعضهم ما حكاه القرآن: "وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون"(1). لكن رغم هذا التوجيه فقد كان رؤساء الناس يذهبون سراً وفى الليل يستمعون للنبى (صلى الله عليه وسلم) وهو يتلو القرآن .. فهذا أبو جهل. وهو من هو عداوة شرسة للنبى (صلى الله عليه وسلم) وكان من أحط الناس فى عداوته. وكذلك "الأخنس بن شريق" و "أبو سفيان بن حرب". وكلهم من رؤس الكفر. وسدنة الجهل. فكان كل واحد منهم يأتى من ناحية فيستمع إلى قراءة النبى (صلى الله عليه وسلم). وكل واحد يظن أن أحدا لن يراه. وكان يغذى عقله وفكره بهذا القرآن الذى من يستمع إليه كأنما يستمع إلى همس خاطره لكن عند تفريقهم فى آخر الليل كان يجمعهم الطريق عند الإنصراف فيتلاومون ويقولون: لو علم الناس بنا وبما نفعل ماذا يكون حالهم. ثم يتعاهدون على عدم العودة. لكن يعودون من جديد.

إن هذا التأثير الذى جعل هؤلاء يذهبون سراً للاستماع من فم النبى الطاهر الذى يقول له الحق سبحانه : " فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون "(2). هو كذلك الذى أنطق الوليد بن المغيرة" بكلمته الغالية فى القرآن والتى اعترف فيها بأنه الحق الذي يعلو ولا يعلى عليه شيىء أبدا ...إن النبى محمدا (صلى الله عليه وسلم) كان كل ما يطلبه من قومه أن يمكنوه من تلاوة القرآن على الناس لأن الحكم لهم بعد ذلك. يقول الله تعالى: " قل أى شيىء اكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ "(3). ويقول سبحانه: " إنما أمرت أن أعبد ربَّ هذه البلدة الذى حرمها وله كل شيىء. وأمرت أن أكون من المسلمين. وأن أتلوا القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه

---

(1) الآية ٢٦ من سورة فصلت (2) من الآية ٣٣ من سورة الأنعام.

(3) الآية ١٩ من سورة الأنعام.

ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين"[1]. ويقول: " فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا"[2]. ولذلك بقى إعجاز القرآن إلى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ليكون أكبر شاهد على أن النبى محمداً (صلى الله عليه وسلم) خاتم النبيين. ثم ما يتميز به من صلاحية لكل زمان ومكان. وإن أى أمة تنفذ هذا القانون السماوى تحفظ حقوقها وتعز دولتها فتقود العالم بأسره لأنها أخذت بالحق الذى جاء من عند الحق وبلغه نبى صادق لم ينطق عن الهوى. ولم يغير منه أى شيىء لتكون الحجة أقوى.. إن هذه الثورة فى المجتمع ما كان يمكن أن تحدث أبدا إلا بتأثير القرآن العظيم الذى من مقاصده أيضا إصلاح البشرية. والزج بها فى طور الرشد. وتحقيق الأخوة بين أفرادها. وترقية عقول الناس وتزكية نفوسهم التى هى التربية العملية بالقدوة والأسوة. ويتمثل ذلك فيمن تلقى القرآن وقام بتبليغه وقيل له "قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا "[3].. لأنه بالقرآن تلين القلوب وتترابط النفوس. وبالقدوة يكون العمل..

إن تربية الصحابة التى زكت بها نفوسهم وغيرت كل ما كان قانونا لديهم. كل ذلك كان بسبب الثورة التى أحدثت أعظم ثورة روحية واجتماعية فى التاريخ. كل ذلك بسبب تلاوة القرآن والإكثار من تلاوته فى الصلاة. وتدبره فى غير الصلاة. لذلك كانت قيادتهم للمجتمع بالفعل والقول والتوجيه. ومن هنا قال الله فى حقه: " الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله "[4]. وهم فى تلك الحالة من السمو الروحى كان الواحد منهم يقوم الليل كله يتلو آية واحدة يكررها متدبرا وكانوا يقرأون القرآن فى كل حال كما وصفهم الحق سبحانه " الذين يذكرون الله

---

(١) الآيتان ٩١-٩٢ من سورة النمل. (٢) الآية ٥٢ من سورة الفرقان.

(٣) الآيات من ٢ إلى ٤ من سورة المزمل (٤) الآية ٢٣ من سورة الزمر.

قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض . ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار"[1]. إن القرآن لو نزل على جبل لتصدع من جمال معانيه. ثم من خشية منزله" لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله "[2]. لكن ما أشدَّ جحود الإنسان وتنكره لعواطفه الطيبة التى لو تركها على سجيتها لآمنت بالله وأذعنت لآياته. واستجابت لرسله. وفى ذلك سعادتها ونجاحها وفلاحها وهذا ما حدث فى فترة من فترات التاريخ انتصر المسلمون يوم قالوا: " الله أكبر وما النصر إلا من عند الله." " إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد"[3].

مبلغ هذا القرآن

فى رياض القرآن ودوحته. ومن خلال آياته. نَعْرِفُ محمداً وأثره. ونؤمن بصدق ويقين بأنه جاء برسالة حملها من قبله الأنبياء الصادقون. الذين تحدث القرآن عنهم وبين أصول رسالتهم. ووضح أن صاحب تلك الرسالة يمشى على أعقابهم.. ألمْ يقل القرآن ومبلغه محمدٌ صلى الله عليه وسلم :" شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه "[4]. ولو أن هؤلاء الأنبياء عادوا إلى الدنيا. وتحدثوا إلى الخلق ما وسعهم إلا الإيمان به والدعوة إليه. لأن رسالته جمعت وحوت كل ما فى رسالتهم. وزادت على ذلك ما يلائم تطور الإنسان ورقيه. وليس فى رسالته ما يخالف أصول رسالتهم أبدا لأن مصدرها واحد وهو الله الواحد الأحد. وفى هذا يقول صاحب الرسالة الخاتمة:"لو أن موسى حيٌّ ما وسعه إلا اتباعى". إن هذا النبى الخاتم الأمى. هو نبى الأجيال كلها من لحظة بعثه إلى

---

(١) الآية ١٩١ من سورة آل عمران. (٢) الآية ٢١ من سورة الحشر.
(٣) الآية ٣٧ من سورة ق. (٤) الآية ١٣ من سورة الشورى.

أن تقوم الساعة. ذلك لأن معجزته القرآن. وهو صلى الله عليه وسلم الترجمة العملية لآياته. أليس خلقه القرآن؟ كما تقول السيدة عائشة رضى الله عنها: كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه". ولذا لا يمكن تحديد أمره فى بيئة معينة أو منطقة محدوده.. وتأمل!! خمسة عشر قرنا من الزمان مضت منذ بعثته وشمسه لم تحجب. وهو اليوم كأنه حىٌ بيننا. فما تلا الإنسان شيئا من كتاب الله. ولا استمع إليه إلا تمثل الرسول (صلى الله عليه وسلم) أمامه يتلقى الوحى من أمين السماء ما يصون به أمانات الأرض. فلقد كان مثال الكمال الخلقى لذا حفظ التاريخ عنه كل شيىء فى حياته. والتاريخ سجل ناصع يقرأه الشخص فيرى نفسه مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بصفته وهيئته. يراه فى البيت من حديث عائشة:" كان إذا دخل إلى بيته بسّاماً ضحّاكا. ويكون فى خدمة أهله. يحلب شاته ويرقع ثوبه. ويقم البيت. ويعلف ناضحه ويأكل مع الخادم ويحمل بضاعته من السوق". ثم نعود إلى المجتمع فنرى النبى (صلى الله عليه وسلم) فى المسجد يؤم الناس فى الصلاة. يسوى صفوفهم ويقدم إليهم الموعظة الحسنة التى تجعل القلوب ترق. والعيون تذرف الدمع لأنها صادرة من قلب خاشع. فإذا ترك المسجد وخرج إلى الشارع تراه مع اليتيم والضعيف يقضى حاجتهم. ويهتم بشئونهم ثم نراه فى الميدان يقود المجاهدين. وينفخ فيهم من روحه. يؤجج فيهم روح الدفاع عن العقيدة الإسلامية التى هى أصل اتصالهم بالله رب العالمين.. لقد كان النبى (صلى الله عليه وسلم) من لحظة ولادته وإلى أن لقى ربه. صفحة مشرقة ليس فيها ما يطوى أو ينكر. إنما هى بيضاء ناصعة. ولقد كتب أصحاب رسول الله(صلى الله عليه وسلم) سيرته. ولم يعرف تاريخ البشرية كلها شخصا من الناس أو نبيا من الأنبياء أو عظيما من العظماء اشتهرت سيرته وعرف كل شيىء عنه مثل ما تم لمحمد(صلى الله عليه وسلم). ولذا يمكن لكل فرد فى أى

زمان أو مكان أو على أية حال أو فى أى سن أن يقتدى بمحمد (صلى الله عليه وسلم) وأن يجد فى حياته ما يتخذه مثلا أعلى. وصدق الله العظيم : " لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة "[1]. وقوله : " قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم "[2].

يقول السيد «سليمان الندوي» في كتابه « الرسالة المحمدية » وهو يوجه أفراد المجتمع للاقتداء بهذا النبي العظيم « إذا كنت ملكا فاقتد بسنة النبي(صلى الله عليه وسلم) وأعماله حين ملك أمر العرب وغلب على آفاتهم. ودان لطاعته عظماؤهم وذووا أحلامهم.

وإن كنت فاتحا غالبا فلك من حياته نصيب أيام ظفره بعدوه في «بدر» و«حنين» و«مكة» .. وإن كنت معلما : فانظر إليه وهو يعلم أصحابه في المسجد.

وإن كنت غنيا ثريا : فاقتد به عندما كان تاجرا يسير بسلعته بين الحجاز والشام . وحين ملك خزائن البحرين.

وإن كنت فقيرا معدما فلتكن لك أسوة حسنة به وهو محصور فى شعب أبى طالب . وحين قدم إلى المدينة مهاجرا وهو لايحمل من حطام الدنيا شيئا ... وإن كنت تلميذا متعلما فتصور مقعده بين يدى الروح الأمين جاثيا مسترشدا ... وإن كنت واعظا ناجحا ومرشدا أمينا فاستمع إليه وهو يعظ الناس على أعواد منبر المسجد النبوى .

وإن أردت أن تصلح أمورك . وتقوم على ضياعك فانظر إليه صلى الله عليه وسلم . وقد ملك ضياع بنى النضير . وخيبر وفدك كيف دبر أمورها . وأصلح شئونها وفوضها إلى من أحسن القيام عليها .

وإن كنت صغير السن فانظر ذلك الوليد العظيم حين أرضعته مرضعته

(١) الآية ٢١ من سورة الأحزاب (٢) الآية ٣١ من سورة آل عمران

الحنون « حليمة السعدية» .... وإن كنت يتيما فانظر إلى فلذة كبد آمنة . وزوجها عبد الله وقد توفيا وإبنهما صغيرا .

وإن كنت شابا ناشئا فاقرأ سيرة راعى الغنم بمكة .

وإن كنت قاضيا أو حكما فانظر إلى الحكم الذى قصد الكعبة قبل بزوغ الشمس ليضع الحجر الأسود فى محله . وقد كاد رؤساء مكة يقتتلون .

ثم ارجع البصر إليه مرة أخرى وهو فى فناء مسجد المدينة يقضى بين الناس بالعدل . ويستوى عنده منهم الفقير المعدم . والغنى المثري وإن كنت زوجا فاقرأ السيرة الطاهرة . والحياة النزيهة لزوج عادل جمع بين العديد من زوجاته أمهات المؤمنين . ومنهن خديجة وعائشة وإن كنت أبا لأولاد . فتعلم ما كان عليه والد فاطمة الزهراء وجد الحسن والحسين « . وعلى أية حال فلك فى حياة محمد صلى الله عليه وسلم هداية حسنة. وقدوة صالحة تضيىء لك بنورها دياجى الحياة . وينجلى بضوئها ظلام العيش . ذلك لأن تاريخ محمد صلى الله عليه وسلم بحقائقه المشرقة هو أثبت حقائق التاريخ. وسيرته هى أكمل ما عرفت الإنسانية.

ولم لا وهو فى مرتبة الكمال البشرى . فللبشرية كلها على اختلاف أجناسها وألوانها أسوة حسنة فيه . ليس من حكمته البالغة ولا لفظه الكريم فقط. وإنما من سلوكه وعمله وسعيه وخلقه . أليس خلقه القرآن ؟؟ . كل خصال الخير ومكارم الأخلاق نبع هدية .. من هنا كان هو الأسوة الحسنة . لأنه ميزان الحق وآية الصدق . وقانون العدل . هو رمز الأمانة الصادقة لايلهينه عن أدائها خطب نازل . أو خطر محدق . الم تقرأ فى تاريخه هذا اليوم الذى اجتمعت قريش فيه وتآمرت على قتله . وفى نفس الوقت ودائع القوم لديه وأغلى ما عندهم يحفظونه عنده . فلو أن شخصا غيره لاستباح لنفسه ما تحت يده . خاصة وأن قريشا

أخرجت أصحابه من ديارهم وأموالهم . ثم من الذى يتذكر ودائع قوم يتآمرون عليه ليقتلوه . ومع ذلك يكلف الإمام عليا لينام فى مكانه ليرد الودائع لأصحابها لأنه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها . وما دعى إلى شيء إلا كان أسبق الناس إليه. وما نهى عن شيء إلا كان أبعد الناس عنه .

وسل كتب الحديث ترشدك . واقرأ صفحات المغازى تنبئك وتصفح التاريخ يعطيك خبرة . واستنبيء مسطرات الشمائل وهى ترسم أثره . وقبل ذلك وبغيره عش فى روضة القرآن تعش فى صحبة النبى الخاتم . وصل حياتك به تعش فى النور « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم[1] سل التاريخ سوف ينبئك أن كل شيء من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن خافيا على أحد. وأن كل أمر من أموره حفظته القلوب . ووعته العقول ... وإذا كان المؤرخون حرصوا على أن يحفظوا حياة أصحابه ويكتبوا سيرتهم ونسبهم وتاريخ إسلامهم . فلقد انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى. وقد ترك أكثر من مائة ألف من أصحابه كلهم كانوا يقصون أمره ويتحدثون عنه حتى إذا ذهب إلى الخلاء يقولون : « أبعد» وإذا استبطئوه طلبوه وتلك شهادة رجل انجليزى هو« باسورث سميث» يقول « ترى الشمس هاهنا بارزة بيضاء وتنير بأشعتها كل شيء وتصل إلى كل شيء لاشك أن فى الوجود شخصيات لاتعلم عنها شيئا .

ولانتبين حقيقتها أبدا . أو تبقى منها أمورا مجهولة . بيد أن التاريخ الخارجى لمحمد صلى الله عليه وسلم نعلم جميع تفاصيله . من نشأته إلى شبابه. وعلاقته بالناس . وروابطه . وعادته . ونعلم أول تفكيره وتطوره وارتقائه التدريجى

(١) الآيتان ١٥ -١٦ من سورة المائدة

ثم نزول الوحى العظيم عليه نوبة بعد نوبة . ونعلم تاريخه الداخلى بعد ظهور دعوته وإعلان رسالته . وأن عندنا القرآن لامثيل له فى حقيقته وفى كونه محفوظا مصونا « ... إن حياة الرسول كلها معلومة للناس لايخفى منها شىء. ما كان يعلمه في بيته من غسله . ووضوئه . ونومه ومعاشرته لأزواجه . ومأكله ومشربه . مايدور فى بيته من شئون . وما يعد من طعام . وما يوقد من سراج . وما يلبسه وما يتطيب به . وهيئة فراشه ومداعبته لأزواجه، وملاطفته لأهل بيته. ذكره لربه ووقوفه فى الصلاة بين يدى ربه وما يتلوه من قرآن . وما يواظب عليه من سنة . وما يحرص عليه من نوافل وفى البيت تسع زوجات يحدثن عن كل ما يقع منه فى أخص شئونه دون حرج .

وفى خارج البيت حيث الأعين ترصده والقلوب تتطلع إليه . والنفوس دائما مشوقة لرؤيته . لايكاد الباب يفتح . ولا يكاد محمد صلى الله عليه وسلم يخرج إلى الناس فى أى شأن من شئونه حتى نرى من يسجل كل شىء عنه حتى حركات يده . وقسمات وجهه . وهيئة مجلسه وتبسمه . يسجلون ماينطق به ومايصدر عنه من قيام أو قعود أو انتقال ... والصحابة جميعا حريصون على أن يروه وأن يسمعوا منه بقدر حفاوتهم وحرصهم على التمسك بسنته والاهتداء بهدية وإن جماعة من الصحابة سموا بأهل الصفة . وهبوا أنفسهم لهذه المهمة . مهمة التسجيل ومتابعة الرسول لإثبات كل ما يصدر عنه « شهادة حق .. والحق ما شهدت به الأعداء . ولقد سجلنا ذلك لنسجل أن النبى صلى الله عليه وسلم وهو الصادق الأمين فى تبليغ الرسالة لايخفى حياته . كما أنه ليست له علاقة مشبوهة بأعداء عقيدته أو أعداء وطنه . أو أعداء أمته . أو أنه يقول الرأى ثم يرجع عنه دون تدبير . أو يكتم عن الناس شيئا من حياته ويحفظ عنهم أسراره .. إن النبى الصادق هو الذى يقول : ها أناذا أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم . ولذا قال

الله لحبيبه ومصطفاه « وإنهم لايكذبونك»[1] فالصدق والفطانة . والأمانة والنزاهة. صفات تلازم النبى الصادق الذى لا ينطق عن الهوى ... ومن هنا كان القرآن مرآة صادقة ناصعة . لأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يزد حرفا من عنده ولا كلمة فيه . وإنما بلغ فقط . ولهذا يقول الله « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا فيه الوتين . فمامنكم من أحد عنه حاجزين »[2] ... تأمل فى آيات القرآن تجد الصدق والصدق وحده . إنه حوى كل شىء بدقة وأمانة حتى فى الآيات التى كان فيها عتاب لمبلغه كقول الحق سبحانه « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين »[3] وقوله سبحانه :«إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما »[4] وقوله « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة »[5] وقوله « عبس وتولى أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك أن ألا يزكى . وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى. كلا إنها تذكره فمن شاء ذكره »[6] .

إن الذى نتبينه ونحن نعيش فى دوحة القرآن . هو أن النبى صلى الله عليه وسلم اجتهد واستعمل أقصى ما يمكن أن تقوم به حكمة بشر رسول ووحى الله يؤيده . أو يوجهه وهو يبلغ لايكتم شيئا من وحى الله بقول الله له «ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك. وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس[7]» ... إننا لم نر رجلا أنصف الحقيقة ودافع عنها وعن حقيقتها والداعين

(١) من الآية ٣٣ من سورة الأنعام
(٢) الآيات ٤٤– ٤٧ من سورة الحاقة
(٣) الآية ٤٣ من سورة التوبة
(٤) الآية ١–٢ من سورة الفتح
(٥) الآية ٦٧ من سورة الأنفال
(٦) الآيات ١–١٢ من سورة ~~عيسى~~ عبس
(٧) الآية ٦٧ من سورة المائدة

إليها كما فعل محمد صلى الله عليه وسلم لأن الروافد الدينية الحقيقية كلها التقت عنده . فعادت إلى طبيعتها نقية طاهرة . مثل ذلك كمثل الماء يلتقى وقد طال مجراه بأداة الترشيح والتنظيف بعدما تغير بفعل الناس . فترد عنه الدخيل وتمضى بالعذب الفرات . فكذلك الرسالات السابقة التقت عند محمد صلى الله عليه وسلم فوجدت نفسها على طبيعتها ووجدت فيه الذائد عن طهارتها الحارس لجوهرها .. التقت عنده فوجدت بحرا فسيحا منطلقا يمضى طهورا وهو يلقى بالزبد فأمنت وسلمت وتوحدت وامتزجت امتزاج تعارف وتراحم .

لقد التقت الرسالات كلها بآخر رسالة كلف بها نبى هو خاتم الأنبياء وفيها التقى الأول بالآخر . وتآخى السابق واللاحق . وأنصفت الحقيقة التى ظلمها الناس وتلقفتها الأجيال بعد ظلم واظلام والتمستها فى أصالتها وكمالها. فالتقت فى الإسلام الذى تكفل الله بحفظه. قانونا ومنهاجا سجله الله فى القرآن الكريم. يقول الله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون[1] » فلا تغيير ولاتبديل ولاتحريف . وفرق بين هذا وبين الكتب السابقة التى ترك حفظها لقادة الفكر فى القوم . وفى هذا يقول الحق سبحانه : « بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ...[2]

ونتأمل مصداق ذلك من الواقع التاريخى نرى أنه ما من كتاب نزل على نبى إلا اعتراه تبديل وتغيير ووقع فيه اختلاف كثير لأنه توقف فى بقائه على حفظ الحافظين له والمؤتمنين عليه . أما القرآن الكريم فقد ضمن الله حفظه وبقاءه وتكفل برعايته ليبقى صيحة الله بين خلقه وهدية بين عباده. والقرآن الكريم قد انفرد دون سائر الكتب بهذه الميزة التى تجعل القرآن إعجازا لقوى البشر جميعا . فكم ديست أرض المسلمين. ويبقى كتابهم شامخا مشرقاً لا يغيب ضوؤه

(١) الآية ٩ من سورة الحجر (٢) الآية ٤٤ من سورة المائدة

وكم هزم المسلمون وهتاف القرآن فى آذانهم : إن ما نزل بكم سببه غياب الحق عنكم « ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم[1] » ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله[2].

إن هذا النبى المعلم الذى حمل كتاب الله وبلغه للناس جميعا بدأ فى دعوته بالتدريج بحيث لم يقفز بالناس قفزة واحدة . لذلك عرض الرسول صلى الله عليه وسلم دعوته على عشيرته الأقربين حسبما وجهه القرآن « وأنذر عشيرتك الأقربين»[3] ثم توسعت مجالات الدعوة بعد ذلك طبقا لتوجيه القرآن « وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها »[4] عند هذه الآية وقف المستشرقون وأطالوا وقفتهم . وتكلموا وأكثروا وخيل إليهم أنهم عثروا على ما يفيدهم بأن الدعوة الإسلامية محدودة فى مكة وحدها لاتخرج منها إلا بالنطاق الذى يحافظ على كيانها واستقلالها بحيث لاتتعدى اليمن . ثم قالوا بأن القرآن عربى فهو للعرب فقط وفى الرد عليهم نقول : المتفق عليه فى أى عمل أن ينذر الشخص أقاربه أولا . يبلغهم ما ينوى فعله ليعينوه ويساعدوه ويناصروه ، وهذا ما فعله نبى الإسلام . ثم هذا أمر لايتعارض مع الامتداد الواسع لتسرى مع الزمان والمكان. وكون القرآن بلسان عربى ليس إلا وصفا له باللغة التى نزل بها فقط . لكنه للبشرية كلها بدليل أن من دخل فى الإسلام من غير العرب أضعاف أضعاف من دخلوه من العرب . وهكذا الحال فى الوقت المعاصر . فإن الذين ينطقون بالضاد أقل بكثير من غيرهم من الذين ينتسبون إلى الإسلام ثم إن رسول الله خاطب الملوك فى عصرهم وكاتبهم . وبعث إليهم برسائل وقال لأصحابه وهو يوجههم: إن الله بعثنى رحمة وكافة فأدواعنى رحمكم الله « ولئن

---

(١) الآية ١٠٥ من سورة آل عمران
(٢) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام
(٣) الآية ٢١٤ من سورة الشعراء
(٤) الآية ٧ من سورة الشورى

كان نبى الإسلام عربى المولد وقرآن الله عربى النطق . فإن ذلك ليس يوقف على أمه دون غيرها . فإن سيرة النبى وقرآنه ميراث البشرية كلها . لأنه جاء فى هذا القرآن قول الله سبحانه « وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ[1] . ولقد روى الحافظ بن عساكر أن « قيس بن مطاطية» جاء إلى حلقة فيها سلمان الفارسى و «صهيب الرومى» و «بلال الحبشى» فقال هؤلاء الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل « يعنى محمد صلى الله عليه وسلم » فما بال هذا . وهذا . مشيراً إلى غير العرب من الجالسين » فقام إلية » معاذ بن جبل « رضى الله عنه . فأخذ بتلابيبه ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره بمقالة هذا الرجل . فقام النبى صلى الله عليه وسلم يجر رداءه حتى أتى المسلمين فى المسجد ونودى : الصلاة جامعة فاجتمع الناس فخطبهم صلى الله عليه وسلم قائلا : « أيها الناس إن الرب واحد. وإن الدين واحد . وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هى اللسان فمن تكلم العربية فهو عربى .

أما ما حاول المستشرقون إثارته حول قول الله تعالى « لتنذر أم القرى ومن حولها[2]» فأرادوا أن يخصصوا الدعوة الإسلامية لأم القرى ومن حولها فقط فمردود عليهم لأن . ومن حولها يشمل العالم أجمع . يقول الأستاذ العقاد: «إن النوع الإنسانى يشمل أم القرى وما حولها . ولا تعد هداية أهلها عزا لهم عمن عداهم من الناس . إذا كان خطاب الناس كافة يمنع أن يكون الخطاب مقصورا على أم القرى ومن حولها . فإن خطاب أم القرى ومن حولها لا يمنع أن يعم الناس جميعا . ويقول : كيف يستسيغ العقل أن يكون صاحب الدعوة المحمدية خاتم النبيين إذا كانت رسالته مقصورة على قوم لم يأتهم من نذير أ هـ لقد قلنا بأن التدرج فى الدعوة هو الأساس . ولقد بدأ النبى بعشيرته الأقربين.

---

(١) الآية – ١٩ من سورة الأنعام .　　　(٢) من الآية ٩٢ من سورة الأنعام

ثم بأهل مكة وما جاورها ثم راسل الملوك وكاتبهم. وأرسل السفراء يعلمون الناس ويبشرون بالدين الجديد. ولم يفارق نبى الإسلام الدنيا إلا بعد أن آنساب أتباعه فى الأرض بهذا الدين الذى تقبله أهلها وبهذا شهد التاريخ ويقرر المنصفون بذلك ثم فارق نبى الإسلام الدنيا بعد أن حمل إليها خبر السماء بكمال الدين « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا[1] ». ولقد اهتدت الدنيا بهذا الدين وانتسبت إليه . لأنها وجدت أمنها وسلامها فيه . إن الإسلام ما حل بأرض إلا نعمت بنعمة العدل . ذلك لأن القرآن وهو دستور الأمة الإسلامية يهتف بهم لقول الحق سبحانه « يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون[2] » وأى أرض يمكن أن تخصص لعبادة الله . هل يمكن أن نقول إنها الجزيرة العربية وحدها ؟ أم أى أرض يجد فيها الإنسان أمنه واستقراره. هذا هو المنطق. أرض الله واسعة . وما على حملة الدين إلا أن يبشروا به فى أى مكان ثم هناك دعوة موجهة إلى المؤمنين أن ينتشروا فى الأرض ويركبوا البحر ويطيروا فى الهواء وقصدهم تذكير الناس بالله الواحد الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ويبلغوا قول الله سبحانه « قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ولاخلال . الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم . وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره. وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الإنسان لظلوم كفار[3] » وحول هذه الآية يقول الأستاذ العقاد : « من يقرأ وصف هؤلاء العباد

---

(١) الآية ٣ من سورة المائدة (٢) الآية ٥٦ من سورة العنكبوت

(٣) الآيات ٣١-٣٤ من سورة إبراهيم

الذين سخر الله لهم البحر وسخر لهم الأنهار وسخر الليل والنهار لا يخطر على
باله لحظة إنهم أبناء الجزيرة العربية دون غيرهم من بنى الإنسان فى جميع
البلدان » إن الحق سبحانه أنزل القرآن ليتلى على الناس جميعا فى أى بلد وفى
أى زمان « وقرآنا فرقناه لتقرأً على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا[1] » وبين
سبحانه أن أتباع هذا الدين وحملة القرآن إن حلوا بأرض كان الخير معهم.
والأمن والسلام والتعمير والنماء . وتأمل قول الحق سبحانه : « الذين إن مكناكم
فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله
عاقبة الأمور[2] » وتلك سمات المجتمع الفاضل .. صلة بالله ، وتكافل اجتماعى.
وخلق كريم ومودة بين الجميع قائمة على الحب والتعاطف . تلك هى الدعوة
الإسلامية . وهؤلاء رجالها الذين يبلغونها ولا يخشون أحدا إلا الله لأنهم يعملون
فى النور ولا يعرفون الأحقاد والأطماع فسعيهم لله وهو مشكور .. لكن يظهر أن
ذلك لم يعجب بعض المستشرفقن ممن ملأ الحقد قلوبهم « كفسنك » المستشرق
الهولندى فراح يردد : «أن النبى لقومه فقط وهم العرب : كما أنه لم يفكر فى
دعوة غير العرب وأما مكاتبة الملوك فهى أسطورة ابتكرها الخلفاء ليبرروا
فتوحاتهم » ووقف هذا الطاعن عند الآيات التى نزلت فى أول الرسالة يبرر بها
كلامه ويستدل بذلك على قوله . لكنه قول باطل . وزعم خاطىء لأنه أخذ ببعض
الآيات فقط . ونحن نقول له : « اقرأ القرآن كله . وخذ بكل الآيات فالذين يؤمنون
ببعض الكتاب ويكفرون بالبعض الآخر كلامهم مردود ولايؤبه له أو ينظر إليه ..
كذلك تعرض الأستاذ « سوندرز » المحاضر بقسم التاريخ بجامعة « نيوزيلاندة»
لمثل هذا الكلام . وقد رد عليه الأستاذ محمود العقاد فى مجلة الأزهر بعددى
صفر وربيع ١٣٨١ هـ . وهذا المحاضر تعرض لسيدنا عمر واتهمه بأنه مستعمر.

(١) الآية ١٠٦ من سورة الإسراء (٢) الآية ٤١ من سورة الحج

وهذا كلام لا يؤبه له . لأن عمر رمز للعدالة . كما أنه كان مثال الخشية من الله . والخوف منه راغبا فيما عند الله . زاهدا فيما عند الناس . ولقد امتلأت الأمة الإسلامية فى عهده بالخير الكثير والغنى الواسع . ومع ذلك عاش عيش الفقراء. ولم يؤثر عنه مع العدو أو الصديق إلا النزاهة والعدل والصدق .. وهذان المستشرقان رغم كذبهما على التاريخ فإنهما اتهما عمر بذلك لأن أرض فلسطين فتحت فى عهده . وفرح أهلها بالإسلام الذى خلصهم من الظلم والاستبداد. والخسف والجور لكن هذين المستشرقين جعلا من عمر مستعمرا بمعناها المعاصر القهر والغلبة . واستذلال الشعوب حتى يكون لحديثهما عن رد فلسطين صدى . لكن الحقيقة أن عمر داعية يعرض الإسلام بمعناه الحقيقى بمعنى التربية.. النماء.. التعمير .. السلام.. العدل.. الإحسان.. الإخاء.

ونخلص من هذا إلى أن الحديث عن أم القرى كان فى بداية نزول القرآن، وأن من حولها يشمل جميع الأرض وكافة السكان . وهذا هو الحق الذى لالبس فيه . وبهذا ننصف الحقيقة التى ينشدها العقلاء إن المشركين الذين بهرهم القرآن وأعجزهم . كما بهرتهم السيرة التى كتبت عن محمد صلى الله عليه وسلم النزيه الفاضل الصادق الأمين . ذهبوا هنا وهناك يقولون « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »[1] ويقصدون بالعظمة الغنى وكثرة الأولاد ونسوا أو تناسوا أن الأخلاق الفاضلة هى أكبر غنى وأعظم ثروة لأن المال يفنى وينتهى . والأولاد كل يكون لنفسه ولأسرته ثم يتفرق الجمع . أما الأخلاق فهى الرصيد الدائم الذى لاينمحى ولا يفنى ويبقى ذكر ذلك للإنسان بعد وفاته ورحيله . ولهذا لم يجد القرآن الكريم أحسن وأفضل من الأخلاق يصف بها نبى الإسلام فمدحه بذلك حيث يقول .. « وإنك لعلى خلق عظيم[2] » والمستشرقون اليوم أو المستغربون

---

(١) الآية – ٣١ من سورة الزخرف (٢) الآية – ٤ من سورة ن

الذين يطعنون فى الإسلام ويعيبون عليه سبقهم فى ذلك أهل مكة . ولم يؤثر ذلك فى مسيرة الدعوة . ولم يتوقف نشاطها ولم يعرقل دعاتها . وهكذا الحال اليوم فإن حملة الإسلام يبلغون رسالة الله ودين الله يجد الأذن الواعية و القلب الفاهم . والنتائج المبهرة رغم كلام الحاقدين وتضليل المضلين « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما »[1]. وإذا كان هناك من يتطاول على الشمس يريد أن يوقف مسيرتها . فلن يستطيع إلى ذلك سبيلا حتى ولو كان جند الأرض أعوانه . وكذلك من يحاول وقف المد الإسلامى سيبوء بالخسران المبين « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون »[2] .

الوجه الثانى الذى أحدث بهما القرآن ثورة فى المجتمع . هو . ما جاء فى القرآن من تربية للإنسانية : حيث إن مقاصده إصلاح أفراد الجنس البشرى وادخالهم فى طور الرشد . وقد جاء ذلك بأسلوب يتناول حياة الفرد من جميع نواحيه . ويهيء لكل ناحية منهجا متكاملا تربويا . وكان يشير فى الكتاب مرة إذا اقتضى الأمر . ويكرر ذلك أكثر من مرة فى مواضع أخرى لأجل أن يجتث من أعماق النفس البشرية ما كان متأصلا فيها بسبب الوراثة أو التقاليد . وهو عندما يشير إلى الخلق الفاسد يأتى بالغرس الطيب . ويتعاهد ذلك بما ينميه حتى يؤتى أكله ويبدو صلاحة . وهكذا نرى أن القرآن الكريم أحدث ثورة فى النفس البشرية ليقتلع منها العادات الخبيثة الضارة الفاسدة . ويؤصل مكان ذلك العادات الحسنة والصفات الطيبة والمثل الكريمة وصدق الله العظيم « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين[3]» وتأمل قصص القرآن الكريم وهذا أسلوب

(١) الآية ٦٣ من سورة الفرقان (٢) الآية ٣٢ من سورة التوبة

(٣) الآية ٢ من سورة الجمعة

لم تألفه العرب ولم تعرفه من قبل . وإنما جاء القرآن بهذا اللون فبهرهم وجذب نفوسهم ثم أرشدهم بأسلوب تربوى لم تعرفه الإنسانية من قبل وما زال ذلك مصدر عطاء لعلماء التربية وإن أوربا لتعرف ذلك حق المعرفة لأن ثقافتها مدينة للإسلام بتلك النهضة بعد أن عاشت فى ظلام دامس : فوجدت فى الإسلام ما يرشد هافاستفادت منه وأخذت به فنهضت : كم من أمم سكنت الأرض ثم ذهبت ودرست آثارها ؟ لا أحد يستطيع الحصر مهما كان لكن القرآن يلفت النظر للسير فى الأرض . والتعرف على أخبار السابقين « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة »[1] لذلك نلحظ أن القرآن جمع فى تربيته وتهذيبه بين القدوة الحسنة والنصيحة الصادقة إذا كان يدعوك للسير لتتعرف على آثار السابقين وتأخذ العظة فإنه يقص عليك آثارهم لتكون العظة أبلغ والدرس أنفع والتربية أقوم . وهكذا تكون التربية بالنصيحة والقدره . لأجل هذا جاءت القصة فى القرآن وهى أعظم لون فى التربية . وما أكثر قصص القرآن وهو يعرض نماذج بشرية متعددة لمن تحسن بهم القدوة ولمن قامت فيهم العبرة « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين[2] » إن القرآن ساق لنا القصص فى ثناياه ليكون نبراسا وعبره . فالإنسان الذى يريد أن يعيش عفيف النفس طاهر القلب يكف نفسه عن الشهوة امتثالا لأمر الله وطمعا فى رحمته . وخوفا من عقابه فإن ذلك من عوامل النجاح فى الحياة الدنيا . لهذا مثلا جاءت قصته يوسف عليه السلام . ونلحظ من سياق القصة : أن أخا بين أخوة له . هذا الأخ منحته السماء زيادة فى الحسن . وتألقا فى الجمال . لذلك نزل من قلب والده منزلا كريما فمنحه حباً أكثر وقربه منه والفتى يلتصق بالأب ويقص عليه ما يراه فى منامه حيث أنه رأى فى النوم « أحد

(١) الآية ٢٠ من سورة العنكبوت (٢) الآية ١٣٧ من سورة آل عمران

عشر كوكبا والشمس والقمر له يسجدون فقال الأب فى لهفة وفرح لاتقصص رؤياك على إخواتك فيكيدوا لك كيدا ذلك لأن الأب رجىّ ولده للحقيقة التى يراها فى نفسه موروثة عن آبائه . وزاد التصاق الإبن الجميل بالأب الذى تقدم به السن وهنا بدأ الشيطان يلعب بالأبناء فاوغر صدورهم على أبيهم وحرك نوازغ الشر عندهم وجسم لهم ما يرونه من قرب الابن لأبيه لذلك تآمروا مع بعضهم على أن يتخلصوا من هذا الأخ . فذهبوا إلى أبيهم . وقالوا : « مالك لاتأمنا على يوسف وإنا له لناصحون أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون »[1] .

والأبناء وهم يقولون ذلك كانوا يلبسون ثوب الرياء التى تشف عن حقد دفين ومكر خبيث . والأب بما فيه من بصيرة يستشف ما يخفيه الأبناء لذلك : قال لهم : «أخاف أن ياكله الذئب وأنتم عنه غافلون[2]» لكنهم سرعان ما وجدوا حيلة ردوها على مسامع أبيهم : إنهم كثرة ولا يمكن للذئب أن يقترب منهم فقالوا « لئن أكلة الذئب ونحن عصبة إنا إذن لخاسرون[3]» لكن الخوف على مصير الابن كان يراود الأب الحنون . لذلك أخذوا منه الإبن أمانة غالية وهو كالحمل الوديع لا يستطيع أن يقاوم ثم ألقوه فى غياهب الجب ليموت وحيدا بعيدا عن الأنظار ولا يراه أحد ولطخوا قميص يوسف بدم كذب وذهبوا إلى أبيهم عشاء يبكون وقالوا: «يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متا عنا فأكله الذئب[4]» « وجـاؤا على قميصه بدم كذب[5]» لكن يعقوب عرف أن الذئب برئ من دم ابنه لأنه لا يشم من فم الذئب رائحة ولده وأنف المحب لا تخطىء فما بالك وإذا كانت أنف أب؟. لذلك قال: « بل سولت لكم أنفسكم أمرا ثم فوض أمره إلى الله وشكى إليه وقال:

---

(١) الأيتان ١١ . ١٢ من سورة يوسف (٢) الآية ١٣ من سورة يوسف
(٣) الآية ١٤ من سورة يوسف (٤) الآية ١٧ من سورة يوسف
(٥) من الآية ١٨ من سورة يوسف

«فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون[1]» وقصة الصراع فى الحياة تحتاج إلى التقوى والصبر لأنه بدونها يصاب الإنسان بالفشل والاضطراب وتحل به الهزيمة : والفتى الوديع الذى أخذ من بين يدى الأب الحنون أصبح وحيدا فى جب لايعرف مصيره لكن عناية الله لم تتخل عنه لأنه سبحانه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون : لذلك جاءت سيارة تأخذ الماء فتعلق بحبل دلوها . وخرج مرة أخرى إلى المجتمع الخارجى لكنه لم يرجع إلى حضن الوالد الدافىء وإنما بيع فى السوق وهو صابر محتسب لأنه تأمل فوجد نفسه صريع كيد إخوة لم يفعل فيهم شيئا وفى بيت اشترى فيه بدراهم معدودة وهو الكريم بن الكريم بن الكريم كما يقول نبينا محمد عليه الصلاة والسلام .

وتأمل معى أسلوب الامتحان الشاق الصعب للفتى الصغير الذى كان محل العطف والرعاية . أصبح اليوم سلعة مشتراه وبضاعة متنقلة لم تلبث أن تعرضت لامتحان آخر : إنه امتحان لا ينجح فيه إلا قوى الإرادة شديد الصلة بالله صاحب العزيمة القوية . لأنه فى هذه المرة امتحان إغراء فعزيز مصر الذى اشتراه دفع به إلى امرأته وقال : أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا لأنه رأى فيه سمات العز ودلائل الخير مع جمال فائق . وحسن باهر وزوجة العزيز ظنت أنها ملكت الفتى فلها أن تأمره بأى شىء فيطيع وما عرفت أن القلب لايباع والعواطف لا تشترى لذلك فكرت أنها بالمال الذى دفعه زوجها ملكت هذا الفتى وملكت زمام قلبه . وشرفه وحسه لذلك أمرته أن يفعل ما تأمره به فانقاد . ولكن عندما عرضت ما يخالف ضميره أبى بشدة وفوجئت بنفس حر لا تؤسر بقيد ولا تخضع لإغراء ولا تذل لشهوة . وأيقنت عندئذ أنها ليست أمام عبد لها . بل عبد لخالق هو به حر طليق . وهى أمامه أسيرة الهوى وعبدة لذة وأمه

---

(١) من الآية ١٨ من سورة يوسف

شهوة ... وأصبح هو سيدها ومالكها . لأنها عندما أغلقت الأبواب وقالت : هيت لك قال معاذ الله أن أخون من أحسن إلى وأن أدنس شرف من أكرمني . وأن أعصى الله بلذة تفنى ويبقى الندم فى نفسى واستمسك الفتى الحر بعفته واستغاث بخالقه . فلوحت له بالسجن والتعذيب إن لم يخضع لها فقال : « رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه[1] » لقد استنجد بربه فنجده واستغاث به فأغاثه لأنه «من يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه[2] » ولقد استجاب الله له وصرف عنه كيدهن وألقى به فى السجن وهو من قبل قد ألقى به فى الجب لكن فى المرتين اختلاف : الجب بكيد إخوته ، ولقد وجد فى الجب سند الله وعونه لأن من ألقته يد البشر لتخفضه بلا ذنب وهو صابر محتسب تستقبله يد السماء لترفعه.

لذلك أوحى الله إليه وهو فى الجب « وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون[3] » وفى السجن يذكر الله ويدعوه لأنه يؤمن بأن الله لن يتخلى عنه: لذلك اقترب من ساحة ربه ووصل نفسه به وكان يدعو من معه ليؤمنوا بهذا الإله الواحد فقد وجه الدعوة إلى المسجونين : « ياصاحبى السجين أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمران لا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون[4] » ولقد اتسع السجن الذى ذكر فى جنباته اسم الله وترددت الدعوة إليه . وشاع الخبر فى المدينة وعلى لسان النسوة بأن امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه . وأنها شغفت به حبا ... فتدعوهن إلى وليمة وتأمر يوسف أن يخرج عليهن ولما رأين جماله وحسنه قطعن أيديهن وسال دمهن

---

(١) الآية ٣٣ من سورة يوسف — (٢) الآية ٢ . ٣ من سورة الطلاق

(٣) الآية ١٥ من سورة يوسف — (٤) الآية ٣٩–٤٠ من سورة يوسف

لانبهارهن به وغياب وعيهن عند رؤية هذا الجمال الباهر وقلن حاشا لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم . وذلك لفرط جمال يوسف وحسنه . وينكشف السر وتعترف امرأة العزيز بأن يوسف طاهر وأنها هى التى راودته عن نفسه فاستعصم وظهر الحق وقال الملك ائتوني به استخلصه لنفسى فلما كلمة وعرف منه الحكمة وأنه مدبر وأمين وصادق قال له : أنك اليوم لدينا مكين أمين قال يوسف الذى عرف أن المملكة مقبلة على فترة عصيبة تحتاج إلى التدبير والتخطيط والتنظيم : « اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم. وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون[1] » وتبوأ يوسف مكان القيادة في الدولة المصرية بعد صراع رهيب ونجا لأنه تمسك بالمبادىء الكريمة مع العفة المصونة بالخلق والنزاهة وحل القحط بأهل يوسف وجاءوا إلى مصر يطلبون العون ويشترون القمح وآن للأيدى التى امتدت إلى يوسف بالأذى ورمت به فى الجب أن تأتى لطلب النجدة منه .

وحضر الإخوة الذين تآمروا عليه من قبل هذه المرة ليأتمروا بأمره .. ياسبحان الله : هذا لقاء يتم بعد أحداث خطيرة . حيث كذبوا على أبيهم وزعموا أن الذئب أكل يوسف . وها هو اليوم يراهم ويتعامل معهم بمنطق الحب الذى ملأ قلبه لأنه فوض أمره إلى الله وهو لايريد أن يقابل السيئة بالسيئة . ولكن يقابل السيئة بالحسنة . « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور»[2] وهو من أصحاب العزائم حيث صبر على الشدائد . لذلك : أخفى لغة المعرفة بهم ولم يحدثهم عن شىء ووفى لهم الكيل : ووصاهم قائلا : « إئتونى بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين فإن لم تأتونى به فلاكيل لكم عندى ولاتقربون[3] ».

(١) الآيات ٥٥-٥٧ من سورة يوسف (٢) الآية - ٤٣ من سورة الشورى

(٣) الآية - ٦٠ من سورة يوسف

لقد ذهب الإخوة إلى يعقوب أبيهم وقالوا : «يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون[1]» وهذا بلاء جديد . لكن الضرورة تحتم ذلك . ويعقوب وإن كان لايأمن الإخوة على أخيهم لسابق عملهم السىء إلا أن الظروف الملحة تحتم عليه أن يرضى .

لذلك رضى بارسال الأخ معهم وقال: «فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون[2]» ويذهب الإخوة ومعهم الأخ الأصغر ولكنهم يعودون من غيره كما عادوا قبل ذلك بدون يوسف . ومهما كانوا صادقين هذه المرة .

فإن ماحدث كان فوق مستوى تفكيرهم . إلا أن نفس الوالد المجروح بغياب يوسف يحركها الحدث القديم والجديد معا ويقول :

« ياأسفا على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم : قالوا :تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين[3]» ورجعوا إلى يوسف ومعهم الأخ الأصغر الذى دس عليه صواع الملك ليسهل عليه حبس أخيه معه . وهى حيلة . لكن إخوة يوسف قالوا ليوسف عن أخيهم « إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل»[4] وهم إنما يقصدون « يوسف » وهو يعرفهم وهم لايعرفونه ويوسف أمين لكن الافتراء دائما يجد مكانه فى النفوس الضعيفة .. إن يوسف عاش مع أخيه فى خير. ولقد عاد إخوة يوسف يطلبون بره والقوت من عنده وقالوا: «ياأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين»[5] .. هنا رفع يوسف الغموض وقال لهم : «هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ قالوا : أئنك لأنت يوسف ؟ قال:

(١) الآية – ٦٣ من سورة يوسف (٢) الآية – ١٨ من سورة يوسف
(٣) الآية – ٨٥ من سورة يوسف (٤) الآية – ٧٧ من سورة يوسف
(٥) الآية – ٨٨ من سورة يوسف

«أنا يوسف وهذا أخي قد منَّ الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين»[1]

يالهول المفاجأه ؟ أهذا يوسف الذى رميناه فى الجب؟ . وبرىء من دمه الذئب؟ . واستضافه السجن ؟ أهذا يوسف الذى ابيضت عينا والده عليه من الحزن ؟!! إن يوسف ركب سفينة الصبر والتقوى فوصلت به إلى بر السلام . وجاء يعقوب بعد أن استقبل قميص يوسف وقال : «إنى لأجد ريح يوسف» . واستقبل يوسف أبويه وإخوته وأكرم وفادتهم وأحسن إليهم وهكذا « إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين»[2].

تلك قصة : وهى نموذج فريد فى التربية شملت أنواع المجتمع .. ألم أقل لك بأن القرآن أحدث ثورة فى النفوس يمثل هذا اللون الفريد الذى يقصه علينا لنماذج بشرية عاشت فى خضم الحياة وعانت لكنها بالصبر واليقين وصلت إلى أعلى قمم النجاح ثم حافظت عليه بحسن الصلة بالله والناس لم تنتقم لنفسها ولم تغلق أبواب الخير أمام من أساء إليها . وما أجمل قصص القرآن الكريم وهو يمتزج بالنفس الإنسانية فينطلق بها فى ميدانها الفسيح فى عزم وحزم وثقة بالله : والحق أن كل كلمة فيه سواء ما يتعلق بالعقيدة أو العبادة أو المعاملات أو القصص أو أى شأن من الشئون إنما هى باب التربية الإنسانية على أكمل صورها . وأجمل معانيها .

وإذا كنت قد سقت قصة « يوسف » لما فيها من تعدد الأهداف والإتجاهات فإن القرآن مليىء بهذا اللون العظيم . فعندما أراد الحق سبحانه أن يعالج الانحراف الجنسى والشذوذ فى العلاقات قص علينا قصة قوم « لوط عليه السلام» وكيف أنه أرشدهم وقوم أخلاقهم . فلما لم يهتدوا ولم ينفع فيهم النصح

(١) الآية – ٩٠ من سورة يوسف (٢) الآية – ٩٠ من سورة يوسف

أهلكهم الله ونجى نبيه لوطا ومن آمن معه .. وعندما أراد أن يعالج انحراف التجار واستغلالهم خاصة تلك الفئة التي تحتكر الاصناف لرفع الأسعار ونقص الكيل والميزان والجشع وسوء المعاملة قص علينا قصة سيدنا شعيب عندما بعثه الله ليعالج تلك القضية ويبين ما فيها من فساد وإفساد يضران بالمجتمع . وهما سبب الهلاك والحقد لظهور الجشع والاستغلال ثم هذا « نبى الله صالح » بعثة الله ليعالج قضية الترف المادى الذى يكون سببا فى التراخى والكسل ويؤدى إلى انهيار قيم المجتمع لظهور طبقة مستغلة تتحكم فى مقدرات الناس . وهكذا: كلما قلبنا فى صفحات القرآن نجد أن التربية تحتل مكاناعظيما لأن تنقية البيئة من الخلق الفاسد ودعم الخلق الصالح هام جدا فى التربية . وفى سبيل ذلك يسوق الموعظة الحسنة كما جاء على لسان لقمان الحكيم وهو يعظ ولده : وهناك قصة بسالة حكاها القرآن الكريم . لأن قوة العزيمة وصدق اليقين والتجرد ثم الصبر والإيمان على البلاء الذى ليس بعده بلاء كل ذلك تجلى فى هذه القصة – إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام : فإبراهيم شيخ طاعن فى السن يسأل الله ولدا صالحا ويرزق به على الكبر لكنه يؤمر بأن يذهب بهذا الولد مع أمه إلى مكان بعيد غير ذى زرع لا أنيس هناك ولا جيران اللهم إلا البقعة المباركة الطيبة وتتعلق هاجر بإبراهيم زوجها وتقول له : لمن تتركنا فى هذا المكان ؟ اسماعيل صغير. وأنا امرأة . قد ينفد الزاد ويفنى الماء ؟ وهنا يقول إبراهيم : إلى الله اتركك . فتقول : الله أمرك بهذا؟ فيقول : نعم الله أمرنى بهذا . فتقول : إذن لايضيعنا الله أبدا .. ويمضى الزمن بعد أحداث وحوادث . ويؤمر إبراهيم مناما بذبح ولده اسماعيل . ورؤيا الأنبياء حق . ولكن الحقيقة مؤلمة !! إسماعيل الذى بدأ يدرج فى أحضان الأب العظيم ويشعر بدفء القلب وهو يحتضنه وكان يصب ما عنده من حنان يتجدد مع الزمن . وإذا بهذا الأب الحانى الطيب يهمس فى أذن

إسماعيل : « يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى»[١]؟؟ فيقول الشاب « إسماعيل » : « يا أبت افعل ماتؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين»[٢] !! أى بلاء هذا ؟؟ إن الأب لو ذبح ولده باليد بلا ذنب يندم وقد يبكى بينه وبين نفسه . وإبراهيم فى حاجة إلى إسماعيل لأنه بلغ معه السعى على الرزق . واسماعيل يتطلع إلى الدنيا بعين ملؤها الأمل والمستقبل الذى ينعم فيه بعمل عظيم . لكن هذا أمر الله وهو صاحب الأمر .. والطاعة مطلوبة لأن السعادة فيها دنيا وأخرى : لذلك لم يتردد إسماعيل لحظة . وإنما قال : يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين .. إن العظائم كفؤها العظماء لذلك لما أسلم إسماعيل لأمر الله لامكرها أكرمه الله ونجاه وفداه بذبح عظيم وجعل ذلك شعيرة من شعائر الإسلام ليتذكر الآباء والأبناء تلك القصة الرائعة وفيها دروس عظيمة وعبر كثيرة لأن اسماعيل قال : « يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا الهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه فى الآخرين سلام على إبراهيم»[٣] تلك نماذج بشرية أضاءت بنورها الدنيا لتكون نبراسا نقتدى به فى حياتنا وصدق الله العظيم « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده»[٤] .. وإنك لواجد ألوانا متعددة من التربية. والقرآن مملوء بآيات كريمة تدعو إلى العقل والتفكير والفكر والعلم لأنه بذلك يمكن للإنسان أن يفصل بين الخير والشر ليكون على بصيرة من أمره وإذا كانت التربية الحديثة تعنى بتقديم القصص على لسان الطير والحيوان لأن في ذلك تنمية للقدرات العقلية والفكرية وتدريبا لها على الاستيعاب والتدبر. فإن القرآن لم يغفل ذلك أيضا

---

(١) الآية – ١٠٢ من سورة الصافات (٢) من الآية – ١٠٢ من سورة الصافات
(٣) الآية – ١٠٩ من سورة الصافات (٤) الآية – ٩٠ من سورة الأنعام

فسجل أكرم وأروع ما يمكن أن يؤثر فى القلوب. ويرشد العقول ويعنى بأنواع التربية المختلفة فهذا « الغراب» الذى علم ولد آدم كيف يوارى سوأة أخيه . وهذا كلب أهل الكهف يرشد إلى الوفاء : وهذه « نملة » توجه النصيحة لجنسها حتى لايدوس عليهم سليمان بجيشه فيهلكهم وهم لايشعرون وذلك لصغر حجم النملة وعدم رؤيتها وهذا « هدهد» يكشف عن أمر خطير يقع من البشر ويستنكر على من يسجد للشمس من دون الله .. وهكذا : تجد العديد من هذا اللون من التربية التى جاءت على لسان بعض الحيوانات والطيور لتكون العبرة أبلغ والعظة لها أثر كبير .. وإذا كان الأمر كذلك فإن القرآن يلفت النظر إلى قدرة الله فى خلق الإنسان الذى أنشأه الله من العدم ورباه على موائد الكرم . ولهذا يقول الله « وفى أنفسكم أفلا تبصرون»[1] وإذا سأل الإنسان غيره كيف خلقت ؟ كانت الإجابة « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين»[2] وبعد ذلك : « ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون»[3] وهذا الإنسان خلق فى قرار مكين . ولكن أصله من ماء مهين وقبل ذلك طين لازب « ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين إلى قدر معلوم»[4] وتلك هى المرحلة الأولى فى تكوين الإنسان ظلمات ثلاث فى بطن الأم . وتلك بدايته . فإذا خرج إلى الحياة خرج وحالته كما يصورها القرآن « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون »[5] ثم يعتنى برضاعته طفلا

---

(١) الآية – ٢١ من سورة الذاريات
(٢) الآية – ١٢ . ١٣ . ١٤ من سورة المؤمنون
(٣) الآية – ١٥ . ١٦ من سورة المؤمنون
(٤) الآية ٢٠ . ٢١ . ٢٢ من سورة المرسلات
(٥) الآية – ٧٨ من سورة النحل

وحضانته . وتحديد المسئوليات التى تحفظ حقوق هذا الوليد الذى لايمكن أن يتحمل مسئولية نفسه : لذلك نبه الأم أن تقوم بإرضاعه وعلى الأب أن يتولى مسئولية الإنفاق عليه ونقرأ فى هذا « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة . وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لاتكلف نفس إلا وسعها لاتضار والدة بولدها ولامولود له بولده . وعلى الوراث مثل ذلك»[1]. ويهتم القرآن بالأمومة ويجعل البر بها ممتدا لاينقطع ولا يجعل للمشاكل التى قد تنشأ بين الأبوين أى تأثير علي حقها أو حق الوليد فيقول : « أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولاتضاروهن لتضيقوا عليهن . وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن . فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف»[2] .. ونبه الأم أن لاتنسى أمومتها كما يثير فيها دواعى الحب والرحمة ويعمل على توطيد أواصر الألفة والمودة بين الزوجين اللذين ينشأ بينهما المولود : « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة»[3] :« والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات »[4] . والقرآن يحاول أن يجنب الأسرة أسباب الخلاف . ويذكرها بالرحم فإن دب خلاف بين زوجين أو خيف شقاق . ندب القرآن أولى الفضل من الرجال وأولى القرابة من الأرحام أن يتدخلوا للتوفيق .

وهكذا يهتم القرآن بشأن الإنسان من لحظة ولادته وقبلها بتهيئة المناخ الطيب . واختيار الزوجة الصالحة ليشب الطفل فى بيئة صالحة وأسرة متماسكة. ترعى حق الله والناس . وإذا فقد الطفل أبويه أو إحداهما فإن القرآن يحث على رعاية الأيتام وينبه إلى قيام الدولة برعايتهم ثم يضع بعد ذلك ضوابط للإنسان:

---

(١) من اللآية – ٢٣٢ من سورة البقرة (٢) من الآية – ٦ من سورة الطلاق

(٣) من الآية – ٢١ من سورة الروم (٤) من الآية – ٧٢ من سورة النحل

علاقته بربه . علاقته بأسرته علاقته بجيرانه . علاقته بالمجتمع . كيف يدخل البيوت . كيف يجلس فى المجالس . المعاملة . السلوك . كل شئون الإنسان الفردية والجماعية والاجتماعية ليبينها ويشرح أسلوب التعامل وهكذا ليحيا الإنسان في الكون وله منهج موحد يسعد من خلال تطبيقه . وكل فرد مكلف أن يرعى مصلحة الجماعة كأنه حارس عليها موكل بها . ففى الأثر : كل مسلم على ثغر من ثغور الإسلام فإن تهاون إخوانك فاشدد أنت لألا يؤتى الإسلام من قبلك. وما أصدق هذا الحديث الذى تسمعه من فم نبى الإنسانية وهو يحدد لنا أن المجتمع بسفينة فى بحر والراكبون هم أفراد المجتمع . كل مسئول عن سلامة تلك كسفينة « إن قوما ركبوا سفينة فاقتسموا فصار لكل منهم موضع فنقر رجل منهم موضعا بفأس فقالوا له : ما تصنع قال هو مكانى أصنع فيه ما أشاء فإن أخذوا على يديه نجا ونجوا جميعا . وإن تركوه هلك وهلكوا جميعا . وهذا تصوير رائع وبديع من رسول الله صلي الله عليه وسلم لتشابك مصالح البشرية وتوحدها بإزاء التفكير الفردى الذى يأخذ بظاهر المعانى النظرية . ولا يفكر فى آثار الوقائع العملية وهو فى نفس الوقت رسم دقيق لواجب الفرد وواجب الجماعة فى مثل تلك الأحوال وصدق الله العظيم : «واتقوا فتنه لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة»[1] وليس فى المجتمع فرد معفي من رعاية المصالح العامة : فكل فرد را ع لأمانة المجتمع . وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم «كلكم را ع وكلكم مسئول عن رعيته » . وهو يحدد تلك المسئولية يمنح الشخص حرية الرأى والتعبير بشرط عدم الإساءة إلى الآخرين إلا بالقدر الذى يوضح نظريته .

ثم يعطيه حرية التملك بشرط عدم المساس بملك الآخرين حرية التعلم

(١) الآية – ٢٥ من سورة الأنفال

حرية العقيدة . حرية المأوى فى السكن وعدم الدخول عليه بغير إذنه . والمساواه بين الناس فى الحقوق المدنية والسياسية مالم يكن هناك مايستوجب حرمانه من ذلك كأن يشيع الفاحشة ويشهد بالأبرياء : ثم يحدد مهام الدولة وأسس نظامها ويصنع لها من التشريع ما يضمن لها الاستقرار والأمان وهى سلطات ثلاث :

السلطة التشريعية : السلطة القضائية : السلطة التنفذية ثم يأتى بعد ذلك علاقة الدولة بالدولة المجاورة ، سياسة الإسلام فى الحرب والسلام العالمى. وهكذا يربى الإسلام أتباعه ليقيم بهم دولة تكون مصدر خير وأمان وأمن يشيع منها النور تهدى إلى الخير بأعمالها حيث يسود التكافل الاجتماعى أبناءها والمعاشرة الجميلة بين جميع أفرادها . فكل له حق وعليه واجب وهكذا ترى معجزة القرآن بعد أن بينت أصول التربية فكانت العناية بالإنسان الذى سوف ينتفع بتلك القيم العالية من التوجيه السليم . ويقيم كل ذلك فى ظل حكومة تعمل بالشورى وتأخذ بها وتسوى بالعدل . وتقيم الحق ... والكثير من آيات القرآن تنفى أن تكون للرسول سلطة على أحد وبالتالى فليس لأحد ممن يتولى رئاسة الدولة أن يكون له سلطة على أحد إلا فى حدود الدستور والقانون المتفق عليهما والمعمول بهما فى الدولة . يقول الله « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر»[1] بل إن الرسول صلى الله عليه وسلم يعتز ببشريته وبصفة القرآن بأنه بشر يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ولهذا لايليق أن تخلع ألقاب التقديس على أحد من البشر ولا نمنحه حق الاستبداد برأيه . وإنما ونحن نعترف بالحكومة . علينا أن تعترف برئيس الدولة ليكون له المكان الأول وتسلمه مقاليد الرياسة العليا وتمنحه حق التصرف فى مختلف السلطات فإن استبد برأيه خلعته وإن استشار ونفذ حكم الله وحكم رسوله ومواد الدستور فله السمع والطاعة .

---

(١) الآية – ٢١ ، ٢٢ من سورة الغاشية

وهكذا تتحدد المسئوليات حتى لايضيع الحق أو تضيع الامة . وكل ذلك من خلال القرآن الذى احدث الثورة فى المجتمع عند نزوله واصبح له الهيمنة والخلود لملائمته لكل زمان ومكان .

وبعد

فمما سبق تبين أن الإسلام هو كلمة الله الخالدة . دعا إلى الإسلام كل نبى وهتف به كل رسول . نطقت بعقائده وتشريعاته كلمة الوحى سمحاء ونقية لاعوج فيها ولا التواء ولا غموض ولا ابهام . بل يسر ووضوح ونبع هذه الرسالة كتب الله التى نزلت على الانبياء . زابور داود ، صحف إبراهيم . توراه موسى . انجيل عيسى . ثم بعث الله محمدا خاتما للنبين والمرسلين ولقد مشى على هديهم وتأسى بهم ودعا إلى مادعا إليه هؤلاء الانبياء والذى ببعثته ختمت الرسالات السماوية :

« قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولابكم »[1] وتميزت الر[illegible] الخاتمة الخالدة بالشمول واستبانت معالمها . وأصبح ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك . وصار لها بذلك حصانة وأصالة ترد عنها كل زيف . ومع مر الأيام وكر الأعوام وموكب الفكر الهادى المستنير على ضوئها ينشر راياته لأنها ظلت وستظل تمد الأجيال والحياة بالحق الذى لايلابسه باطل .

« وبالحق انزلناه وبالحق نزل . »[2]

« ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر . »[3]

والإسلام دين حضارة عامة شاملة ترقى بحياة الانسانية الدنيوية وتحقق تقدم البشرية وتعالج المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ثم ندعو إلى

---

(١) الآية – ٩ من سورة الأحقاف (٢) الآية – ١٠ من سورة الإسراء

(٣) الآية – ١٧ من سورة القمر

الاتحاد والحرية وتؤكد على نظام الشورى والمساواة وتحث على العمل وتدعو إلى السعى مع التعاون على البر والتقوى .

والإسلام ثورة على الظلم والطغيان والتخلف الفكرى والحضارى . وعند ما بعث الله بهذا الدين محمدا عليه الصلاة والسلام فى القرن السابع الميلادى كان المجتمع الانسانى يعانى من الخلخلة الفكرية والانحطاط الأخلاقى والإنحدار العقائدى . لذلك استجابت له النفوس المتعطشة إلى الحق والباحثة عنه لأنها رأت بعين الحقيقة أن الإسلام هو أعظم حركة إصلاحية وأن ما فيه من مبادىء عظيمة تكمن سعادة الانسان فيه مهما كان لونه أو جنسه أو وضعه .

ولقد أكد الاسلام منذ ظهوره انه دين عام . شامل . خالد وأنه صالح لكل زمان ومكان . لكل جنس ولكل عقل ولكل درجة من درجات الحضارة ولما كان الإسلام ثورة على الظلم فلابد ان يواجه بحركات مضادة .

ويصبح الصراع بين الحق والباطل بين الخير والشر . بين القديم الرجعى وبين الجديد الناهض ، ويستمر هذا الصراع ويحتدم احيانا لكن النصر فى النهاية للحق والغلبة للخير .

« إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا »[1] .

« كتب الله لأغلبن أنا ورسلى »[2] .

« إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا »[3] .

« ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون »[4] .

---

(١) الآية – ٥١ من سورة غافر
(٢) الآية – ٢١ من سورة المجادلة
(٣) الآية – ١٢ من سورة الأنفال
(٤) الآية – ١٠٥ من سورة الأنبياء

« إن الله يدافع عن الذين آمنوا »[1]

ونصر الله للمؤمنين قائم دائم إذا كانوا مع الحق وعنه يدافعون لأن ناصر الحق هو من جند الله وهم دائما الغالبون .

« وإن جندنا لهم الغالبون»[2] .

إن الحق يمد اتباعه بقوته ويؤيدهم بجنده .

«وما يعلم جنود ربك إلا هو»[3] . والنصر للإسلام مهما حاولوا أن يخذلوه فلن يرى خذلانا وتلك مشيئة الله والتاريخ أكبر شاهد والواقع يؤيد واحداث التاريخ تنطق فهذا موسى عليه السلام . فرعون مصر يطارده حتى وصل إلى البحر وهنا قال قومه : يا موسى إلى أين ؟؟

العدو وراءنا والبحر امامنا !! فقال لهم : إن معى ربى سيهدين وهنا قال الله « اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم »[4] ومن قبل موسى ابراهيم عليهما السلام . أوقد له اعداؤه النار التى اشتعلت اياما وليالى ثم رمى به قومه واعداؤه فى النار فما كاد يرمى حتى قال الله لها « يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم »[5] .

وهذا محمد عليه الصلاة والسلام نزل الغار ومعه الصديق أبو بكر رضى الله عنه الذى قال لنبى الله لو نظر احدهم تحت قدميه لرآنا فقال له النبى يا أبا بكر لاتخف مابلك باثنين الله ثالثهما .

بل إن التاريخ يحفظ لنا ان عمر بن الخطاب وهو على منبر المسجد النبوى

---

(١) الآية – ٣٨ من سورة الحج
(٢) الآية – ١٧٣ من سورة الصافات
(٣) الآية – ٣١ من سورة المدثر
(٤) الآية – ١٦٠ من سورة الأعراف
(٥) الآية – ٦٩ من سورة الأنبياء

فى المدينة ينكشف له الغطاء ويرى جيشه الذى يقوده ساريه فى مأزق لو تقدم لحظات فصاح ياسارية الجبل فلزم سارية الجبل كأمر عمر بن الخطاب وكتب الله له النجاه . كيف نعلل ذلك ؟؟ نعلله بأن « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور »(١) .

وأمام ذلك كله علينا ان نعتقد اعتقادا لايخالطه شك بأن انصار الحق ينصرهم الله ولو بعد حين . فقد يكون الباطل قويا ولكن سرعان ما يذوب وينهار ويتلاشى ويبقى الحق بنصاعته . وصدق الله العظيم :

« لايغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد »(٢) وكذلك قول الحق :

« حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولايرد بأسنا عن القوم الظالمين »(٣) .

تلك لفته طيبة علينا ان نعيها وأن نستفيد من الدرس الذى حفظه التاريخ ووعاه ونذكر انفسنا وأولادنا بذلك :

« فإن الذكرى تنفع المؤمنين »(٤) .

ونحن نعود إلى صاحب الرسالة وحامل لوائها والداعى إليها لنرى كيف كان مع القوم الظالمين .

فى البداية :

إن الإسلام الذى حمل لواءه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأوجد ثورة

---

(١) الآية – ٢٥٧ من سورة الأعراف (٢) الآية – ١٩٦ من سورة آل عمران

(٣) الآية – ١١٠ من سورة يوسف (٤) الآية – ٥٥ من سورة الذاريات

فى المجتمع وووجه من أول لحظة بحركات مضادة أولها من البداية حركة المشركين فى مكة وكان ذلك على مدى ثلاثة عشر عاما بدأ هذه الأعوام بالدعوة سرا إلى عبادة الله الواحد وكان أهل مكة جفاه لادين لهم يسجدون للأصنام وهى لاتنفع ولاتضر لكن التقليد الأعمى لما كان يفعله الآباء والتمسك بقيم بالية وأخلاق هابطة وكانت قلوبهم غليظة لم تستجب لدعوة الحق . وطاردوا صاحب الرسالة وعذبوا أصحابه وتمادوا فى عنتهم إلى أن تآمروا عليه بالقتل :

« وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين »[1] .

ولما كان صاحب الرسالة على حق لم تلن قناته ولم تضعف عزيمته ولم يستجب لدواعى الاغراء التى قدموها إليه بل صمد على الحق وثبت على اليقين ورغم قله عدد اصحابه وعناد المشركين له فإن النصر كان حليفة: لإن الداعى إلى الحق لن يخذل أبدا فهو يؤمن ويعتقد أن الله ناصره ولو بعد حين. فهو إن عاش عاش سعيدا تحت راية الحق، وإن مات مات شهيدا حوله الحور العين فى مقام أمين فى مقعد صدق عند مليك مقتدر وصدق الله العظيم :

« والذين جاهدوا فينا لنهد بينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين »[2] .

« إنا لانضيع أجر من أحسن عملا »[3] .

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها لايبغون عنها حولا »[4] .

---

(١) الآية – ٣٠ من سورة الأنفال
(٢) الآية – ٦٩ من سورة العنكبوت
(٣) الآية – ٣٠ من سورة الكهف
(٤) الآية – ١٠٧، ١٠٨ من سورة الكهف

وإذا كان هذا إيمان الداعية الأول بانه يحيا للحق ويحمل رايته وإليه يدعوا فإنه فى سبيل ذلك تحمل الكثير من الاذى خاصة من الذين سموا أنفسهم بالمستهزئين وقد اشارا القرآن إليهم حيث قال :

« إنا كفيناك المستهزئين»[1] واول هؤلاء أبو جهل وكان من أشدهم عداوة للنبى صلى الله عليه وسلم واسمه « عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومى القرشي» وأطلقوا عليه أبا جهل لجهله بالقيم الأخلاقية وتنكره للمبادىء الفاضلة وخروجه على العرف السائد فى المجتمع من مراعات حقوق الجار ووجوب معاملته بالذوق والأدب . لذلك قال فى يوم من الأيام: يامعشر قريش إن محمدا قداتى ماترون من عيب دينكم وشتم آلهتكم وتسفيه أحلامكم وسب آبائكم إنى اعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر لا أطيق حمله . فإذا سجد فى صلاته رضخت به رأسه فأسلمونى بعد ذلك أو امنعونى ليصنع بى بعد ذلك بنو عبد مناف مابدا لهم . فلما اصبح اخذ حجرا كما وصف ثم جلس لرسول الله ينتظره وغدا عليه السلام كما كان يغدوا إلى صلاته وقريش فى أنديتهم .

ينتظرون ما أبو جهل فاعل . فلما سجد عليه السلام احتمل ابو جهل الحجر وأقبل نحو الرسول حتى إذا دنا منه رجع منهزما منتقعا لونه من الفزع ورمى حجره من يده . وقام إليه رجال من قريش فقالوا مالك يا أبا الحكم؟ قال قمت إليه لافعل ما قلت لكم فلما دنوت منه عرض لى فحل من الإبل والله ما رأيت مثله قط هم بى أن يأكلنى فلما ذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «ذاك جبريل ولودنا لأخذه» .

ومع هذا الايذاء فقد صبر واحتمل ولم يقبل أى لون من ألوان التهديد فإن عقبة بن أبى معيط كان الجار الثانى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صنع

---

(١) الآية – ٩٥ من سورة الحجر

مرة وليمة ودعا لها كبراء قريش وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى قال:
والله لا آكل طعامك حتى تؤمن بالله فتشهد أني رسول الله فبلغ ذلك أبى بن
خلف. وكان صديقا لعقبة فقال : ما شىء بلغنى عنك . يقصد إنه اسلم : قال
عقبة : لاشىء دخل منزلى رجل شريف فأبى ان يأكل طعامى حتى اشهد له
فأستحييت أن يخرج من بيتى . ولم يطعم فشهدت له . قال أبى بن خلف...
وجهى من وجهك حرام إن لقيت محمدا فلم تطأ عنقه وتبذق فى وجهه وتلطم عينه
فلما رأى عقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل به ذلك فأنزل الله فى شأنه
وشأن امثاله ، ومن على شاكلته « ويوم يعض الظالم على يديه . يقول يا ليتنى
اتخذت مع الرسول سبيلا . يا ويلتا ليتنى لم اتخذ فلانا خليلا لقد أضلني عن
الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا »[1] هكذا نلحظ صبر الداعية
الأول وتحمله لأنه تعلم حقيقة ما يدعوا إليه وأنه يحمل رآية حملها من قبله اولى
العزم وصبروا على ما كذبوا وتحملوا وهو مثلهم . لذلك صبرواحتسب وكان يجا به
الكلمة بالكلمة والرأى بالرأى ولم يرفع السيف فى وجه واحد ابدا حتى عقبة بن
ابى معيط الذى أقبل على النبى صلى الله عليه وسلم فى حجر الكعبة فوضع
ثوبه فى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم فخنقه خنقا شديدافأقبل ابو بكر
فأخذ بمنكبه ودفع عقبة عن النبى صلى الله عليه وسلم وقال : « اتقتلون رجلا ان
يقول ربى الله ولقد جاءكم بالبينات من ربكم »[2] إن المشركين لم يكفهم هذا بل
طلبوا من النبى صلى الله عليه وسلم معجزة وراء معجزة والغرض من ذلك تعجيز
النبى حتى يظهر امام العالم بأنه عاجز من تلبية مطالبهم وتحقيق رغباتهم والنبى
فى زعمهم ليس كذلك لذلك اجتمع المشركون فى يوم وقالوا :

يا محمد إن كنت صادقا فأرنا آية نطلبها منك . فقال لهم وماذا تريدون ؟

---

(١) الآيات – ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ من سورة الفرقان (٢) الآية – ٢٨ من سورة غافر

فقالوا : شق القمر لنا فرقتين ... فسأل النبى صلى الله عليه وسلم ربه فأعطاه هذه المعجزة وانشق القمر فرقتين كما روى بن مسعود وعبد الله بن عباس وجمع غزير من الذين رأوا هذا الحدث الفريد فى مكة حتى صار كالمتواتر وقد أكد القرآن الكريم ذلك حيث قال : « اقتربت الساعة وانشق القمر »[1] .

لكن المعاندين قالوا . هذا من سحر ابن أبى كبشة « يقصدون به أبوه من الرضاع زوج السيدة حليمة » .

فأنزل الله ردا على كلامهم وبيانا لتعنتهم واعراضهم عن الحق « وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر وكذبوا واتبعوا أهوائهم وكل أمر مستقر »[2].
إن الحق سبحانه وتعالى هو خالق البشر يعلم ما تكنه جوارحهم ويعلم ان جوانح قريش انطوت على التعصب والعناد . لذلك انزل فى القرآن أنه لايرجى خير من هؤلاء لأنهم قالوا كما جاء فى سورة الأنفال : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو إئتنا بعذاب أليم »[3].

وكان الأولى بهم أن يقولوا "اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه" . لكن العناد والمكابرة استوليا على نفوس المشركين . لذلك طلبوا أشياء لايصح ابدا ان تطلب ولا ان يتحدثوا فيها من ذلك قولهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

« لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ، أو تأتى بالله والملائكة قبيلا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه »[4] .

(١) الآية -١ من سورة القمر (٢) الآية - ٢ . ٣ من سورة القمر

(٣) الآية - ٣٢ من سورة الأنفال (٤) الآيات - ٩٠ : ٩٣ من سورة الإسراء

ولقد كان رده عليهم فى غاية الحكمة وبيان مقدرته وقدرته وإنه لم يأت خارقا للنواميس الطبيعية وإنما جاء برسالة يحملها من الله وما هو إلا مبلغ ومنذر وحجته القرآن . لذلك قال لهم كما علمه ربه :

إن المشركين الذين وقفوا من الداعية الأول هذا الموقف كانوا على نهج من سبقوهم من الأقوام فإن قوم إبراهيم عليه السلام قالوا لبعضهم:

(حرقوهوانصروا آلهتكم)

واتباع فرعون تآمروا على قتل موسى حتى قال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه :

«أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله»[1] .

وهكذا تجرى سنن الحياة على نسق واحد فأصحاب النفوس الضعيفة والقلوب المريضة لا تؤثر فيهم آيات الوحى ولا ترقق مشاعرهم لأنها كما قال الحق سبحانه :

«فهى كالحجارة أو أشد قسوة»[2] .

لكن الذى يهمنا فى هذا المقام هو أن صاحب الدعوة ظل شامخا فى تواضع عظيما فى لين كريما فى عزة لم يضعف ولم تؤثر فيه التهديدات ولهذا صاح فى الناس .

« قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا »[3]

فإذا كان العرب لم يؤمنوا فإن وحى الله سوف يجد القنوات الشرعية التى يتخلل من خلالها إلى النفوس الطيبة والقلوب السليمة وتتصل بوحى الله وتكون على بينة من أمر دينها ودنيها .

---

(١) الآية - ٢٨ من سورة غافر　　　(٢) الآية - ٧٤ من سورة البقرة

(٣) من الآية - ١٥٨ من سورة الأعراف

«افمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله»[1] .

ومن أجل أن يعرف القاصى والدانى فعلى الداعية الأول أن يجهر بدعوته وأن يعلن على الدنيا باسرها أنه نبى يحمل رسالة إليه ليقوم بابلاغها بلا تزيد أو نقصان وإلى هذا أشار الحق سبحانه « يأأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس»[2] وسواء أكانت الدعوة سرية أم جهرية علنية فهى وحى من الله وتحديد لمسئولية الفرد فى المجتمع ولعلاقته بين الناس جميعا أفرادا كانوا أم دولا فوحى الله يحى النفوس ويهدى القلوب وينير البصائر «أو من كان ميتا فاحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها»[3] وصدق الله « وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور[4] .

الدعوة الجهرية

ظلت دعوة الإسلام تسرى فى النفوس بقوة القرآن الكريم وشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وكل ذلك فى نطاق سرى حتى نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم سورة من السور المكية [5] وفيها قوله تعالى «وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين»[6].

---

(١) من الآية – ٢٢ من سورة الزمر (٢) من الآية – ٦٧ من سورة المائدة
(٣) من الآية – ١٢٢ من سورة الأنعام (٤) من الآية – ٥٣ من سورة الشورى
(٥) الإعلام فى صدر الإسلام للدكتور عبد اللطيف حمزة ص١١٨ ط دار الفكر العربى
(٦) الآيتان ٢١٤ ، ٢١٥ من سورة الشعراء

يقول الإمام القرطبى لما نزلت هذه الآية [وأنذر عشيرتك الأقربين] دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا فاجتمعوا فعم وخص فقال : يابنى كعب بن لؤى انقذوا أنفسكم من النار ، يا بنى عبد مناف انقذوا أنفسكم من النار يابنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار يا بنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار يا فاطمة انقذى نفسك من النار فإنى لا أملك لكم من الله شيئا غير أن لكم رحما سأبلها [1] بلالها [2].

منذ هذه اللحظة علم الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله سبحانه وتعالى يأمره بتوسيع رقعة الدعوة ويخرج الرسول من نطاق الدعوة السرية إلى نطاق الدعوة العلنية . ورجل الإعلام ينظر إلى هذه المرحلة فيجد أنه قد أضيفت إلى الوسيلتين السابقتين من وسائل الإعلام فى المرحلة السرية [وهما وسيلة القرآن ووسيلة المؤمنين الأولين] .

وسيلتان أخريان وهما :

١- وسيلة الخطبة النبوية

٢- وسيلة الاتصال المباشر بجماهير الناس وذلك بأن يعرض النبى صلى الله عليه وسلم نفسه على القبائل العربية .[3]

الوسيلة الأولى .

قال عبد الله بن أبى الحكم لما نزلت على النبى صلى الله عليه وسلم «وأنذر عشيرتك الأقربين » اشتد ذلك على النبى صلى الله عليه وسلم وضاق به ذرعا

---

(١) تفسير القرطبى للإمام الطبرى ص٧ ص٤٨٥٩ ط الشعب

(٢) سأبلها بلالها . أى أصلكم فى الدنيا ولا أغنى عنكم من الله شيئا

(٣) الإعلام فى صدر الإسلام للدكتور عبد اللطيف حمزة ص١١٨ ط دار الفكر العربى

فمكث شهرا أو نحوه جالسا فى بيته حتى ظنت عماته أنه شاك فدخلن عليه عائدات فقال: ما اشتكيت شيئا لكن الله أمرنى أن أنذر عشيرتي الأقربين فأردت جمع بنى عبد المطلب لأدعوهم إلى الله تعالى قلن :[فادعهم ولا تجعل عبد العزى فيهم يعنى أبالهب فإنه غير مجيبك إلى ما ندعوه إليه وخرجن من عنده فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى بنى عبد المطلب فحضروا ومعهم عدة من بنى عبد مناف وجميعهم خمسة وأربعون رجلا وسارع إليه أبو لهب وهو يظن أنه يريد أن ينزع عمايكرهون إلى ما يحبون فلما اجتمعوا قال أبو لهب : هؤلاء عمومتك وبنوعمك فتكلم بما تريد ودع الصلاة واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة وإن أحب من أخذك فحبك أسرتك وبنو أبيك إن أقمت على أمرك فهو عليهم من أن يثب بك بطون قريش وتمدها العرب فما رأيت يا ابن أخى أحدا قط جاء بنى أبيه وقومه بشر ما جئتهم به فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يتكلم فى ذلك المجلس ومكث أياما وكثر عليه كلام أبى لهب فنزل عليه جبريل عليه السلام فأمره بإمضاء ما أمر الله به وشجعه عليه ، فجمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثانية فقال : الحمد لله أحمده وأستعنيه وأومن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ثم قال : إن الرائد لايكذب أهله والله لوكذبت الناس جميعا ما كذبتكم ولوغررت الناس ما غررتكم والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا وإنها للجنة أبدا أو النار أبدا وانكم لأول من أنذر ومثلى ومثلكم كمثل رجل رأي العدو فانطلق يرا[1] أهله فخشى أن يسبقوه فجعل يهتف يا صحباه فقال أبو طالب : ما أحب إلينا معا ونتك ومرادفتك وأقبلنا لنصحك وأشد تصديقنا لحديثك وهؤلاء

(١) أى طليعة لهم خوفا أن يكسبهم العدو على عزة

بنو أبيك مجتمعون وإنما أنا أحدهم غير أنى والله أسرعهم إلى ما تحب فامض لما أمرت به فوالله لاأزال أحوطك وأمنعك غير أنى لا أجد نفسى تطوع إلى فراق دين عبد المطلب حتى أموت على مامات عليه .

وتكلم القوم كلاما لينا غير أبى لهب فإنه قال : يا بنى عبد المطلب هذه والله السوءة خذوا على يديه قبل أن يأخذ على يديه غيركم فإن أسلمتموه حينئذ ذللتم وإن منعتموه قتلتم .

فقال أبو طالب والله لنمنعنه ما بقينا .

وقالت صفية بنت عبد المطلب لأبى لهب أى أخى أيحسن بك خذلان ابن أخيك وإسلامه فوالله مازال العلماء يخبرون أنه يخرج من ضئضىء[1] عبد المطلب نبي فهو هو فقال هذا والله الباطل والأمانى وكلام النساء فى الحجال إذا قامت بطون قريش كلها وقامت معها العرب فما قوتنا بهم ؟ فوالله ما نحن عندهم إلا إكلة رأس.

الوسيلة الثانية

خرج النبى صلى تالله عليه وسلم إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة بهم من قومه ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله سبحانه وتعالى فلما انتهى إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف وهم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم وهم أخوة ثلاثة عبد يا ليل ومسعود وحبيب بنو عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة بن غيرة بن عوف بن ثقيف وعند أحدهم إمرأة من قريش من بنى جمح فجلس إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمهم على ما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالف من قومه فقال له أحدهم هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك .

(١) ج٢ ص٤٣١-٤٣٣ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٩٤/١٩٧٤

وقال الآخر أما وجد الله أحدا غيرك؟ وقال الثالث لا أكلمك أبدا لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى أن أكلمك فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم وقد يئس من خير ثقيف وقد قال لهم فيما ذكر لى إذ فعلتم فاكتموا على وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومه فلم يفعلوا بل أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون حتى اجتمع عليه الناس.

قال موسى بن عقبة قعدوا له صفين على طريقه فلما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين صفيهم جعل لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوها[1] بالحجارة حتى أدموا رجليه .

وقال ابن عقبة فخلص منهم ورجلاه تسيلان دما فعمد إلى حائط[2] من حوائطهم فاستظل فى ظل حبله[3] منه وهو مكروب موجع وإذا فى الحائط عتبة وشيبة ابنا ربيعة فلما رآهما كره مكانهما لما يعلم من عداوتهما لله والرسول قال فلما رآه ابنا ربيعة وما لقى تحركت له رحمهما فدعوا غلاما لهما نصرانيا يقال له عداس فقالا له خذ قطفا من هذا العنب فضعه فى هذا الطبق ثم إذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه ففعل عداس ثم أقبل به حتى وضعه بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال له كل فلما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده قال بسم الله ثم أكل فنظر عداس فى وجهه ثم قال والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أى البلاد أنت ياعداس وما دينك؟ قال نصرانى وأنا من أهل نينوى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ فقال له عداس وما يدريك ما يونس ابن متى؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذاك أخى كان نبيا وأنا

---

(١) الرضخ هو الدق والكسر (٢) الحائط. البستان من النخيل إذا كان عليه جدار

(٣) الحبلة . هى الأصل أو القضيب من شجر الأعناب

نبى فأكب عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه فلما جاءهما عداس قالا له ويلك مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال سيدى ما فى الأرض شىء خير من هذا لقد أعلمنى بأمر لايعلمه إلا نبى قالا ويحك ياعداس لايصرفنك عن دينك فإن دينك خير من دينه[1].

الإضطهاد الدينى فى مكة

المشركون يؤذون النبى صلى الله عليه وسلم! مرت بالرسول صلى الله عليه وسلم مرحلة الاضطهاد الدينى بمكة المكرمة .... وكانت هذه المرحلة أعنف المراحل التى مرت فى حياته صلى اله عليه وسلم ولكنه قابل هذه المرحلة العنيفة بالصبر وكانت قريش تمارس هذا الاضطهاد والتعذيب مع النبى نفسه[2]

وفى ذات يوم كان الرسول ساجدا ألقى أبو جهل رحم شاة مذبوحة عليه فيتحمل الأذى ويعيد تطهير ثيابه .

واجتمع أشراف قريش يوما فى الحجر[3] وأخذوا يسبونه فبينما هم كذلك طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم طائفا بالبيت فكلما مر عليهم وهو يطوف غمزوه بالقول وفى المرة الثالثة قال لهم « أما والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذبح[4]

وفى الغد كانوا مجتمعين أيضا بالحجر فلما طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبوا عليه وثبه رجل واحد وأحاطوا به يقولون وأنت الذى تقول كذا كذا أى تسب آلهتنا وتعيب ديننا قال لهم رسول الله فى جرأة الحق وشجاعة الإسلام نعم أنا الذى أقول ذلك فقام أحدهم وأخذ بجمع رداءه ليقتله وهنا نهض

---

(١) عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير لابن سيد الناس ص١٣٤ ،١٣٥

(٢) الإعلام فى صدر الإسلام للدكتور عبد اللطيف حمزة ص١٢٤ ، ١٢٥ ط دار الفكر العربى

(٣) الحجر من معانيه الكعبة (٤) أى الهلاك إن لم تؤمنوا

أبو بكر مستنكرا عليهم ذلك وقال باكيا[1] « أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله[2] »

المشركون يؤذون المستضعفين من المسلمين .

أتباع النبى صلى الله عليه وسلم من المسلمين المستضعفين تعرضوا لكثير من أنواع الأذى والتعذيب قال سعيد بن جبير قلت لابن عباس أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يعذرون به فى ترك دينهم؟ قال : نعم . والله إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر يقوى جالسا من شدة الضر الذى نزل به يقولون له : اللات والعزى إلهك من دون الله فيقول نعم . افتداء منهم مما يبلغون من جهدهم .

ومن المستضعفين بلال رضى الله عنه ، وكان صادق الإسلام طاهرا ... فكان أميه بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى فيقول وهو فى ذلك البلاء أحد أحد أنا كافر باللات والعزى .

وقال عمرو بن العاص مررت ببلال وهو يعذب فى الرمضاء ولو أن بضعة لحم وضعت عليه لنضجت وهو يقول أنا كافر باللات والعزى ، وأمية مغتاظ عليه فيزيده عذابا . وقال عمير بن إسحاق كان بلال إذا اشتد عليه العذاب قال أحد أحد فيقولون له : قل كما نقول فيقول إن لسانى لاينطق به ولايحسنه .

وروى البلاذرى بسند صحيح عن محمد بن سيرين قال : لما أسلم بلال أخذه أهله فقمطوه [3] والقوا عليه من البطحاء وجعلوا يقولون ربك اللات والعزى

---

(١) من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم للأستاذ/ سعد صادق محمد ص٩٠ ط السنة المحمدية ١٩٦٧/١٣٨٦

(٢) سورة غافر الآية ٢٨ (٣) شدوا يديه ورجليه

فيقول أحد أحد فأتى عليه أبو بكر رضى الله عنه فقال : علام تعذبون هذا الإنسان ؟ فاشتراه بسبع أواق وأعتقه فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم أنه قد اشتراه فقال الشركة يا أبا بكر فقال قد اعتقته يا رسول الله .

ومن المستضعفين أيضا خباب بن الأرت .

قال البلاذرى قالوا كان الأرت سواديا [1] فأغار قوم من ربيعة على الناحية التى كان فيها فسبوه وأتوابه الحجاز فباعوه فوقع إلى سباع بن عبد العزى الخزاعى حليف بنى زهرة وزعم أبو اليقظان أن خبابا كان أخا سباع لأمه وروى البلاذرى عن أبى صالح قال كان خباب قينا[2] وكان قد أسلم فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بألفة ويأتيه فأخبرت بذلك مولاته فكانت تأخذ الحديدة وقد أحمتها في النار فتضعها على رأسه فشكى ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اللهم إنصر خبابا فاشتكت مولاته رأسها وهى أم أغار فكانت تعوى مع الكلاب فقيل لها اكتوى فكان خباب يأخذ الحديدة قد أحماها فيكوى بها رأسها[3].

وروى البخارى بسنده عن خباب بن الأرت رضى الله عنه قال : شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة فقلنا ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا؟ فقال قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لايخاف إلا الله عز وجل والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون [4] .

---

(١) أي من أهل العراق (٢) أى حدادا

(٣) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد للإمام الصالحى ج٢ ص٤٧٦/٤٧٨ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٩٤/١٩٧٤

(٤) صحيح البخارى للإمام البخارى جـ٩ ص ٢٧، ٢٨ ط الشعب

ومن المستضعفين أبو فكيهة واسمه أفلح ويقال يسار وكان عبدا لصفوان بن أمية فأسلم حين أسلم بلال فمر به أبو بكر رضى الله عنه وقد أخذه أمية بن خلف فربط فى رجله حبلا و أمر به فجر ثم القاه فى الرمضاء فمر به جعل فقال : أليس هذا ربك؟ فقال : الله ربى خلقنى وخلقك وخلق هذا الجعل فغلظ عليه وجعل يخنقه ومعه أخوه أبى بن خلف يقول زده عذابا حتى يأتى محمدً فيخلصه بسحره فأخرجه نصف النهار فى شدة الحر مقيدا إلى الرمضاء ووضع على بطنه صخرة فدلع [1] لسانه فلم يزل على تلك الحال حتى ظنوا أنه قد مات ، ثم أفاق فمر به أبو بكر رضى الله عنه فاشتراه واعتقه [2] .

فى تلك المرحلة العصيبة من مراحل الدعوة الإسلامية لم يكن فى وسع النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين أن يسلكوا فى سبيل دعوتهم وسيلة من وسائل الإعلام المعروفة غير الوسائل السلبية .

وذلك أننا يجب أن ننظر إلى مواقف المسلمين الرائعة فى الثبات على دينهم وعقيدتهم . وهى العقيدة التى تغلغلت فى أعماق قلوبهم إلى الحد الذى أيأس منهم الكفار والمشركين .

وبهذه الطريقة السلبية التى ثبت عليها النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون المضطهدون استطاع هؤلاء أن يكونوا أشبه شىء بنا قوس كبير يهدد الكفار والمشركين ويوقظ الإنسانية فى كل مكان ، ويشعر المكيين بأنهم أجرموا فى حق المسلمين المستضعفين وبأنهم مهما قسوا عليهم فلن يتركوا دينهم ولن يخذلوا نبيهم ولن يفرطوا فى عقيدتهم ، وفى هذا درس لهم وإعلام كبير بالرسالة التى نزلت على رجل منهم وإعلان عظيم عن هذه الرسالة التى أتى بها .

---

(١) خرج من الفم

(٢) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد للإمام الصالحى ط٢ ص٤٨٠ ، ٤٨٢ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٩٤/١٩٧٤

وهكذا خلت مرحلة الإضطهاد الدينى من أكثر الوسائل الإيجابية فيما خلا القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ولكنها لم تخل من الوسائل السلبية التى أثبت الزمن أنها لا تقل مطلقا عن الوسائل الإيجابية من حيث القوة[1].

المقاطعة

إن ماذكرناه من وسائل التعذيب والإهانة التى لحقت برسول الله صلى الله عليه وسلم من المشركين وتعنتهم معه واستهزائهم بأصحابه كل ذلك لم يفت فى عضد النبى صلى الله عليه وسلم ولم تلن قناته ولم يضعف رغم أن العداوة والشراسة والتربص بالداعية كان من اشد الناس له قرابة كأبى جهل وأبى لهب خاصة أن أبا لهب عندما استمع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف على الصفا ينادى على بطون قريش وجاء أبو لهب فيمن جاء وسمع ، الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : ارأيتم لو اخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم . أكنتم مصدقى ؟

قالوا . نعم ماجربنا عليك كذبا . قال . فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . فقال أبو لهب . تبا لك الهذا جمعتنا ؟... فأنزل الله فى شأنه «تبت يدا أبى لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد» والقصد من حمل الحطب إنها كانت تمشى بالنميمة والغيبة وتفترى الأكاذيب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نوادى النساء وكانوا يسخرون من رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما يخبرهم أن الحياة الدنيا يعقبها موت وبعد الموت بعث وبعد البعث حساب وبعد الحساب جزاء إما إلى جنة وإما إلى نار . «من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها»[2] ولمازاد العنت من المشركين وضاقت حيلهم ووجدوا أن الرسول صلب فى موقفه بل إنه

(١) الإعلام فى صدر الإسلام للدكتور عبد اللطيف حمزة ص١٢٦ ط الفكر العربى

(٢) من الآية ٤٦ سورة فصلت.

أعلن قائلا : والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه . عندئذ عرفوا أن صاحب الدعوة لم ولن يقبل منهم أى عرض من الأشياء التى عرضوها . لذلك عرضوا على أبى طالب أن يعطوه سيدا من شبابهم يتبناه ويسلم إليهم إبن أخيه ليقتلوه فقال لهم أبو طالب : عجبا لكم تعطونى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم إبنى تقتلونه؟ فلما وجدوا أن أبا طالب هو الآخر يصر على موقفه من حماية رسول الله صلى الله عليه وسلم والدفاع عنه . اجمعوا أمرهم على منابذه بنى هاشم والتضييق عليهم وكتبوا معاهدة (صحيفة) يتعاهدون فيها فيما بينهم أنهم لايبيعون شيئا إلى بني هاشم وبني المطلب ولا يبتاعون منهم حتى يسلموا محمدا للقتل وقد حاصروهم فى شعب أبي طالب وهذه المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية طبقوها على بني هاشم وبني المطلب سواء فى ذلك مسلمهم وكافرهم ماعدا أبا لهب فإنه كان مع قريش وانخزل عنهم بنوا عميهم عبد شمس ونوفل ابن عبد مناف ودخل الرسول صلى الله عليه وسلم هو ومن امن معه وانحاز إليه فى الشعب ولقد اجهد الرسول ومن معه واصبحوا فى غاية الارهاق لأنهم لم يجدوا ماياكلون ولا مايشربون ومع ذلك تحلوا بالصبر وكان الايمان يملأ قلوبهم والقرآن ينزل على نبيهم يحثه على الصبر ويخبره أن النصر آت لامحالة :

« حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء»[1] .

إن الحقيقة الناصعة التى يعرفها اتباع الحق أن الله لا يتخلى عن اتباع دينه الذى حمله للأنبياء وأمرهم بتبليغه ثم ختمتهم بسيدنا محمد الذى جعل رسالته خالدة عالمية لأنها الرسالة الخاتمة وصدق الله العظيم :

(١) الآية - ١١٠ من سورة يوسف

« شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه »[١] .

وهذا النبى العظيم لم يأت من فراغ وإنما بشرت به الأديان السابقة فما من نبى إلاوقال لقومه إنما أنا رسول إليكم ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد . وقد جاء فى الإنجيل أن عيسى عليه السلام بشر بالغار قليط . ومعنى هذه الكلمة بالعربية قريب من محمد أو أحمد ، والأوصاف التى نطق بها الانجيل لاتنطبق إلا على نبينا والقرآن أكبر شاهد حيث قال:

« وإذاقال عيسى ابن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوارة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد »[٢] .

وكذلك أخبرنا الحق أنه أخذ العهد على جميع الأنبياء أن يؤمنوا بهذا النبى الخاتم الذى رسالته للناس جميعا وأن يخبروا أقوامهم بذلك نفهم هذا المعنى من قول الحق سبحانه « وإذأخذ الله ميثاق النبين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمن به ولتنصرنه . قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم أصرى . قالوا أقررنا . قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين »[٣] .

وحول هذا يقول الإمام أبو العزائم :

الرسل من قبل النبى محمد
نوابه وهو الحبيب الهادى
موسى وعيسى والكليم وغيرهم
يرجون منه نظرة بودادى

(١) من الآية -١٣ من سورة الشورى (٢) من الآية -٦ من سورة الصف
(٣) من الآية -٨١ من سورة البقرة

رغبوا يكونوا أمة لمحمد

ويحبه فازوا بكل مرادى

وبمحكم القرآن عاهدهم له

أن يؤمنوا بسراجه الوقارى

ولأن الدعوة عالمية كان لابد لمبلغها أن يحرك اتباعه خارج حدود الأقليم الذى يدعو فيه . وتخير القائد العظيم أرض الحبشة لأنها بلاد فيها بقايا من النبوات السابقة وهم قوم يقبلون الدعوة لأن صفاء النفس من صفاتهم لأن بينهم بعض القسيسين والرهبان وهم إذا سمعوا ما أنزل من آيات الله سترق قلوبهم لعلمهم بأن الحق جاء على لسان رجل عرف بين قومه بالصادق الأمين. إن عالمية الإسلام لايختلف عليها أحد لأن الهجرة بعد الهجرة وإرسال الوفود والخطب المنبرية ولأن المنبر أقوى جهاز إعلامى كل ذلك يؤكد عالمية الإسلام وشموله وصدق الله العظيم «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا »[1].

مرحلة الهجرة .

بالغ المكيون فى اضطهاد الرسول صلى الله عليه وسلم وأتباعه كما بينا ، فلم يجد الرسول صلى الله عليه وسلم بدا من التفكير فى الهجرة وكانت هذه الهجرة على مرحلتين :

* الأولى هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة [2]

أشار النبى صلى الله عليه وسلم على أصحابه أن يتفرقوا وقال لهم « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لايظلم عنده أحد وهى أرض صدق يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه »

---

(١) من الآية ٣ من سورة المائدة.

(٢) الاعلام فى صدر الإسلام للدكتور عبد اللطيف حمزة ص١٢٨ ط دار الفكر العربى

عند ذلك خرج المسلمون المستضعفون إلى الحبشة فى هجرتين :

– الأولى . كان المسلمون إثنى عشر رجلا وأربع نسوة وخرجوا متسللين سرا راحلين إلى الحبشة فوفقهم الله عز وجل إلى سفينة تجارية حملتهم إلى أرض الحبشة ، وكان خروجهم فى شهر رجب .

– الثانية . خرج من المسلمين مع جعفر بن أبى طالب ثلاثة وثمانون رجلا وخرج أيضا تسع عشرة إمرأة وفى أرض الحبشة وجدا المستضعفون من المسلمين مستقرهم ومأمنهم .

خافت قريش أن يكون لهذه الهجرة أثر فى إنتشار دعوة التوحيد وازدياد المؤمنين بها حين يجد الداعون إليها الحماية من ملك الحبشة فتشتد شوكتهم ويقوى جانبهم .

لهذا أرسلوا إلى النجاشى ملك الحبشة رجليين هما عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص .

وقابل الرسولان أولا بطارقة النجاشى وقدما إليهم هدايا ليشفعوا لهما عنده فيجيبهما إلى طلبهما ثم دفعا إلى النجاشى بهدية قريش فقبلها منهما ثم قالا له أيها الملك إنه قد ضوى[1] إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك وجاءوا بدين ابتدعوه لانعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشيرتهم لتردهم إليهم فهم أعلم بهم عينا . وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .

وفى نظير الرشوة التى قدمها مبعوثا قريش إلى البطارقة تكلم هؤلاء عند النجاشى لمعاونة المبعوثين فى رد المسلمين إليهم ولكن النجاشى كان بعيد النظر فقد أبى أن يرد جوار المسلمين قبل أن يستمع إلى كلامهم وأرسل فى طلبهم

(١) ضوى : لجأ وأوى

فلما جاءوه سألهم . ما هذا الذى فارقتم به قومكم ولم تدخلوا به فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل؟.

تقدم جعفر بن أبى طالب فقال أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية . نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ويأكل القوى هنا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا . نعرف نسبة وصدقه وأمانته وعفافة فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ماكنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات وأمرنا أن نعبد الله وحده لانشرك به شيئا وأمرنا بالصلاة والزكاه والصيام وعدد جعفر ماجاء به النبى صلى الله عليه وسلم من أمور الإسلام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله وحده فلم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى وأن نستحل ماكنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك وإخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك.

وسأل النجاشى جعفراهل معك مما جاء به عن الله من شىء ؟ قال نعم وتلا عليه جزءا من سورة مريم (كهيعص) فلما سمع النجاشى ماتلاه جعفر بكى حتى اخضلت[1] لحيته كما بكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم من تأثير ما سمعوا ثم قال لهم النجاشى إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاه واحدة .. انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكما وعندما فشلا مبعوثا قريش فى استمالة

(١) ابتلت بالدموع .

النجاشى إليهما ورفض تسليمهما المسلمين بحث عمرو بن العاص عن حجة آخرى تثير عاطفة النجاشى العقائدية ليحقق طلب قريش وقال والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد الله ورسوله .

فلما كان الغد انطلق عمرو بن العاص إلى النجاشى وقال له أيها الملك إنهم يقولون فى عيسى بن مريم قولا عظيما ، فأرسل إليهم فسألهم عما يقولون فيه، فلما طلبهم النجاشى دخلوا عليهم فسألهم: ماذا تقولون فى عيسى بن مريم؟ فتقدم منه جعفر بن أبى طالب وقال له نقول فيه الذى جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم يقول «عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول»[1]. واغتبط النجاشى لما سمع[2].

وهكذا تغلب الإعلام الإسلامى الصحيح على الدعاية الوثنية فى حضرة النجاشى[3].

* الثانية – هجرة الرسول وأصحابه إلى يثرب .

أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللحوق باخوانهم من الأنصار وقال إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها فخرجوا إرسالا وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر أن يأذن له ربه بالخروج من مكة والهجرة إلى المدينة ... فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين من بنى مخزوم أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال هاجر إلى المدينة قبل

---

(١) العذراء البتول : المنقطعة عن الأزواج

(٢) من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم للأستاذ سعد صادق محمد ص٢٧ ، ٢٨ ط السنة المحمدية الأولى ١٣٨٦/١٦٦٧

(٣) الاعلام فى صدر الإسلام للدكتور عبد اللطيف حمزة ص١٣٠ط دار الفكر العربى

بيعتة أصحاب العقبة بسنة وكان قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة من أرض الحبشة فلما آذته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار خرج إلى المدينة مهاجرا .

قال ابن اسحاق قالت أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل لي بعيره ثم حملني عليه وحمل معى ابنى سلمة فى حجرى ثم خرج بى يقود بى بعيره ، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم قاموا إليه فقالوا هذه نفسك غلبتنا عليها أرأيت صاحبتك هذه؟ علام نتركك تسير بها فى البلاد؟ قالت فنزعوا خطام البعير من يده وأخذونى منه قالت عند ذلك قام بنو عبد الأسد رهط أبى سلمة فقالوا: لا والله لانترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا قالت فتجاذبوا ابنى سلمة بينهم حتى خلعوا يده وانطلق به بنو عبد الأسد وحبسني بنى المغيرة عندهم وانطلق زوجى أبو سلمة إلى المدينة قالت فرق بينى وبين زوجى وبين ابنى قالت فكنت أخرج كل غداه فأجلس بالأبطح فما أزال أبكى حتى أمسى سنة أو قريبا منها حتى مر بى رجل من بنى عمى أحد بنى المغيرة فرأى مابى فرحمنى فقال لبنى المغيرة ألا ترحمون هذه المسكينة؟ فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها قالت قالوا لى : الحقى بزوجك إن شئت قالت: ورد بنو عبد الأسد إلى عند ذلك ابنى قالت فارتحلت بعيرى ثم أخذت ابنى فوضعته فى حجرى ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة قالت وما معى أحد من خلق الله قالت : فقلت : أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجى ، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبى طلحة أخابنى عبد الدار فقال لى : إلى أين يا بنت أبى أمية؟ قالت : فقلت أريد زوجى بالمدينة قال : أومامعك أحد ؟ قالت : فقلت لا والله إلا الله وابنى هذا قال : والله مالك من مترك فأخذ بخطام البعير فانطلق معى يهوى بى فوالله ما صحبت رجلا من

العرب قط أرى أنه كان أكرم منه ، كان إذا بلغ المنزل أناخ بى ثم استأخر عنى حتى إذا نزلت استأخر ببعيرى ثم قيده فى الشجرة ثم تنحى إلى شجرة فاضطجع تحتها فإذا دنا الرواح قام إلى بعيرى فقدمه فرحله ثم استأخر عنى وقال اركبى فإذا ركبت واستويت على بعيرى أتى فأخذ بخطامه فقادة حتى ينزل بى فلم يزل يصنع ذلك بى حتى أقدمنى المدينة فلما نظر إلى قرية بنى عمرو بن عوف بقباء قال زوجك فى هذه القرية وكان أبو سلمة نازلا بها فادخليها على بركة الله ثم انصرف راجعا إلى مكة[1].

وتتابعت هجرة المسلمين إلى يثرب ومحمد صلى الله عليه وسلم مقيم حيث هو لا يعرف أحد أهو قد اعتزم الإقامة أم قرر الهجرة؟.

وبلغ من ذلك أن أبا بكر استأذنه فى الهجرة إلى يثرب فقال له لاتتعجل لعل الله يجعل لك صاحبا ولم يزد على ذلك [2] .

رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كانت له شيعة وأصحاب من غير بلدهم ورأوا خروج أصحابه المهاجرين إليهم عرفوا أنهم قد نزلوا دارا وأصابوا منعة فحزروا خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم فاجتمعوا له فى دار الندوة وهى دار قصي بن كلاب التى كانت قريش لاتقضى أمرا إلا فيها يتشاورون فيها مايصنعون فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خافوه ... اجتمعوا لذلك واتعدوا أن يدخلوا دار الندوة ليتشاوروا فيها فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم غدوا فى اليوم الذى اتعدوا له وكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة فاعترضهم ابليس فى هيئة شيخ واقفا على الباب فقالوا من الشيخ؟ قال شيخ من أهل نجد سمع بالذى اتعد تم له

---

(١) الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام جـ٢ ص٢١١، ١٢م ط مكتبة الكليات الأزهرية .

(٢) حياة محمد للأستاذ / محمد حسين هيكل ص١٧٣ ط مصر

فحضر معكم ليسمع ما تقولون وعسى أن لايعدمكم منه رأيا ونصحا، قالوا أجل فادخل فدخل معهم وقد اجتمع فيها اشراف قريش ..

فقال بعضهم لبعض إن هذا الرجل قد كان من أمره ماقد رأيتم وإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن قد تبعه من غيرنا فاجمعوا فيه رأيا قال فتشاوروا ثم قال قائل منهم احبسوه فى الحديد واغلقوا عليه بابا ثم تربصوا به ما أصاب اشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله زهير والنابغة ومن مضى منهم من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم .

قال الشيخ النجدى لا والله ما هذا لكم برأى والله لو حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء هذا الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثرونكم به حتى يغلبوكم على أمركم ما هذا لكم برأى فانظروا إلى غيره. فتشاوروا ثم قال قائل منهم نخرجه من بين أظهرنا فننتفيه من بلادنا فإذا خرج عنا فوالله ما نبالى أين ذهب ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت .

قال الشيخ النجدى والله ما هذا لكم برأى ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقة وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحل على حى من العرب فيغلب بذلك عليهم من قوله وحديثه حتى يبايعوه ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم ثم يفعل بكم ماأراد ديروا فيه رأيا غير هذا قال فقال أبو جهل بن هشام والله إن لى فيه لرأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد قالوا وما هويا أبا الحكم ؟ قال أرى أن تأخذوا من كل قبيلة شابا جلدا نسيبا وسيطا ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما ثم يعمدوا إليه فيضربونه ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا فرضوا منا

بالعقل فعقلناه لهم قال الشيخ النجدى القول ما قال هذا الرجل هذا الرأى ولا أرى غيره فتفرق القوم على ذلك وهم يجمعون له .

فاتى جبريل النبى صلى الله عليه وسلم فقال له لاتبت هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبيت عليه قال فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبون عليه فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم قال لعلى بن أبى طالب نم على فراش وتسج[1] ببردى هذا الحضرمى الأخضر فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم .

وخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ حفنه من تراب فى يده فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هذه الآيات (يس والقرآن الحكيم ... فأغشيناهم فهم لايبصرون)[2] ولم يبق رجل منهم إلا وقد وضع على رأسه ترابا ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب[3].

لقد كانت الهجرة فى ذاتها حركة إعلامية كبيرة قل أن يكون لها نظير فى التاريخ وحسبها ذلك لتكون فى الوقت نفسه ذريعه من أكبر ذرائع الإعلام فى نشأة الإسلام وعلى يد صاحب الدعوة الإسلامية الرسول الأعظم صلوات الله وسلامهعليه[4].

مرحلة المدينة.

استقر الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة وبها بدأ صفحة جديدة من صفحاته المجيدة .

---

(١) تسج : أى تغط (٢) سورة يس الآيات ١-٩

(٣) عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير لابن سيد الناس جـ١ ص١٧٧-١٧٩ ط دار لمعرفة

(٤) الإعلام فى صدر الإسلام للدكتور عبد اللطيف حمزة ص١٣٣ ط دار الفكر العربى .

والحقيقة التى لاينبغى إنكارها بحال من الأحوال أنه بقدر ما ضافت الوسائل الإعلامية الإيجابية للإعلام فى فترة الاضطهاد الدينى أوالعهد المكى المتأخر اتسعت أمام الرسول صلى الله عليه وسلم مجالات الإعلام بالطرق الإيجابية الجديدة ويمكن أن نشير من هذه الطرق إلى مايلى :.

الأذان

كان المسلمون خلال إقامتهم بمكة يجدون صعوبة كبيرة فى إقامة الصلاة على شكل جماعة فلما تمت الهجرة إلى المدينة أصبحوا أحرارا فى إقامة صلاة الجماعة ، وجلس الرسول وأصحابه يدرسون مختلف السبل التى يستطيعون بها إعلام المسلمين بمواقيت الصلاة[1] روى أبو داود بسنده عن عمير بن أنس عن عمومة له من الأنصار قال : اهتم النبى صلى الله عليه وسلم للصلاة كيف يجمع الناس؟ فقيل له انصب راية عند حضور الصلاة فإذا رأوها آذن بعضهم بعضا فلم يعجبه ذلك قال : فذكر له القنع[2] فلم يعجبه ذلك وقال هو من أمر اليهود قال فذكر له الناقوس فقال هو من أمر النصارى . فانصرف عبد الله بن زيد بن عبد ربه وهو مهتم لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرى الآذان فى منامه قال : فغدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال يارسول الله إنى لبين نائم ويقظان إذا أتانى آت فأرانى الأذان قال وكان عمربن الخطاب رضى الله عنه قد رآه قبل ذلك فكتمه عشرين يوما قال : ثم أخبر النبى صلى الله عليه وسلم فقال له ما منعك أن تخبرنى فقال سبقنى عبد الله بن زيد فاستحييت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يابلال قم فانظر ما يأمرك به عبد الله بن زيد فافعله قال فأذن بلال [3].

(١) الإعلام فى صدر الإسلام للدكتور عبد اللطيف حمزة ص١٣٤-١٣٦ ط دار الفكر العربى

(٢) القنع: يعنى الشبُّور وفى رواية للبخارى بوقا ينفخ فيه ليخرج الصوت.

(٣) عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير لابن سيد الناس ص٣٠٣، ٣٠٤ ط دار المعرفة.

هذا إعلان كبير للإسلام لفت أنظار الناس جميعا إلى المدينة ومنها انتشر فى بقية أجزاء شبه الجزيرة والإسلام أضاف وسيلة إعلامية جديدة هى المؤذن . وهو الذى ينادى على الناس لاقامة الصلاة فى مواقيتها ولذا كانت هذه الوسيلة من خير ما وفق إليه محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى الإعلان عن الإسلام والإعلام بأن الصلاة ركن من أركانه[1].

الإعلاميون الشهداء .

بدأت وسيلة إعلام جديدة بعد الهجرة هى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وفق ترتيبات معينة بعض أصحابه لإبلاغ الدعوة .

قدم أبو براء عامر بن مالك على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فعرض عليه الرسول صلى الله عليه وسلم الإسلام ودعاه إليه فلم يسلم ولم يبعد عن الإسلام وقال يا محمد لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنى أخشى عليهم أهل نجد ، قال أبو براء أنا لهم جار فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المنذر بن عمرو فى أربعين رجلا من أصحابه من خيار المسلمين .

فساروا حتى نزلوا بئر معونة وهى بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم فلما نزلوا بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عامر بن الطفيل فلما أداه لم ينظر فى الكتاب حتى عدا الرجل فقتله ثم استصرخ عليهم بنى عامر فأبوا أن يجيبوا إلى مادعاهم وقالوا : لن نخفر أبا براء وقد عقد لهم عقدا وجوارا فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سليم فأجابوه إلى ذلك فخرجوا حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم فى رحالهم فلما رأوهم أخذوا سيوفهم

---

(١) الإعلام فى صدر الإسلام للدكتور عبد اللطيف حمزة ص١٣٧ ط دار الفكر العربى

ثم قاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن زيد فإنهم تركوه وبه رمق فعاش حتى استشهد يوم الخندق[1].

رحم الله الإعلاميين الشهداء أبطال الإسلام فقد قدموا في سبيل الدعوة أرواحهم فكانوا نماذج يقتدى بها .

الرسائل إلى الملوك وسيلة إعلام دولى .

نذكر الرسائل الخاصة بالإعلام الدولى فهذا هو الذى يهمنا فى بحثنا

– الرسالة إلى النجاشى ملك الحبشة حملها عمرو بن أمية الضمرى

– الرسالة إلى قيصر ملك الروم « هرقل » حملها دحية بن خليفة الكلبى .

– الرسالة إلى كسرى ملك الفرس حملها عبد الله بن حذافة السهمى .

– الرسالة إلى المقوقس حاكم مصر واسمه جرنج بن ميها ملك الاسكندرية عظيم القبط حملها حاطب بن أبى بلتعة .

– الرسالة إلى الحارث بن أبى شهر الغسانى ملك البلقاء حملها شجاع بن وهب الأسدى .

– الرسالة إلى هوذة بن على الحنفى أمير اليمامة حملها سليط بن قيس بن عمرو الأنصارى .

– الرسالة إلى المنذر بن سلوى أمير البحرين حملها عمرو بن العلاء الحضرمى .

– الرسالة إلى أميرى عمان جعفر وعباد ابن الجلندى حملها عمرو بن العاص .

---

(١) السيرة النبوية للإمام ابن كثير تحقيق مصطفى عبد الواحد ص٣ ص١٤٢ ، ١٤٣ ط عيسى البابى الحلبى١٣٨٥/١٩٦٥

هؤلاء السفراء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تم اختيارهم كجزء من هذه المهمة [١] .

ونص الرسالة التى حملها دحية إلى هرقل :

(بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على بن اتبع الهدى أما بعد ..

فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم اليريسيين[٢] «يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون»[٣] .

وهذا نص الرسالة التى حملها عمرو بن أمية إلى النجاشى (بسم الله الرحمن الرحيم من رسول الله إلى النجاشى ملك الحبشة سلام على من إتبع الهدى أما بعد فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن . وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى فإنى رسول الله وإنى وجنودك إلى الله عز وجل وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتى والسلام على من اتبع الهدى[٤].

---

(١) المسئولية الإعلامية فى الإسلام للدكتور محمد سيد محمد ص ٩٠، ٩١ ط المؤسسة الوطنية للكتاب

(٢) اليريسيون . دهاقين القرى وكانوا إذ ذاك مجوسا

(٣) الآية –٦٤ من سورة آل عمران

(٤) عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير لابن سيد الناس ص٢ ص٢٦٢ ط دار المعرفة

الوفود

فى أواخر السنة التاسعة للهجرة والسنة العاشرة تدفقت على المدينة وفود تمثل مختلف القبائل والعشائر المعروفة فى شبه الجزيرة العربية ولذلك سمى العام العاشر للهجرة بعام الوفود وهذا يعد من أكبر النشاط الإعلامى لرسول الله صلى الله عليه وسلم[1].

وفد ثقيف

قدم وفد ثقيف على رسول الله صلى الله عليه وسلم وسبب ذلك أنهم ائتمروا بينهم ورأوا أن من يحيط بهم من العرب قد نصبوا لهم القتال وشنوا الغارات عليهم وكان أشدهم فى ذلك مالك بن عوف النصرى فلا يخرج منهم مال إلا نهب ولا إنسان إلا أخذ فلما رأوا عجزهم اجتمعوا وأرسلوا عبديا ليل بن عمرو بن عمير والحكم ابن عمرو بن وهب ، وشر حبيل بن غيلان وهؤلاء من الأحلاف .

وأرسلوا من بني مالك عثمان بن أبى العاص ، وأوس بن عوف ، ونمير بن خرشة فخر جواحتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فانزلم فى قبة فى المسجد فكان خالد بن سعيد بن العاص يمشى بينهم وبين النبى صلى الله عليه وسلم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسل إليهم ما ياكلونه مع خالد وكانوا لا ياكلون طعاما حتى ياكل خالد منه حتى أسلموا .

وكان فيما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدع الطاغية وهى اللات لايهدمها ثلاث سنين فأبى عليهم وكان قصدهم بذلك أن يتسلموا بتركها من سفائهم ونسائهم فنزلوا إلى شهر فلم يجبهم وسألوه أن يعفيهم من الصلاة فقال

---

(١) الإعلام فى صدر الإسلام للدكتور عبد اللطيف حمزة ص١٥٢ ط الفكر العربى.

لاخير فى دين لاصلاة فيه فأجابوا وأسلموا وأمر عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن أبى العاص وكان أصغرهم لما رأى من حرصه على الإسلام والتفقه فى الدين ثم رجعوا إلى بلادهم وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم المغيرة بن شعبة وأبا سفيان بن حرب ليهدما الطاغية فخرجا مع القوم حتى قدما الطائف فتقدم المغيرة بن شعبة فهدمها وقام قومه من بنى شعيب دونه خوفا أن يرمى بسهم وخرج نساء ثقيف حسرا يبكين عليها وأخذ حليها ومالها وكان أبو صليح بن عروة ابن مسعود وقارب بن الأسود بن مسعود قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قتل عروة والأسود فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقضيا دين عروة والأسود منه ففعلا .

وكان الأسود مات كافرا فسأل ابنه قارب بن الأسود رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقضى دين أبيه فقال إنه كافر فقال يصل مسلم ذا قرابته يعنى أنه أسلم فيصل أباه وإن كان مشركا[1].

وفد أحمس

قدم قيس بن غربه الأحمس فى مائتين وخمسين رجلا من أحمس فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من أنتم؟ فقالوا: نحن أحمس الله وكان يقال لهم ذلك فى الجاهلية فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنتم اليوم لله وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبلال أعط ركب بجيلة وابدأ بالأحمسيين ففعل .

وعن طارق بن شهاب رضى الله عنه قال : "قدم وفد بجيلة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتبوا البجليين وابدأوا بالأحمسيين فتخلف رجل من قيس قال : حتى أنظر ما يقول لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال فدعا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرات " اللهم جد عليهم اللهم بارك فيهم "

(١) الكامل فى التاريخ لابن الأثير جـ٢ ص١٥٤ ، ١٥٥ ط دار الكتب العلمية بيروت

وفى رواية قدم وفد أحمس ووفد قيس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ابدأوا وبالأحمسيين قبل القيسيين » ثم دعا لأحمس فقال « اللهم بارك فى أحمس وخيلها ورجالها سبع مرات[1].

وفد أزد عمان

أسلم أهل عمان فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم العلاء بن الحضرمى يعلمهم شرائع الإسلام ويصدق أموالهم فخرج وفدهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم أسد بن بيرح الطاحى فلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه أن يبعث معهم رجلا يقيم أمرهم فقال مخرمة العبدى واسمه مدرك بن خوط : ابعثنى إليهم فإن لهم على منه ، أسرونى يوم جنوب فمنوا على فوجهه معهم إلى عمان ، وقدم سلمة بن عياذ الأزدى فى أناس من قومه ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عما يعبد وما يدعو إليه فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ادع الله لى أن يجمع كلمتنا وألفتنا فدعا لهم وأسلم سلمه ومن معه[2].

وروى الطبرانى بسند رجاله ثقات عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله علية وسلم « نعم القوم الأزد طيبة أفواههم، برة أيمانهم، نقية قلوبهم[3].

وقال أبو لبيد خرج رجل من أهل عمان يقال له بيرح بن أسد الطاحى مهاجرا إلى النبى صلى الله عليهوسلم فقدم المدينة فوجده قد توفى فبينما هو فى بعض طرق المدينة إذ لقيه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال له : كأنك

(١) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد للإمام الصالحى جـ٦ ص٤٩٨ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(٢) المرجع السابق جـ٦ ص٤١٢ (٣) جامع الأحاديث للإمام السيوطى جـ٩ ص٣٩٢ ط ١٩٨٤

لست من أهل البلد؟ فقال:أنا رجل من أهل عمان فأتى به أبا بكر رضى الله عنه. فقال: هذا من الأرض التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] وفدأ سلم.

قدم عمير بن أفصى فى عصابة[2] من أسلم فقالوا : قد آمنا بالله ورسوله واتبعنا منها جك فاجعل لنا عندك منزلة تعرف العرب فضيلتها فإنا إخوة الأنصار، ولك علينا الوفاء والنصر فى الشدة والرخاء[3].

روى الإمام الطبرانى فى الكبير بسند صحيح عن سلمة الأكوع رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أسلم سالمها الله، وغفار غفر الله لها أما والله ما أنا قلته ولكن الله قاله[4].

وروى الإمام الطبرانى بسند حسن عن عبد الرحمن بن سند رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها وتجيب أجابوا الله[5].

وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا لأسلم ومن أسلم من قبائل العرب ممن يسكن السيف[6] والسهل وفيه ذكر الصدقة والفرائض فى المواشى وكتب الصحيفة ثابت ابن شماس وشهد أبو عبيدة بن الجراح وعمر بن الخطاب[7]

---

(١) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد للإمام الصالحى جـ٦ ص٤٠٢، ٤٠٣ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٢) العصابة الجماعة من الناس

(٣) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد للإمام الصالحى جـ٦ ص٤١٠ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

(٤) الجامع الصغير للإمام السيوطى جـ١ ص١٥٦ ط دار الفكر

(٥) المرجع السابق .

(٦) السيف . الجانب

(٧) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد للإمام الصالحى ص٦ ص٤١٠ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

وفد تجيب

قدم عليه صلى الله عليه وسلم وفد تجيب وهم من السكون ثلاثة عشر رجلا فساقوا معهم صدقات أموالهم التى فرض الله عليهم فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم وأكرم منزلهم وقالوا يا رسول الله سقنا إليك حق الله فى أموالنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ردوها فاقسموها على فقرائكم قالوا يا رسول الله ماقدمنا عليك إلا بما فضل عن فقرائنا فقال أبو بكر يارسول الله ماوفد من العرب بمثل ما وفد هذا الحى من تجيب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الهدى بيد الله عز وجل فمن أراد به خيرا شرح صدره للإيمان . وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أشياء فكتب لهم بها وجعلوا يسألونه عن القرآن والسنن فازداد رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم رغبة وأمر بلالا أن يحسن ضيافتهم فاقاموا أياما ولم يطيلوا اللبث فقيل لهم ما يعجلكم؟ قالوا نرجع إلى من وراءنا فنخبرهم برؤيتنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلامنا إياه ومارد علينا ثم جاؤا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يودعونه فأرسل إليهم بلالا فأجازهم بأرفع ما كان يجيز به الوفود قال هل بقى منكم أحد؟ قالوا نعم غلام خلفناه على رحالنا هو أحدثنا سنا قال أرسلوه إلينا فلما رجعوا إلى رحالهم قالوا للغلام انطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض حاجتك منه فإنا قد قضينا حوائجنا منه وودعاه فأقبل الغلام حتى أتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إنى امرؤ بنى أبذى يقول من الرهط الذى أتوك آنفا فقضيت حوائجهم فاقض حاجتى يا رسول الله قال وما حاجتك؟ قال إن حاجتى ليست كحاجة أصحابى وإن كانوا قد موا راغبين فى الإسلام وساقوا ما ساقوا من صدقاتهم وإنى والله ما أعملنى من بلادى إلا أن تسأل الله عز وجل أن يغفر لى ويرحمنى وأن يجعل غناى فى قلبى فقال رسول الله صلى الله عليه

وسلم وأقبل الغلام اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه فى قلبه ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه فانطلقوا راجعين إلى أهليهم ثم وافوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الموسم بمنى سنة عشر فقالوا نحن بنو أبذى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فعل الغلام الذى أتانى معكم؟ قالوا يارسول الله ما رأينا مثله قط وما حدثنا بأقنع منه بما رزقه الله لو أن الناس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها ولا التفت إليها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الحمد لله إنى لأرجو أن يموت جميعا فقال رجل منهم أو ليس يموت الرجل جميعا يا رسول الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم تشعب أهواؤه وهمومه فى أودية الدنيا فلعل أجله أن يدركه فى بعض تلك الأودية فلا يبالي الله عز وجل فى أيها هلك قالوا فعاش الغلام فينا على أفضل حال وأزهده فى الدنيا وأقنعة بما رزق فلما توفى رسول صلى الله عليه وسلم ورجع من رجع من أهل اليمن عن الإسلام قام فى قومه فذكرهم الله والإسلام فلم يرجع منهم أحد وجعل أبو بكر الصديق يذكره ويسأل عنه حتى بلغه حالة وماقام به فكتب إلى زيادبن لبيد يوصيه به خيرا[1].

ماذكرناه من الوفود أردنا أن نبين من خلاله الأثر الإعلامى لهذه الوفود التى وفدت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت الوفود إذا أقبلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل معها خطباؤها وشعراؤها فتكلموا وتناشدوا وكان خطباء المسلمين وشعراؤهم يردون على خطباء الوفود وشعرائهم وقد شهد التاريخ أن خطباء المسلمين المستقبلين لهذه الوفود كانوا أبلغ فى كل مرة من خطباء الوفود ولا غرابه فى ذلك فقد كان خطباء المسلمين المجاورين للرسول والصحابة إنما يستمدون معانيهم من القرآن الكريم ومن السنة ومن معاشرة الرسول نفسه ومعاشرة الصحابة معه[2].

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد للإمام ابن قيم الحوزية ص٣ . ٤٦ . ٤٧ ط المصرية .

(٢) الإعلام في صدر الإسلام للدكتور عبد اللطيف حمزة ص١٥٣ . ١٥٤ ط دار الفكر العربي .

الخطب النبوية

إن نظرة سريعة فى الخطب التى أثرت عن النبى صلى الله عليه وسلم تدلنا على أنها اشتملت على المجالات التالية :

أولا : الكلام فى مجال الدين من حيث أركانه وعباداته ومعاملاته وقد استغرق ذلك معظم حياة النبى صلى الله عليه وسلم منذ البعثة إلى نهايتها .

ثانيا : الكلام فى مجال الجهاد

ثالثا: الكلام فى مجال الأخلاق

رابعا : الثناء على الخالق سبحانه وتعالى بما هو أهله من الصفات .

خامسا : الثناء على أصحابه رضوان الله عليهم – بنوع خاص – أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وحث المسلمين جميعا على إكرامهم والرجوع إليهم فى كل ما أشكل عليهم من الأمر .

سادسا : أوصاف الجنة والنار

هذه هى أشهر المجالات التى سبحت فيها خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونريد أن نختار منها مجالين فقط[1] :

١- النبى صلى الله عليه وسلم يثنى على أصحابه

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : صعد النبى صلى الله عليه وسلم المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال : مالى أراكم تختلفون فى أصحابى أما علمتم أن حبى وحب آل بيتى وحب أصحابى فرضه الله تعالى على أمتى إلى

(١) الاعلام في صدر الإسلام للدكتور عبد اللطيف حمزة ص١٧١ ط دار الفكر العربي.

يوم القيامة ثم قال أين أبو بكر؟ قال ها أنا ذا يا رسول الله قال ادن منى فضمه إلى صدره وقبل بين عينيه ورأينا دموع رسول الله صلى الله عليه وسلم تجرى على خده ثم أخذ بيده وقال بأعلى صوته : معاشر المسلمين هذا أبو بكر الصديق هذا شيخ المهاجرين والأنصار ، هذا صاحبى صدقنى حين كذبنى الناس وآوانى حين طردوى واشترى لى بلالا من حاله فعلى مبغضة لعنة الله ولعنة.. اللاعنين والله منه برئ فمن أحب أن يبرأ من الله ومنى فليبرأ من أبى بكر الصديق وليبلغ الشاهد منكم الغائب ثم قال له اجلس يا أبا بكر فقد عرف الله ذلك لك .

ثم قال صلى الله عليه وسلم أين عمر بن الخطاب؟ فوثب إليه عمر فقال ها أنا ذا يارسول الله فقال ادن منى فدنا منه فضمه إلى صدره وقبل بين عينيه ورأينا دموع رسول الله صلى الله عليه وسلم تجرى على خده ثم أخذ بيده وقال بأعلي صوته : يا معشر المسلمين هذا عمر بن الخطاب هذا شيخ المهاجرين والأنصار هذا الذى أمرنى الله أن اتخذه ظهيرا ومشيرا . هذا الذى أنزل الله الحق على قلبه ولسانه ويده ، هذا الذى تركه الحق وماله من صديق، هذا الذى يقول الحق وإن كان مرا ، هذا الذى لايخاف فى الله لومة لائم هذا الذى يفرق الشيطان من شخصه هو سراج أهل الجنة فعلى مبغضة لعنة الله ولعنة اللاعنين والله منه برىء وأنا منه برىء .

ثم قال أين عثمان بن عفان؟ : فوثب عثمان وقال ها أناذا يارسول الله فقال ادن منى فدنامنه فضمه إلى صدره وقبل بين عينيه ورأينا دموعه تجرى على خده ثم أخذ بيده وقال يا معشر المسلمين هذا شيخ المهاجرين والأنصار هذا الذى أمرنى الله أن اتخذه سندا وفتنا على ابنتى ولوكان عندى ثالثة لزوجتها إياه هذا الذى استحيت منه ملائكة السماء فعلى مبغضه لعنة الله ولعنة اللاعنين .

ثم قال أين على بن أبى طالب ؟ فوثب إليه وقال ها أنا ذا يارسول الله فقال ادن منى فدنا منه فضمه إلى صدره وقبل بين عينيه ودموعه تجرى على خده وقال بأعلى صوته يا معشر المسلمين هذا شيخ المهاجرين والأنصار هذا أخي وابن عمي وختني هذا لحمي ودمي وشعري هذا أبو السبطين الحسن والحسين سيدى شباب أهل الجنة هذا مفرج الكرب عنى ، هذا أسد الله وسيفه في أرضه على أعدائه فعلى مبغضة لعنة الله ولعنة اللاعنين والله منه برىء وأنا منه برىء فمن أحب أن يبرأ من الله فليبرأ من على أبى طالب وليبلغ الشاهد منكم الغائب ثم قال اجلس يا أبا الحسن فقد عرف لك ذلك[1].

٣- فى حجة الوداع

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلاهادى له وأشهدوا أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمدا عبده ورسوله أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعة الله وأستفتح بالذى هو خير أما بعد .

أيها الناس اسمعوا منى أبين لكم فإنى لا أدرى لعلى لاألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا .

أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا وإنكم ستلقون ربكم فسيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع ولكن لكم رؤوس أموالكم لاتظلمون ولا تظلمون ، قضى الله انه لاربا إن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وإن كل دم كان فى الجاهلية موضوع وإن أول دماءكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب (وكان

(١) الرياض النضرة فى مناقب العشرة للمحب الطبرى ج١ ص٥٥، ٥٦ ط الجندى .

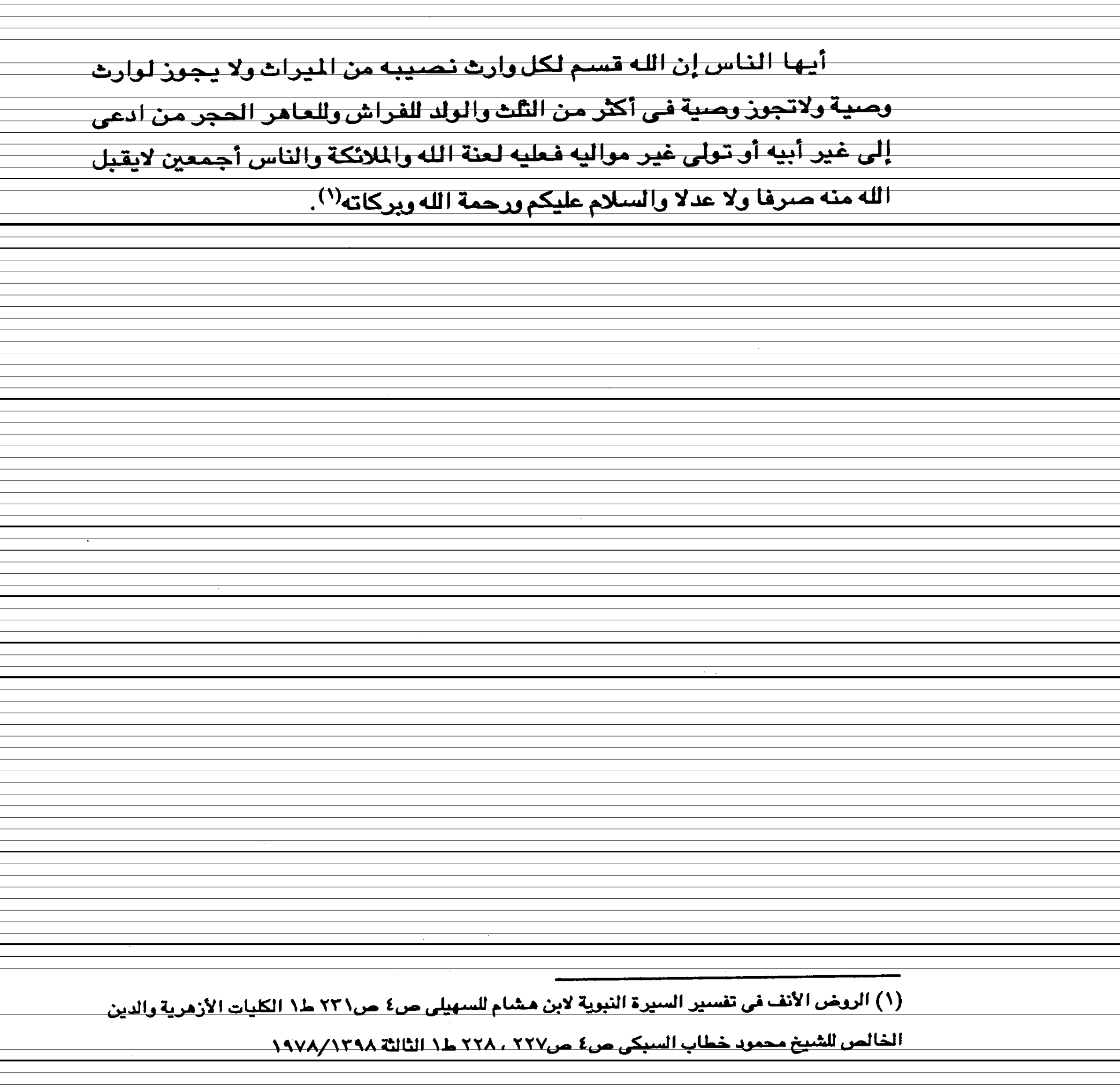
مسترضعا فى بنى ليث فقتلته هذيل) فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية وإن مآثر الجاهلية موضوعه غير السدانة والسقاية والعمد قود وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية .

أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم .

أيها الناس : إنما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ، ويحرموا ما أحل الله وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض وإن عدة الشهور اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاثة متوالية وواحد فرد : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان .

أيها الناس : إن لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقالكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه وعليهن ألايأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فإن انتهين وأطعنكم فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان لايملكن لأنفسهن شيئا وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرا فاعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلغت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا كتاب الله وسنة نبيه .

أيها الناس إن ربكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب أكرمكم عند الله أتقاكم وليس لعربى فضل على أعجمى إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت؟ قالوا نعم قال فليبلغ الشاهد منكم الغائب .



أيها الناس إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا يجوز لوارث وصية ولاتجوز وصية فى أكثر من الثلث والولد للفراش وللعاهر الحجر من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لايقبل الله منه صرفا ولا عدلا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[1].

(١) الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام للسهيلى ص٤ ص٢٣١ ط١ الكليات الأزهرية والدين الخالص للشيخ محمود خطاب السبكى ص٤ ص٢٢٧ ، ٢٢٨ ط١ الثالثة ١٣٩٨/١٩٧٨

« الخاتمة »

الآن وقد عشنا بين هذه الصفحات . وتبين لنا أن الإسلام دين عالمى . تؤكد ذلك الشواهد العقلية والنقلية . ومما لاشك فيه أن الإسلام عندما طلب منا الإيمان به . وجهنا إلى التأمل فى خلق السموات والأرض وإختلاف الليل والنهار . وإلى قدرة الله فى خلق الأنفس وما هو كائن على الأرض من شجر وماء ودواب وحيوان وإلى السماء وما فيها من شمس وقمر وأفلاك .

هذا الكون القائم على حكمة عالية وتدبير محكم «ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت»[1] . وكان من رحمة الله بالناس أن العقل قد يضل أو ينحرف . من أجل ذلك بعث الله الأنبياء والمرسلين هداه مرشدين . ولكل نبى معجزته . ومعجزة النبى محمد صلى الله عليه وسلم الخاتم القرآن الكريم . الذى وجهنا إلى قراءة التاريخ وأخذ العبرة من الماضين . لأن التاريخ له دورات . ولكل دور قادة ومصلحون . ومن فكر القادة يكون المنهج والأسس والقواعد . وكل ذلك يكون للإنسانية فى مرحلة زمنية . شأن كل ظواهر الحياة التى تصنع أثرها فى المجتمع . ثم تستنفد طاقاتها وتمضى تلك المرحلة لتفسح الطريق لمرحلة أخرى بفكر أكثر مواءمة لمتطلبات البيئة . مستفيدا بما ظهر من فكر السابقين . وما تحقق قبلة على يد الآخرين . لأن فكرة التطور : هى أن تظهر فكرة وتنتصر . وتؤسس نظاما تمارس منه فعلها ثم تمضى بعد أن أدت مهمتها . دون أن يتنبه نظامها إلى أنه بأداء المهمة المخطط لها فى ذهن المنفذين تتغير الأفكار بفعل عوامل الزمن والتقدم الحضارى .

والتاريخ يسجل ويصبح ما سجله ملكا للأجيال التى تستعرض بين الحين والحين تجارب السابقين . ولا يغيب عن البال أن الحقائق لاتتغير . وإنما التغير فى الأسلوب والممارسة الميدانية . لأن لكل زمان خصائصه ومقوماته . من هنا :

---

(١) الآية –٣ من سورة الملك

كان الذى بين يديك قراءات فى التاريخ القديم حيث ظهرت أفكار بشرية صقلتها تجارب فردية . ثم عدا عليها الزمن لأنها من صنع الإنسان . وإن بقى لها أثر فإنه يترنح بالفكر المستنير الذى تتلمذ على هدى الأنبياء الذين بعثوا قبل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . وكانت رسالاتهم محلية . لكنها أدت دورا بارزا فى هداية البشر .

وقراءات فى تاريخ النبى «محمد» صلى الله عليه وسلم النبى العالمى الخاتم الذى حمل وحى الله بعد أن مهد له الأنبياء السابقون وأعلن أنه جاء للناس جميعا فى قارات الأرض . ما عرف عنها ومالم يستكشف بعد ... وأنوار الرسالة المحمدية ساطع . فإذا ماعثرنا على فكر مظلم لأن عين صاحبه تنكر الشمس فى ضوئها فنحن نقول لهذا المريض : عالج نفسك من صيدلية التاريخ حتى تهتدى إلى الحق الذى نؤمن به . وندعو إليه . ونقول كما علمنا ربنا « فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين »[1] .

وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين ،

---

(١) من الآية -٩٢ من سورة النحل

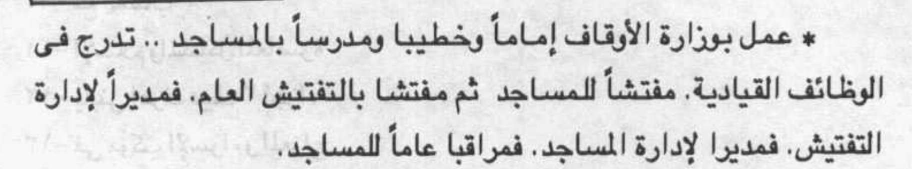
بتوفيق الله

هذا ما من الله به علينا في هذه العجالة التي تعتبر تمهيدا لهذه الدعوة العالمية الخاتمة لأنها دين الفطرة السليمة والتي مهد لها المصلحون بنور تفكيرهم وبشر بها الأنبياء والمرسلون ، ونزلت تعاليم هذه الدعوة العامة الخاتمة منهجا مستقيما ودينا حكيما على خاتم النبيين والمرسلين بعد أن مهد لها الرسل الكرام الطيبون وما حفظه التاريخ ووعاه الزمن من إرهاصات ومعجزات تمهد للدعوة الخاتمة وكيف بلغها هذا النبي العالمي الخاتم إلى الناس أجمعين ، وانتشرت في جميع ربوع العالم شرقا وغربا حتى شملت أكثر من ثلثي العالم في أقل من ربع قرن من الزمان على يد أتباعه حينما حمل الفدائيون من فجر الإسلام مشعل هذه الدعوة وبلغوها للناس حتى عم نورها ونصروا دين الله فنصرهم الله وأعزهم وكانوا قادة الدنيا وسادة العالمين وهذا ما سنوضحه بعون الله وتوفيقه في الجزء الثانى تحت الطبع بإذن الله ،

والله ولى التوفيق ،

الباحث فى سطور

الشيخ/ منصور الرفاعى عبيد



ولد فى محلة زياد .. مركز سمنود .. محافظة الغربية.

* تخرج من كلية أصول الدين ... جامعة الأزهر الشريف.

* عمل بوزارة الأوقاف إماماً وخطيبا ومدرساً بالمساجد .. تدرج فى الوظائف القيادية. مفتشاً للمساجد ثم مفتشا بالتفتيش العام. فمديراً لإدارة التفتيش. فمديرا لإدارة المساجد. فمراقبا عاماً للمساجد.

* له مؤلفات تزيد عن عشرين مؤلفاً.

* له العديد من المقالات فى وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية علاوة على برنامج يعده لإذاعة القرآن الكريم مع الشباب المسلم.

* عضو لجنة التعريف بالإسلام بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

* عضو شعبة الرعاية الاجتماعية بالمجالس القومية المتخصصة.

* عضو شعبة الشباب والرياضة بالمجالس القومية المتخصصة.

صدر للمؤلف

١- طريق الوصول والأرجى للقبول
٢- لمحات عن أمهات المؤمنين
٣- دعاء العارفين
٤- الفقه الإسلامى - العبادات
٥- الحج وكيف تؤديه؟
٦- أضواء على جوانب من الحضارة الإسلامية
٧- الزكاة والصيام
٨- أنوار وأزهار
٩- المرأة ودورها فى الهجرة
١٠- مع الشباب
١١- الإسلام والمشاكل المعاصرة
١٢- يابنى اعرف دينك ٣ أجزاء
١٣- فى موكب الإسراء و المعراج
١٤- القصص الهادفة
١٥- القصة فى القرآن
١٦- يابنى أقم الصلاة
١٧- أحاديث حول العقيدة
١٨- السيدة زينب رضى الله عنها .
١٩- المسجد ومكانته والإمام ورسالته
٢٠- مكانة المسجد فى الإسلام
٢١- الإسلام وصحة الإنسان
٢٢- الإسلام وتربية الناشئة
٢٣- الإسلام والتكافل الإجتماعى

تحت الطبع

١- الإسلام وتربية الأبناء
٢- حقوق الأبناء على الآباء من منظور إسلامي
٣- حقوق الطفولة بين المنهج الإسلامى والوضع القانونى
٢٤- الإسلام دعوة عامة عالمية جـ ٢

المراجـــع

١- القرآن الكريم

٢- تفسير ابن كثير، تفسير الألوسى. تفسير القرطبى للإمام الطبرى

٣- المواهب اللدونية : للقسطلانى

٤- الشعر والشعراء لابن قتيبة

٥- معجم البلدان لياقوت الحموى

٦- دلائل النبوة لأبى نعيم

٧- كتاب مكة والمدينة؟

٨- سيرة ابن هشام

٩- الكنز المرصود فى قواعد التلمود للدكتور يوسف حنا

١٠- فتح العرب لمصر للفرد بتلر تعريب محمد فريد ابو حديد

١١- كتاب الأصنام للكلبى لماذا أسلم هؤلاء؟

١٢- الرسالة المحمدية للأستاذ سليمان النووى

١٣- الإعلام فى صدر الإسلام للدكتور عبد اللطيف حمزة

١٤- عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير لابن سيد الناس

١٥- حياة الرسول ص للأستاذ سعد صادق محمد

١٦- سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد للإمام الصالحى

١٧- صحيح البخارى

١٨- الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام

١٩- حياة محمد للأستاذ محمد حسنين هيكل.

٢٠- المسئولية الاعلامية فى الاسلام للدكتور محمد سيد محمد

٢١- جامع الأحاديث للإمام السيوطى

الفهرس

الموضوع	صفحة
٢٢- البوذية	٥٢
٢٣- الزرادشتية	٦١
٢٤- مؤسس عقيدة زرادشت	٦٢
٢٥- التبشير	٦٤
٢٦- الكونفوشيوسية	٧٣
٢٧- كنفوشيوس	٧٦
٢٨- مؤامرة	٧٩
٢٩- نظم إنسانية	٨١
٣٠- عالمية الدعوة الاسلامية	٨٦
٣١- شريعة ناسخة	٩٢
٣٢- الثورة التى أحدثها القرآن الكريم	١١٢
٣٣- مبلغ هذا القرآن	١١٩
٣٤- الدعوة الجهرية	١٥٥
٣٥- الاضطهاد الدينى فى مكة	١٦٠
٣٦- المقاطعة	١٦٤
٣٧- مرحلة الهجرة	١٦٧
٣٨- مرحلة المدينة	١٧٤
٣٩- الإعلاميون الشهداء	١٧٦
٤٠- الرسائل إلى الملوك وسيلة إعلام دولى	١٧٧
٤١- الوفود	١٧٩
٤٢- وفد ثقيف	١٧٩
٤٣- وفد أزد عمان	١٨١

الموضوع	صفحة
٤٤- وفد تجيب	١٨٣
٤٥- الخطب النبوية	١٨٥
٤٦- فى حجة الوداع	١٨٧
٤٧- الخاتمة	١٩٠
٤٨- بتوفيق الله	١٩٢
٤٩- الباحث فى سطور	١٩٣
٥٠- صدر للمؤلف	١٩٤
٥١- المراجع	١٩٥
٥٢- الفهرس	١٩٦



رقم الإيداع
٢٧٣٩/٩١
الرقم الدولى
٩٧٧/٥٠/٣٦/٠١/٧

دار المدينة المنورة للطبع والنشر
١١٤ ش مجلس الشعب - القاهرة ت : ٣٩٠٨٨٤٨